جيل دلوز

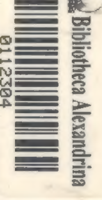
المعرفة والسُّلطة

مَدخل لقراءة فوكو

ترجمة

سالم يفوت





المعرفة والسلطة

* المعرفة والسلطة (مدخل الى قراءة فوكو) .
* تأليف : جيل دلوز .
* ترجمة : سالم يفوت .
* الطبعة الاولى ، 1987 .

* الناشر : المركز الثقافي العربي .
* بيروت ـ لبنان * الدار البيضاء ـ المغرب .

جيل دلوز

المعرفة والسلطة

مدخل لقراءة فوكو

ترجمة

سالم يفوت



هذه ترجمة لكتاب :

Gilles Deleuze

Foucault

Les éditions de Minuit
Paris, 1986

من نظام العبارة الى البيان

وثائقي جديد
« حفريات المعرفة »

تم تنصيب وثائقي جديد بالمدينة . لكن هل يتعلق الأمر في الحقيقة بتنصيب؟ ألا يتعلق الأمر بشخص يعمل بمحض ارادته ورغبته؟ نعته أناس حقودون بأنه ممثل جديد لتقنية جديدة ولتقنقراطية بنيوية . واتهمه آخرون ، يعتقدون في ترهاتهم أنها لا تصدر عن الهوى ، بأنه نصير لهتلر ، أو على الأقل ، لا يقيم وزناً لحقوق الانسان (لم يغفروا له اعلان « موت الانسان »)[1] ووصفه آخرون بأنه متصنع ، غير قادر على الادلاء بأي نص أساسي معترف بأهميته ، ولا يستشهد بأي من الفلاسفة الكبار الحقيقيين . أما آخرون ، فقد رأوا ، بالعكس ، أن أمراً ما جديداً ، وطريفاً مطلق الطرافة ، طرأ في الفلسفة وأن روعة عمل كهذا ، تكمن في ما يرده ويرفضه : فهو اشراقة صباح يوم سعيد .

على أي حال ، كل شيء بدأ كما تبدأ حكاية ما من حكايات « غوغول » (أكثر مما هو الأمر عليه لدى كافكا) . يعلن الوثائقي الجديد أنه لن يأبه سوى بالعبارات . لن يولي عنايته لما انصرف اليه ، بطرق لا حصر لها ، اهتمام الوثائقيين السابقين :

---

(1)ـ بعد ظهور كتاب الكلمات والأشياء ، حاول أحد المحللين النفسيين ، بكل ما وسعه الجهد لذلك ، التأكيد على أن هذا الكتاب الأخير يشبه « كتاب هتلر « Mein Kampf » كفاحي » . ومنذ وقت قريب تردد هذا الرأي على لسان أولئك الذين يعتبرون فوكو أحد المناوئين لحقوق الانسان .

أي القضايا والجمل . سيتخلى عن التسلسل العمودي للقضايا والذي تترتب فيه على نحو يجعلها متدرجة ، وكذا عن التسلسل الأفقي للجمل حيث تبدو كل جملة كأنها جواب للأخرى . وسيؤدي به تقلبه الى أن يبحث لنفسه عن مكان داخل مستوى مائل يمكن من قراءة ما كان من المتعذر فهمه وادراكه : أي العبارات . هل يتعلق الأمر بمنطق جديد لا يخضع للقواعد المتبعة والمتعارفة ؟ أمر طبيعي أن يستشعر المرء مثل هذاالانشغال . ذلك أن الوثائقي يصر متعمداً على عدم تقديم أمثلة . ويعتبر أنه ما انفك منذ لحظة يقدمها ، حتى ولو لم يكن هو ذاته ، وقتها ، يعلم شيئاً عن ذلك . والمثال الصوري الوحيد الذي يحلله الآن ، مثال تعمد فيه أن يكون مزعجاً : مجموعة من الحروف التي أكتبها بكيفية عشوائية ، أو أعيد كتابتها ثانية بنفس النظام الذي توجد عليه على ملامس الآلة الراقنة . « ليست ملامس الآلة الكاتبة عبارة ، إلا أن مجموعة الحروف A,Z,E,R,Tالواردة في كتاب لتعليم الرقن ، هي عبارة عن النظام الأبجدي المستعمل في الآلات الكاتبة الفرنسية »[2]. ليس لمثل هذه الألوان من الكثرة أي بناء لساني منتظم ، لكنها تعتبر رغم ذلك عبارات . هل A,Z,E,R,T حقاً عبارة ؟ إن تعودنا على ما يفعله الوثائقيون الآخرون ، يجعل أيامنا ، والحالة هذه ، يتساءل مع نفسه ، كيف يستطيع توليد عبارات .

يؤكد فوكو كذلك على أن العبارات أساساً نادرة وطفيفة . لا من حيث الواقع فحسب ، بل وحتى من حيث المبدأ : فهي لا تنفصل عن قانون الندرة ومفعوله . ولعل في هذه السمة ما يميزها عن القضايا والجمل ، ويجعلها مخالفة لها . إذ نستطيع أن نتصور أي قدر شئنا من القضايا ، أي بمقدار ما نجعل بعضها يعبر « عن » البعض الآخر ويشرحه ، طبقاً لاختلاف أنواعها ، و« الصورنة » كصياغة صورية ، لا تميز بين الممكن والواقع ، بل تعمل على توليد عدد وفير من القضايا الممكنة بواسطة الاستنتاج . أما فيما يتعلق بما يقال فعلاً ، فان ندرته الفعلية مصدرها أن جملة ما تنفي جملاً أخرى أو تصدها ، تكذبها أو تكبتها ، بحيث أن كل جملة تحمل في أحشائها كذلك ما لم تقله ، أي أنها حبلى بمضمون ممكن أو كامن يضاعف معناها ، ويفسح المجال للتأويل ، مشكلاً بذلك « خطاباً متوارياً » أي ثروة حقيقية ممكنة .

---

(2) Archèologie de Savoir. P.114.

يخضع جدل الجمل دوماً للتناقض ، ولو على الأقل لحله أو تعميقه ، اما تصنيف القضايا فيخضع للتجريد الذي يقوم بوصل كل مستوى معين بصنف أعلى من عناصره . غير أن التناقض والتجريد هما طريقا تكاثر الجمل والقضايا ، ذلك التكاثر الذي يتخذ باستمرار صورة معارضة جملة بأخرى ، أو توليد قضية بمناسبة قضية أخرى. أما العبارات ، فهي على العكس من ذلك ، لا تنفصل عن فضاء الندرة الذي تتوزع فيه توزعاً يحكمه مبدأ التقتير أو النقص حتى . ليس في ميدان العبارات ممكن ولا كامن : كل ما فيه واقعي ، وكل وقائعه وقائع جلية : لا يعتد فيه الا بما تم التعبير عنه هنا في هذه اللحظة أو تلك ، بهذه الثغرات أو تلك ، هذه الفراغات أو تلك . لكن المؤكد مع ذلك ، هو أن العبارات قد يعارض بعضها بعضاً ، وتنقسم الى مستويات يحكمها التراتب . إلا أن فوكو يوضح بدقة ، في فصلين من كتاب « الحفريات » ان التناقض بين العبارات ، لا يوجد الا بفضل مسافة ايجابية قابلة للقياس داخل فضاء ندرة ، وأن المقارنة بين العبارات ، تستند الى انحراف متحرك ، يسمح داخل هذا الفضاء بالمواجهة الفورية لذات المجموع بمستويات مختلفة ، بل وكذا بالاختيار المباشر لبعض المجموعات ، من نفس المستوى ، دون اعتبار للمجموعات الأخرى التي تعد ، مع ذلك ، جزءاً لا يتجزأ منها (والتي قد تستلزم انحرافاًمخالفاً)[3]. والفضاء المطفف أو فضاء الندرة ، هو ما يسمح بامكان تلك الحركات والانتقالات والأبعاد والتقطيعات النادرة ، وبتلك « الصورة المليئة بالفجوات والمتناثرة » التي تجعلنا نندهش أمام الظاهرة الفريدة التي تتسم بها العبارات والمتمثلة في كون « النزر اليسير من الأشياء هو الذي يسمح له بأن يقال »[4]. ما هي النتائج الّتي سوف تترتب عن عملية النقل هذه، للمنطق الى عنصر الندرة والتبعثر ، الذي لا يمكن اعتباره ، على الاطلاق ، نوعاً من السلب أو النقص ، بل هو على العكس « الايجاب » أو « الوضعية » التي تخص العبارات وتميزها ؟ .

---

(3) حفريات المعرفة 3.IV و4. يشير فوكو الى أن اهتمامه في كتاب « الكلمات والأشياء » انصب على ثلاث تشكيلات من نفس المستوى : التاريخ الطبيعي ، تحليل الثروات ، النحو العام : وان كان بامكانه أن يهتم بتشكيلات أخرى (نقد النصوص الدينية ، البلاغة ، التاريخ . . .) مع احتمال اكتشاف « شبكة تلاقي كل الخطابات لا تتفق والشبكة الأولى ، لكنها تقاطع معها في بعض النقط ص (208).

(4) حفريات المعرفة. ص 157.

لم يتوان فوكو عن طمأنتنا بالاشارة الى أنه إذا كان من الصحيح أن العبارات طفيفة ونادرة في أساسها ، فلا حاجة تدعونا أصلاً إلى توليدها وإكثارها . إن العبارة لا ترسل دوماً سوى خصوصيات ونقط فريدة تتوزع داخل فضاء يوافقها . يطرح تكوين هذه الفضاءات ، كما يطرح تحولها ، مثلما سنرى ، قضايا لها علاقة بموقع العبارة بين العبارات الأخرى ، وتمنعنا من النظر إليها من زاوية الابداع والخلق والأصل والأساس . أي أننا فيما يتعلق بالفضاء ، في غنى عن البحث في ما اذا كانت العبارة تدشن ، ولأول مرة ، مرحلة جديدة من تاريخ الخطاب ، أو أنها مجرد تقليد واقتفاء لعبارة أخرى أو استنساخ لها. لأن ما يهمنا هو انتظام العبارة: ولسنا نعني به هنا، المعدل المتوسط ، بل المنحنى ذاته . إذ العبارة لا تلتبس بارسال الفرديات ، وإن كانت تفترضه ، بل باتجاه المنحنى الذي يمر على مقربة من تلك الفرديات ، وبقواعد الحقل الذي تتوزع داخله وتتكرر ، بوجه عام . أجل ، ان ما يهمنا هو انتظام العبارة . وعليه ، « يغدو التعارض بين الأصالة والابتذال تعارضاً في غير محله ، ولا يفي بالغرض . فبين التعبير الاول والجملة التي تردده بشيء ما من الدقة بعد سنين أو قرون من الزمن ، لا يقيم الوصف الحفري أي تراتب قيمي ، ولا يتصور وجود أي اختلاف جوهري»[5] أي أننا صرنا في غنى عن مسألة الأصالة خصوصاً بعد أن أصبحت مسألة الأصل لا تطرح بتاتاً . لم تعد ثمة حاجة لإحالة عبارة ما إلى كوجيطو ، ولا ارجاعها إلى ذات ترنسندنتالية تملك شروط امكانها ، أو اعتبارها من ابداع أنا يتلفظ بها للمرة الأولى (أو يستعيدها) أو القول بأنها تعكس « روح عصر » ما ، تحتفظ بها وتنشرها وتعيد تقطيعها[6]. ثمة عدد من « المواقع » تحتلها الذات داخل كل عبارة ، وهي مواقع لا تتعين أو تتحدد بكيفية نهائية ، بل يصيبها التغير. ولما كانت ، بالذات ، مواقع يمكن أن يشغلها أفراد مختلفون ، كانت العبارة ، في كل حالة ، موضوعاً عينياً لتراكم تستمر بحسبه وتحافظ على بقائها وتنتقل وتتكرر . فالتراكم عبارة عن تأسيس مستودع ما ، وهو لا يتناقض والندرة ، بل يشكل مفعولها . أنه يقصي مفاهيم كالأصل والعودة الى الأصل ، ليحتل مكانها : العبارة كالذكرى البرغسونية ، تحتفظ بذاتها داخل فضائها ، وتحافظ على نفسها سواء عرف ذلك

---

(5) حفريات المعرفة. ص 188. (حول تشبيه العبارة بالمنحنى ، أنظر ص 109).
(6) حفريات المعرفة. ص 207. (خصوصاً انتقاده لمفهوم « رؤية العالم ») .

الفضاء دواماً واستمراراً ، أو أعيد انشاؤه.

علينا أن نميز حول العبارة ، ثلاث دوائر ، تكون بمثابة ثلاث شرائح من الفضاء أو ثلاثة مستويات منه . أولها فضاء جانبي ، ملتحم أو متاخم ، يتكون من عبارات تنتمي الى نفس الزمرة . وليس لمسألة معرفة ما اذا كان الفضاء هو الذي يحدد الزمرة ، أو زمرة العبارات هي تحدده ، كبير قيمة هنا . فلا وجود لفضاء متجانس لا يرتبط بالعبارات ، كما لا وجود لعبارات لا تتحدد داخل فضاء ، فهما معاً يلتقيان في مستوى قواعد التكوين ويمتزجان . والمهم هنا هو أن قواعد التكوين تلك ، لا يمكن ردها الى مبادىء أولية ، كما هو الشأن بالنسبة للقضايا ، ولا الى سياق ، كما هو الأمر بالنسبة للجمل . ان القضايا ترتد بكيفية عمودية الى مبادىء أولية من مستوى عال ، تعين ثوابت أصلية وتحدد منظومة متجانسة . بل إن بناء هذا النوع من المنظومات المتجانسة ، ليعد شرطاً من شروط اللسانيات والجمل ، بامكان عضو منها أن ينتمي الى منظومة ما ، وأن ينتمي عضو آخر الى منظومة مغايرة ، تبعاً لمتغيرات خارجية . أما العبارات فأمرها مختلف تماماً : ان التغيير صفة ملازمة لها ، وهذا ما يجعلنا لا نكون أبداً أمام منظومة ، وان كنا ما ننفك ننتقل من منظومة الى أخرى (حتى داخل نفس اللغة الواحدة) . فالعبارة اذن ، ليست لا جانبية ولا عمودية ، بل هي عرضانية ، وتلك صفة تنطبق حتى على قواعدها . ولعل فوكو يلتقي في هذه النقطة مع « لابوف» Labov ، خصوصاً عندما يؤكد أن فتى أمريكياً أسوداً ، ما ينفك ينتقل من نظام « الانجليزية كما يتكلمها السود ، الى نظام « الأمريكية الدارجة » والعكس ، بقواعد متغيرة أو اختيارية تسمح بتحديد انتظامات ، لا بتحديد تجانسات[7]. وحتى

(7) أنظر : Sociolinguistique, Ed de Minuit, 262 – 265.

ان المهم لدى « لابوف » هو فكرة قواعد بدون ثابت أو تجانس . بامكاننا الاستشهاد بمثال آخر ، أقرب الى الأبحاث اللاحقة لفوكو والتالية لكتاب الحفريات : حينما قام « كرافت إيبنغ» Kraft Ebing بتأليف مدونته الكبرى للانحرافات الجنسية ، سيكلوجية الانحرافات الجنسية Psychopathia sexualis ، نلاحظ أن الجمل الألمانية تنطوي على كلمات لاتينية كلما كان موضوع العبارة بذيئاً . ثمة دائماً انتقال من منظومة الى أخرى في الاتجاهين . قد يقال أن مرد ذلك هو الظروف أو المتغيرات الخارجية (كالحياء ، أو الرقابة)، وهو شيء صحيح من وجهة نظر الجملة ، أما من وجهة نظر العبارة ، فان عبارات الجنس لدى « كرافت ايبنغ » لا تنفصل عن تغير ذاتي ملازم . ومن غير الصعب اثبات أن أية عبارة ينطبق عليها هذا .

في الوقت الذي تبدو فيه العبارات كأنها تعمل داخل نفس اللغة الواحدة ، فإنها تنتقل من الوصف الى الملاحظة والى الحساب الاحصائي وقوانين المؤسسات والتعليمات ، أي الى عدد من المنظومات أو اللغات[8] ما « يكون » زمرة من العبارات أو صنفاً منها إذن ، هو قواعد الانتقال والتنوع ، وهي قواعد من نفس المستوى ، تجعل من « صنف » العبارات ذاك فضاء لتبعثرها وتباينها ، وهو شيء يتناقض والتجانس . هذا هو الفضاء الملتحم والمتاخم : ترتبط فيه كل عبارة بباقي العبارات الأخرى المغايرة لها ، والتي رغم اختلافها تكون مع ذلك كلاً واحداً متصلاً تحكمه قواعد انتقال (تكون بمثابة خطوط تحدد وجهته) . وعلى هذا الأساس ، لن تغدو العبارات مقترنة بكثرة « نادرة » ، وفي الوقت ذاته منتظمة ، فحسب ، بل تغدو الى جانب ذلك كثرة : كثرة وليس بنية أو منظومة . فالنظر الى العبارات من زاوية موقعها Topologie ، يتناقض وتصنيف القضايا Typologie ، وجدل الجمل . وفي اعتقادنا أن عبارة ما أو صنفاً ما من العبارات ، أو تشكيلة خطابية معينة ، تتحد أولاً ، حسب رأي فوكو ، بخطوط تغير ملازمة لها أو بحقل قواعد موجهة تتوزع داخل فضاء متلاحم : تلك هي العبارة كدالة أصلية ، أو ذاك هو المعنى الأول « للانتظام » .

شريحة الفضاء أو مستواه الثاني ، هو الفضاء المترابط ، الذي لا يلزم خلطه بالفضاء المتلاحم . ويتعلق الأمر هذه المرة ، بالرباط الذي يجمع العبارة ، لا بعبارات أخرى ، بل بذواتها وموضوعاتها ومفاهيمها . وهنا تتوفر الحظوظ في اكتشاف فروق جديدة بين العبارة من جهة ، والكلمات والجمل والقضايا من جهة ثانية . ذلك أن الجمل تحيل الى ذات ، نعتبر أنها هي التي تعبر وتملك ناصية التعبير ، كما يبدو أنها تملك القدرة على بداية الخطاب والشروع فيه : يتعلق الأمر بضمير المتكلم المفرد ، كضمير لساني لا يقبل الارجاع إلى ضمير الغائب ، حتى حينما لا يتم التنصيص عليه صراحة كواصل لا يحيل إلا إلى ذاته . هكذا اذن ، يتم تحليل الجملة من زاوية نظر مزدوجة ، زاوية نظر الثابت الجوهري (صورة ضمير المتكلم المفرد)، وزاوية نظر المتغيرات العارضة والطارئة (من يقول أنا شاغلاً تلك الصورة) . أما تحليل العبارة ، فيختلف عن ذلك تمام الاختلاف : فالعبارة لا تحيل الى صورة

---

(8) حفريات المعرفة ص 48. (أنظر مثال ما جاء عن العبارات الطبية في القرن 19).

وحيدة ، بل الى مواقع جوهرية كثيرة التغير ، لكنها من صميم العبارة ذاتها وجزء لا يتجزأ منها . ففي الوقت الذي تحيل فيه عبارة « أدبية » ما ، مثلاً ، الى مؤلف ، نجد أن رسالة مجهولة ، تحيل هي بدورها الى مؤلف ، إنما بمعنى مختلف ، وان رسالة عادية تحيل الى موقعها ، وان عقداً ما يحيل الى ضامن ، وان الملصق يحيل الى من كتبه ، وأن مجموعاً ما يحيل الى ما قام بتصنيفه[9]. . . إلا أن كل ذلك ، يدخل في عداد العبارة ، وإن كان لا يدخل في عداد الجملة : فهو دالة مشتقة من الدالة الأصلية ، دالة مشتقة من العبارة . وتعد علاقة العبارة بذات تتغير ، متغيراً جوهرياً في العبارة . فالجملة القائلة « نمت مبكراً منذ وقت طويل » ، تظل هي هي ، أما العبارة فتتغير بحسب ما اذا أسندت إلى ذات ما ، أياً كانت ، أو الى « بروست » Proust، الذي يستهل بها أول سطر من كتابه « في البحث عن الزمن الضائع » وحيث تتردد على لسان أحد الرواة. يضاف الى ما قيل : من الممكن إذن أن يكون لنفس العبارة عدة مواقع وعدة مواضع تشغلها الذات : مؤلف ، قاص ، مُوَقِّع ، مؤلف ، مثلما هو الحال بالنسبة لرسالة من رسائل « مدام دوسيفيني » Mme de Sévigné (حيث لم يكن المرسل إليه واحد في الحالتين)، أو راوٍ ومروي عنه ، مثلما هو الحال في الخطاب الحر غير المباشر حيث يتداخل موقعا الذات ويتسلل أحدهما إلى الآخر) . غير أن هذه المواقع جميعها ، لا تعكس وجوهاً لضمير متكلم أصلي ، منه تتفرع العبارة ، بل إن هذه الأخيرة تتفرع بالعكس ، من العبارة ذاتها ، وتبعاً لذلك ، تظل وجوهاً « لا شخصية » لا تنسب إلى أشخاص فاعلين ، أي تبنى « للمجهول » أو « لغير الفاعل » مثلما هو الشأن في قولنا : « يتحدث عن». . . والذي يتحدد بحسب صنف العبارات . ويلتقي فوكو في هذه النقطة مع « بلانشو » M.Blanchot الذي ينبذ كل بناء للمعلوم في اللغة ، ويبحث للذات عن مواضع داخل سمك همس مجهول الهوية . وفي هذا الهمس ، الذي لا بدء له ولا منتهى ، سيحاول فوكو أن يبحث لنفسه عن مكان ، تعينه له العبارات[10]. ولعلها العبارات الأبلغ أثراً لدى فوكو .

---

(9) M.Foucault, «Qu'est – ceqa'an auteur »? Bulletin de lla Société française de Philosophie. 1969. p.83.

حفريات المعرفة. ص 121 – 126 (خصوصاً، مثال العبارات العلمية) .

(10) في مستهل كتاب « نظام الخطاب » يعبر فوكو عن رغبته في أن يكون مغموراً بالكلمة ، وأن ينفذ خلسة =

نفس الشيء ينطبق على موضوعات العبارة ومفهوماتها . من المفروض في قضية ما أن لها مرجعاً . والمرجعية أو القصدية ثابت جوهري في القضية ، أماالظروف والأحوال التي تأتي لتملأ هذه الأخيرة (أو لا تملأها)، فهي متغير عارض . وهذا شيء لا يصدق على العبارة : ذلك أن موضوع هذه الأخيرة « موضوع خطابي » لا يرتبط البتة بظروف أو أحوال بعينها ، بل يتفرع ، بالعكس ، من العبارة ذاتها . فهو موضوع مشتق ويتحدد تحديداً دقيقاً في نطاق الحدود التي ترسمها خطوط تغير العبارة كدالة أصلية . ولن يكون من المجدي أيضاً ، التمييز بين الأشكال المختلفة للقصدية ، والتي تشغل بعضاً منها الظروف والأحوال ، ولا تشغل الآخر ، لكونه مختلفاً أو متخيلاً على وجه العموم (مثل « قابلت قارناً [= (حيوان أسطوري)] أولا معقولاً (كالدائرة المربعة) . وقد كان سارتر يذهب إلى أن أي علم وأية صورة خيالية ترد في الأحلام ، لها ، خلافاً لحالات النوم الثابتة ولعالم اليقظة العادي ، عالم نوعي خاص[11]. وعبارات فوكو كالأحلام : لكل عبارة عبارة ، موضوعها الخاص بها ، ويحيط بها عالم بأكمله ـ فقولنا مثلاً : « يوجد جبل ذهبي بكاليفورنيا »، عبارة ليس لها مرجع . إلا أنه لا يكفي مع ذلك التماس هذا الأخير في قصدية فارغة كل شيء فيها جائز ومباح (الوهم عامة) . ذلك أن لعبارة « يوجد جبل ذهبي بكاليفورنيا » موضوع خطابي ، هو ذاك العالم الخيالي المحدد الذي « يبيح وهماً جيولوجياً كهذا ، أولا يبيحه » (سيتضح الأمر بكيفية أفضل لو اعتمدنا العبارة » والتي لا تحيل بوجه عام الى الوهم ، بل إلى عالم خاص جداً يحيط عبارة « فيتزجرالد » Fitzgerald في ارتباطها بعبارات أخرى لذات المؤلف ، والتي جميعها ، تشكل « صنفاً » من العبارات»[12]. ذات النتيجة ، تصدق على المفهومات : ان لكل لفظ ما تصوراً يعتبر مدلولاً له ، أي متغيراً خارجياً يحيل إليه

= اليه بدل أن يتناول الخطاب. يتخذ التأكيد على كون الكلام يجاوز الذات ولا ينسب اليها ، وعلى كونه يبنى للمجهول، في كتاب الكلمات والأشياء صيغة « الوجود المادي للغة » ، وفي كتاب الحفريات صيغة « وجود اللغة ». يرجع هنا الى نصوص « بلانشو » حول الصيغة اللاشخصية (لاسيما في كتابه La part du feu غاليمار. ص 23) وصيغة البناء للمجهول (خصوصا في كتابه **L'espace littéraire** غاليمار. ص 160 – 161).

(11) Sartre, **L'imaginaire**, Gallimard, 322 – 323.

(12) حفريات المعرفة ص 118.

بواسطة دواله (ثابت جوهري) . ولا شيء من هذا ينطبق على العبارة . فهذه الأخيرة تملك تصوراتها ، أو على الأصح « رسومها » الخطابية الخاصة بها ، في ارتباط بمنظومات مغايرة ، بفضلها تلعب العبارة دور دالة أصلية : مثال ذلك : ألوان الجمع أو التفريق المتغيرة التي تعرفها الأعراض في العبارات الطبية (ففي القرن السابع عشر كثر الكلام على المس ثم ظهر المس الأحادي في القرن التاسع عشر. . .)[13] .

إذا كانت العبارات تتميز عن الكلمات والجمل أو القضايا ، فلأنها ، أي العبارات ، تنطوي أو تتضمن في ذاتها ، على دوال الذات ودوال الموضوع ودوال التصور ، « كمشتقات » لها . أو بعبارة أصح ، ليست الذات والموضوع والتصور ، سوى دوال مشتقة من الدالة الأصلية أو العبارة . بحيث أن الفضاء المترابط هو النظام الخطابي لمواضع الذات ومواقعها ، النظام الخطابي لمواضع الموضوعات والتصورات ومواقعها داخل صنف بعينه من العبارات . وذاك هو المعنى الثاني « للانتظام » : فهذه المواضع المختلفة ، تمثل نقاطاً فردية . وتقابل منظومة الكلمات والجمل والقضايا تلك ، والتي يمكن أساس عملها كمنظومة ، في الثابت الجوهري والمتغير العارض ، كثيرة العبارات التي طابعها المميز هو التغير الملازم والتغير الجوهري . وما يظل بالنسبة للكلمات والجمل والقضايا مجرد عارض طارىء ، يغدو بالنسبة للعبارات قاعدة . وبهذه الكيفية يرسي فوكو دعائم تداولية جديدة .

تبقى الشريحة أو المستوى الثالث ، وهو مستوى عارض : انه الفضاء التكميلي أو فضاء التشكيلات غير الخطابية («كالمؤسسات والأحداث السياسية والممارسات والعمليات الاقتصادية ») . وبخصوص هذه النقطة ، ينتهي فوكو الى بلورة مفهوم فلسفة للسياسة . ذلك أن مؤسسة ما تنطوي على عبارات ، كدستور مثلاً أو معاهدة أو تعاقد أو تقييدات وتسجيلات ، والعكس بالعكس ، أي أن العبارات تحيل هي الأخرى الى وسط مؤسسي ، بدونه يتعذر على الموضوعات التي تحتل هذا المكان أو ذاك من العبارة أن تظهر ، كما يتعذر على الذات التي تتكلم من هذا الموقع أو ذاك

---

(13) بخصوص « الرسوم قبل التصورية » أنظر حفريات المعرفة ص 80 – 81. وبخصوص مثال أمراض الحمق وتوزيعها في القرن السابع عشر ، أنظر ، تاريخ الحمق القسم الثاني ، حول انبثاق المس الأحادي في القرن التاسع عشر ، راجع. **Moi Pierre Rivière... Gallimard. 1973.** وهو كتاب جماعي .

(مثال ذلك موقع الكاتب في المجتمع ، موقع الطبيب في المستشفى أو في عيادته ، في فترة بعينها وانبثاق موضوعات جديدة على السطح ، أن تظهر) . هنا كذلك ، وبخصوص العلاقة بين التشكيلات غير الخطابية والتشكيلات الخطابية للعبارات ، قد تأخذنا رغبة عارمة في اقامة نوع من التوازي العمودي، كما لو كان الأمر يتعلق بعبارتين ترمز احداهما للأخرى (علاقات تعبير أولية) ، أو نوع من العلية الأفقية ، التي تصير بحسبها الأحداث والمؤسسات تتحكم في البشر بوصفهم فاعلين مفترضين للعبارات (علاقات تفكير ثانوية) . الا أن النظر للمسألة من منظار المنحرف ، يطرح طريقاً ثالثاً : علاقات خطابية بباقي الأوساط غير الخطابية ، وهي علاقات ليست في حد ذاتها داخلية ولا خارجية بالنسبة لمجموعة العبارات ، ولكنها تمثل الحد الذي سبقت الاشارة اليه منذ قليل ، أي الأفق المحدد الذي لولاه ما أمكن لموضوعات العبارة أن تعرف طريقها للظهور ، ولا لهذا الموضع أو ذاك من أن يحتل مكانه في العبارة ذاتها. « لا لكون الممارسة السياسية هي التي فرضت ، منذ مطلع القرن التاسع عشر ، على الطب ، موضوعات جديدة كالاصابات النسيجية أو الاقترانات التشريحية الفيزيولوجية، بطبيعة الحال ، بل لكونها دشنت حقولاً جديدة لرصد الموضوعات الطبية (. . .وهي حقول تتكون من عدد من السكان المؤطرين ادارياً والمراقبين والمقيمين حسب معايير الحياة والصحة ، والمدروسين وفق اشكال تدوين وثائقي واحصائي ، تتكون كذلك من الجيوش الشعبية . . . . والمؤسسات المختصة في المساعدة العلاجية ، تبعاً للحاجيات الاقتصادية لتلك الفترة والموقع المتبادل للطبقات الاجتماعية) . نلحظ كذلك ظهور علاقة بين الممارسة السياسية والخطاب الطبي ، في الصفة التي منحت للطبيب ، والوضع الذي منح له. . . [14].

ما دام التمييز بين الأصيل المكرور ، في غير محله ، ولا يفي بالغرض ، فان من حق العبارة اذن أن تتكرر . وإذا كانت الجملة قابلة لأن تستأنف أو تستعاد وتسترجع ، والقضية قابلة لأن تخرج الى الفعل ثانية ، فان العبارة تظل وحدها التي تتمتع بقدرتها على أن تكرر [15]. لكن ، يبدو مع ذلك ، أن الشروط الواقعية لذلك

---

(14) حفريات المعرفة . 212 – 214 (62 – 63).

(15) حفريات المعرفة . ص138.

التكرار ، شروط دقيقة جداً ، إذ لا بد من وجود نفس فضاء التوزيع ، ونفس تقسيم الفرديات ، ونفس نظام الأمكنة والمواضع ، ونفس العلاقة بوسط معين : فهذا كله ، يشكل بالنسبة للعبارة « مادية » تجعلها تتكرر. فالعبارة التي ترى أن « الأنواع تتطور » ، تأخذ معنى خاصاً في التاريخ الطبيعي في القرن الثامن عشر ، ليس هو نفس المعنى الذي تأخذه في البيولوجيا في القرن التاسع عشر. بل ليس من المؤكد ، حتى ، أن العبارة تحتفظ بمعناها ، من « دارون » الى « سمبسون»Simpson فذلك رهن بالطريقة التي يسلكها الوصف كأن يوظف وحدات قياس أو يرصد فروقاً ما وتوزيعات ، وبالمؤسسات المتباينة تمام التباين كذلك . والعبارة التي تلوح بشعار أن « مكان الحمقى هو مستشفى المجانين » يمكن أن تنتسب الى تشكيلات خطابية مختلفة تمام الاختلاف ، حسبما اذا كانت جملة تتضمن نوعاً من الاحتجاج والرفض لجمع المجانين والسجناء في مكان واحد ، مثلما كان الحال عليه في القرن الثامن عشر ، أو تطالب، على العكس ، بالتفريق بين المجانين والسجناء ، مثلما حدث فعلاً في القرن التاسع عشر ، أو تتضمن ثورة على ما آل اليه الوضع ، اليوم ، في المستشفيات[16] . قد يعترض على هذا بالقول بأن فوكو لا يأتي بجديد، سوى ترديد تحليلات كلاسيكية معروفة ، محورها فكرة السياق . واعتراض من هذا القبيل ، فيه نجاهل لجدة وطرافة المقاييس التي يتخذها ، كي يثبت بالذات ، امكان تركيب جملة أو صياغة قضية دون الحصول ضرورة ، على نفس الموضع المقابل لها في العبارة ، ودون تكرار ذات الفرديات . ولو ذهب بنا الأمر الى تصيد التكرارات المغلوطة ، عن طريق تحديد التشكيلة الخطابية التي تنتسب اليها عبارة ما ، فاننا ، بالمقابل ، سوف نكتشف ألواناً من التماثل والتناظر ونقف على وجودها بين تشكيلات خطابية مختلفة[17] . أما السياق فلا يفسر شيئاً، لأن العلاقة السياقية ، لا تظل واحدة هي هي ، بل هي تابعة لطبيعة التشكيلة الخطابية ، أو لصنف العبارات[18] .

واذا كان لتكرار العبارات شروط دقيقة جداً ، فلا يتعلق الأمر هنا بشروط

(16) تاريخ الحمق . ص 417 – 418.

(17) حفريات المعرفة . ص 210.

(18) حفريات المعرفة . ص 129. (نقد فكرة السياق) .

خارجية ، بل بتلك المادية الداخلية التي تجعل من التكرار ذاته قوة ذاتية للعبارة. إذ تتحدد أية عبارة ، دوماً ، بعلاقتها النوعية بشيء آخر من نفس مستواها ، أي شيء آخر يخصها هي ذاتها (ولا يخص معناها أو عناصرها). قد يكون هذا « الشيء الآخر»، عبارة، في هذه الحالة ، تتكرر فيها العبارة علانية وجهراً . لكنه يظل حتماً، وفي سائر الأحوال ، شيئاً آخر غير العبارة : فهو خارج. أنه نشر خالص لفرديات بوصفها نقطاً لا تتعين ، ما دامت لم تتعين بعد أو تتحدد من طرف منحنى العبارة الذي يضم شتاتها ، والذي يأخذ هذا الشكل أو ذاك بجوارها. يؤكد فوكو ، اذن ، أن أي منحنى أو رسم بياني أو هرم ، عبارة، لكن ما يمثله هذا المنحنى أو الرسم البياني أو الهرم ، ليس عبارة . كما أن الحروف التي أعيدت كتابتها A,Z,E,R,T، عبارة رغم أن هذه الحروف ذاتها ، على ملامس الآلة الكاتبة ، لا تعد عبارة[19]، نلحظ، في هذه الحالة ، تكراراً خفياً ما ، يحرك العبارة ، والقارىء يكتشف فكرة أساسية كانت وراء أروع صفحات كتاب « ريمون روسيل » حول « الاختلاف البسيط الذي تتعرض له ، وبكيفية غريبة ، الهوية » . العبارة في حد ذاتها تكرار ، مع أن ما تكرره « شيء آخر » ، رغم أن بامكان هذا « الشيء الآخر » ان « يأتي ، ويا للغرابة ، مشابهاً لها أو شبه مماثل » . وعليه ، فان المشكل الأكبر بالنسبة لفوكو ، هو معرفة قوام تلك الفرديات التي تفترضها العبارة . لكن الملاحظ هو أن كتاب الحفريات يتوقف هنا ، ويعتبر نفسه غير ملزم بتناول قضية تتعدى حدود « المعرفة ». ويفطن قراء فوكو أننا نلج ميداناً جديداً ، ألا وهو ميدان السلطة من حيث أنها تمتزج بالمعرفة . وهو ما ستعمل المؤلفات اللاحقة على تناوله بالدرس . لكننا نحس سلفاً أن A,Z,E,R,T، على ملامس الآلة الكاتبة ، مجموعة من بؤر السلطة ، مجموعة من علاقات القوى بين الحروف الأبجدية في الفرنسية ، حسب نظام ورودها ، وبين أنامل اليد ، حسب البعد الذي يفصل بعضها عن بعض .

في كتاب « الكلمات والأشياء »، أكد فوكو أن الأمر بالنسبة لم يكن يتعلق لا بالأشياء ولا بالكلمات ، ونضيف هنا قائلين ، ان الأمر لم يكن يعني كذلك لا الجمل ولا القضايا ، لا التحليل النحوي ولا التحليل المنطقي أو الدلالي . وعوض النظر

---

(19) حفريات المعرفة. ص 114 – 117 (و109).

الى العبارات على أنها تركيب لكلمات وأشياء أو أنها تتألف من جمل وقضايا ، يظل العكس ، بالأحرى ، هو الصحيح . فالعبارات شرط سابق للجمل والقضايا ، وهذه الأخيرة تفترض ضمناً وجودها ، باعتبار أنها هي التي تشكل الكلمات والموضوعات . وفي مناسبتين ، يقر فوكو على نفسه بالخطأ منتقداً نفسه : فهو يعترف بأن كتاب تاريخ الحمق ، غالى ، وبافراط ، في الاعتماد على « تجربة » الحمق ، وبالغ في منحها مكانة منفردة ، وينخرط ذلك في ثنائية قوامها تصور تقابل بين وقائع أو أحوال فظة خشنة مباشرة ، وقضايا أما في كتاب ميلاد العيادة، فان الالحاح على مفهوم « النظرة الطبية » ، كان فيه انطلاق ضمني من أن ثمة صورة موحدة لذات تظل هي هي واحدة في سائر الأحوال ، تجاه حقل موضوعي . بيد أن ما تجدر الاشارة اليه ، هو أن هذا النقد الذاتي ، ربما كان فيه بعض الافتعال . فلا شيء يستدعي الحسرة والندم ، على التخلي عن رومانسية كانت جزئياً وراء اغراء وفتنة كتاب تاريخ الحمق وروعته ، لصالح نزعة وضعية جديدة . ولعل من نتائج هذه الوضعية المطففة ، الشاعرية كذلك ، بعث النشاط مجدداً في تجربة عامة ، هي مرة أخرى تجربة الحمق ، واحياؤها من جديد داخل افتراق التشكيلات الخطابية أو العبارات ، وفي تكريس مكان متحرك ، هو دائماً مكان طبيب أو صاحب عيادة أو شخص أو باحث في اعراض الحضارات (بمعزل عن أي رؤية للعالم) ، ضمن تنوع المقامات في تلك التشكيلات. وماذا تعني خاتمة كتاب الحفريات سوى أنها دعوة الى نظرية عامة للانتاجات يكون عليها أن تمتزج بممارسة ثورية ، حيث الخطاب الفاعل ، يتشكل داخل عنصر « خارج » ، لا صلة له بمحياي ومماتي ؟ ذلك أن التشكيلات الخطابية ممارسات حقيقية ، وبدلاً من أن تعكس لغاتها عقلا شمولياً ،وتكون مظهراً له ، فانها تظل لغات فانية قادرة على أن تعرف انقلابات وتعبر عنها أحياناً .

فهاك معنى زمرة العبارات ، بل وقبل ذلك معنى عبارة وحيدة : انها كثرة . ويرجع الفضل الى العالم الهندسي « ريمن » Riemann في نحت مفهوم « الكثرة » هذا وأنواع الكثرة ، انطلاقاً من الفيزياء والرياضيات . ثم برزت القيمة الفلسفية لهذا المفهوم فيما بعد على يد « هوسرل »Husserl في كتابه المنطق الصوري والمنطق الترنسندنتالي ، ثم مع « برغسون »Bergson في كتابه « مقال في معطيات الشعور البديهية» (حينما رام تعريف الديمومة كنوع من الكثرة التي لا علاقة لها بالكثرة

الكمية المكانية ، بل انها وهذه الأخيرة على طرفي نقيض . ويشبه هذا الى حد ما ، ما فعله ريمن عندما ميز بين ألوان الكثرة المنفصلة وأنواعها المتصلة) . الا أن المفهوم أخفق في الاتجاهين معاً ، إما لأن التمييز بين الأنواع أخفاه وأحاله الى الظل ، محلاً مكانه ثنائية بسيطة ، أو لأن المفهوم كان ينزع الى أن يصبح أساساً لمنظومة اكسيومية . غير أن جوهر المفهوم ، يكمن مع ذلك في ظهور اسم هو « الكثير » والذي لم يعد محمولاً معارضاً للواحد أو صفة تسند لذات توصف بأنها واحدة . ذلك أن الكثرة لا تربطها على الاطلاق صلة بالمشكل التقليدي لعلاقة الكثير بالواحد ، لا صلة لها على الخصوص ، بذات تكون شرطاً لوجود الكثرة ، تفكر فيها وتشتقها من أصل أو ما شابه ذلك . ليس ثمة واحد ولا كثرة ، والا عدنا من حيث لا ندري الى القول بأن ثمة وعياً ما يعي ذاته كوحدة وفي الواحد وينتشر في الكثرة . كل ما هنالك ألوان من الكثرة النادرة ، ونقط معزولة ومواضع فارغة في انتظار من يأتي لحظة ما ليملأها ويشغل داخلها وظيفة ذات ، في انتظار من يأتوا ليشغلوا داخلها وظائف ذوات أو انتظامات متراكمة ومتكررة تستمر وتبقى محافظة على نفسها . ليست الكثرة اذن كثرة أكسيومية ولا كثرة تنميطية تصنيفية ، بل هي كثرة موقعية . ويعتبر كتاب فوكو ، في هذا الصدد ، الخطوة الأهم والأكثر حسماً ، على درب نظرية ـ ممارسة ألوان الكثرة . أنه نفس الدرب الذي سلكه ، بكيفية أخرى ، موريس بلانشو في منطق الانتاج الأدبي : حيث يتصور الرباط الذي يجمع المفرد بالجمع والمحايد والتكرار ، على نحو يقصي صورة الوعي أو الذات ويطرد في الوقت ذاته الغور اللامتميز الذي لا قرار له . ولم يخف فوكو القرابة التي يحس بها تجاه بلانشو ، مؤكداً أن جوهر النقاشات الحالية ينصرف الى البنيوية ، من حيث هي بنيوية ، أو على وجودٍ أو عدم وجود نماذج ووقائع يطلق عليها بنيات ، أقل مما ينصرف الى المكانة والوضع اللذين يعودان للذات داخل أبعاد يظن أنها ليست مبنية وغير ذات بنية . وعليه ، طالما نحن نقيم تعارضاً مباشراً بين التاريخ والبنية ، فان ذلك يؤدي بنا الى الاعتقاد بأن الذات تحافظ على معنى ، مما يجعل منها نشاطاً يؤسس وفاعلية تستقطب وفعالية توحد . لكن الأمر سيختلف عندما نعتبر « الفترات » أو التشكيلات التاريخية ، على أنها ألوان كثرة . ذلك أن هذه الأخيرة تفلت من قبضة الذات مثلما تند عن سيادة وهيمنة البنية . إذ البنية قضوية (نسبة الى القضية)، وذات سمة

أكسيومية تقبل التعيين في مستوى جد محدد ، انها بمثابة منظومة متجانسة ، أما العبارة فهي كثرة تخترق المستويات و« تعبر ميدان بنيات ووحدات ممكنة ، وتظهرها بمضامين محسوسة وعيانية ، في الزمان والمكان »[20] . والذات جملية Phrasique أو جدلية ، تطبعها سمة ضمير المتكلم الذي يستهل الخطاب ، أما العبارة ، فهي دالة أصلية مجهولة الهوية ، لا تبقي على الذات الا كضمير غائب ، وكدالة مشتقة .

تتعارض الحفريات وتقنيتين أساسيتين تستخدمان حتى الآن من طرف « الوثائقيين » : الصورنة والتأويل . وغالباً ما ينتقل الوثائقيون من هذه التقنية الى تلك أو العكس ، ويعتمدونهما معاً في ذات الوقت . يستنبطون تارة من الجملة قضية منطقية تفصح ، في رأيهم افصاحاً جلياً عن معناها : وهم بذلك يتجاوزون « المكتوب » بحثاً عن الصورة المعقولة ، القابلة حتماً لأن تكتب كتابة رمزية ، إلا أنها كتابة تنتمي الى نظام آخر غير نظام الكتابة . ويلجؤون طوراً الى العكس ، حيث يتجاوزون الجملة بحثاً عن جملة أخرى تحيل اليها الأولى خفية ، مضاعفين بذلك ما هو مكتوب كتابة ظاهرة ، بكتابة أخرى باطنة تمثل بالنسبة للأولى ، على الأرجح ، معناها المتواري ، إلا أنها لا تكتب ، مع ذلك ، ذات الشيء ، ولا تحمل ذات المضمون . ويشير هذان الموقفان المتعارضان ، على الأصح ، الى قطبين يتأرجح بينهما التأويل والصورنة (نلحظ هذا ، على سبيل المثال ، في تردد التحليل النفسي بين فرضية وظيفية ـ صورية ، الفرضية الموضعية ذات « الكتابة المزدوجة ») . أحدهما يخرج الى واضحة النهار ما تقوله الجملة ضمناً دون أن تفصح عنه صراحة . أما الثاني ، فيسعى الى كشف ما لم تقله . من هنا كان ميل المنطق الى التأكيد على ضرورة التمييز بين قضيتين، مثلاً ، داخل نفس الجملة الواحدة ، وميل مناهج التأويل الى التأكيد على أن الجملة تعاني من فجوات وثغرات ينبغي ملؤها . يبدو من الصعوبة بمكان اذن ، من زاوية النظر المنهجية ، الوقوف عند مجرد ما قيل فعلاً ، أو عند مجرد كتابة ما قيل. فحتى اللسانيات ، والتي ليست وحداتها ، على الاطلاق ، من نفس مستوى ما قيل ، لا تفعل ذلك ، أي لا تقف عند مجرد كتابة ما قيل .

أما فوكو فيحمل لواء مشروع مخالف أتم الاختلاف : الاكتفاء بمجرد كتابة ما

---

(20) حفريات المعرفة. ص 115, 259 – 266.

قيل والوقوف عندها كوضعية للقول أو العبارة اذ « لا تسعى الحفريات الى الاحاطة بالانجازات اللفظية بغية اكتشاف عنصر خفي أو معنى خفي يختبىء فيها أو يرى النور خلسة خلف سطحها البادي الظاهر، ورغم ذلك ، فان العبارة لا تعطي أبداً للرؤية المباشرة ، ولا تتجلى بذات الكيفية التي تتجلى بها البنية النحوية أو المنطقية (حتى في الوقت الذي لا تكون فيه هذه الأخيرة واضحة تمام الوضوح ، وحتى حينما يكون من الصعب ابرازها أو كشفها) . وعليه ، فان العبارة لا مرئية ولا مختفية في الوقت ذاته»[21]. ويؤكد فوكو في صفحات هامة ، أن أية عبارة لا يكون وجودها خفياً ، ما دامت تتعلق بما يقال فعلاً ، وحتى الثغرات والنقائص التي تبدو عليها ، لا ينبغي اعتبارها دلالات متوارية ، فهي مجرد مؤشر الى حضورها في فضاء تناثر وتبعثر ، يعد بالنسبة لها « صنفاً » تنتمي اليه . غير أنه اذا كان يصعب ، على العكس ، الوقوف عند تلك الكتابة والتي لا تتعدى مستوى ما قيل ، فلأن العبارة لا تدرك مباشرة ، فهي ملتبسة دوماً بالجمل والقضايا ، مما يتطلب كشف « دعامتها » وصقلها ، بل تشكيلها وابتكارها. ينبغي خلق الفضاء الثلاثي لتلك الدعامة وابرازه بجلاء ، ولا يمكن للعبارة أن تصبح مجرد كتابة لما قيل الا ضمن كثرة يلزم انشاؤها . عندئذ ، وعندئذ فقط ، تطرح مسألة معرفة ما اذا كان التأويل والصورنة لا يفترضان مسبقاً تلك الكتابة لمجرد ما قيل ، كشرط مسبق لهما . أو ليست ، بالفعل، كتابة العبارة (العبارة كمكتوب) هي التي ستغدو في بعض الأحوال معطنبة بكتابة أخرى ومضاعفة بها ، أو تبرز ثانية في قضية ؟ أي تسجيل ، أي تدوين الا ويحيلان الى انخراط العبارة ضمن تشكيلتها الخطابية : أي الى أثريات العبارة وليس الى الوثيقة . « لكي تحدد اللغة موضوع دراسة ، ويتم تحليل مستوياتها المختلفة والمتميزة ، لا بد من أن يكون ثمة « معطى عباري » متحدد دوماً ولا متناه : فتحليل اللغة ، تحليل ينصب دائماً على مجموعة أقوال ونصوص ، كما أن تأويل المعاني التي تنطوي عليها ، يستند الى عدد معين من الجمل ، والتحليل المنطقي لمنظومة ما ، ينطلق من اعادة كتابة مجموعة محددة من القضايا ، في لغة صورية »[22] .

---

(21) حفريات المعرفة. ص 143. يقوم تاريخ الفلسفة ، مثلاً ، كما يتصوره « غيرو » Gueroult على الوقوف عند هذا المكتوب وحده ، والذي هو لا مرئي وغير خفي في ذات الوقت ، دونما ميل الى التأسيس أو التأويل.

(22) حفريات المعرفة. ص 146.

هذا هو محصل المنهج العياني . نحن مضطرون الى الانطلاق من الألفاظ والجمل والقضايا . إلا أننا ، مع ذلك ، نكون في حاجة الى تنظيمها ضمن مجموع معين ، يتغير تبعاً للمشكل المطروح . وقد سبق للمدرسة « التوزيعية » مع« بلومفيلد » Bloomfield و« هاريس » Harris، أن جعلت من هذا الشرط مطلباً . إلا أن أصالة فوكو ، تكمن ،مع هذا ، في الكيفية التي حا د بها ، من جانبه ، المتون والمجاميع : انه لا يحددها تبعاً لتواترات أو ثوابت لسانية ، أو عن طريق الصفات الشخصية لأولئك الذين يتكلمون أو يكتبون (مفكرون عظام ، رجال دولة مشهورون. .) . وقد كان « ايوالد » F.Ewald على صواب حينما ذهب إلى أن المجاميع والمتون لدى فوكو « خطابات بلا مرجع » ، وان الوثائقي غالباً ما يتحاشى الاستشهاد بالأسماء اللامعة[23] . ذلك أنه لا ينتقي الألفاظ والجمل والقضايا الأساسية انطلاقاً من البنية ولا انطلاقاً من ذات ـ مؤلف تكون قد صدرت عنه ، بل من مجرد الوظيفة التي تضطلع بها داخل مجموع : كنظام الحجر في مستشفيات الأمراض العقلية أو الحجز في السجون ، أو القوانين التأديبية بالنسبة للجيش أو المدرسة . ولو أكدنا على مسألة المقاييس التي يعتمدها فوكو ، لما حصلنا على الجواب الشافي والقاطع الا في المؤلفات التي ظهرت بعد « الحفريات » : تختار الألفاظ والجمل والقضايا المتضمنة في المتون والمجاميع ، بين البؤر المنتشرة للسلطة (والمقاومة) التي يخفيها هذا المشكل أو ذاك . مثال ذلك ، بخصوص عبارات « الجنس » في القرن التاسع عشر ، سيتم البحث عن الألفاظ والجمل التي تتبادل حول كرسي الاعتراف ، والقضايا الواردة في الكتب المتخصصة في ايجاز ما يتعلق بمحاسبة النفوس ، وسيدخل في الحسبان أيضاً باقي البؤر ، كالمدرسة ومؤسسات الولادة والزواج . . .[24] هو ذا المقياس الذي اعتمد عملياً في كتاب « الحفريات »، رغم أن تنظيره جاء فيما بعد . عندئذ ، بمجرد ما يتكون المجموع (والذي لا يفترض شيئاً ما حول العبارة) يصير بالامكان تحديد الكيفية التي تلتئم بها اللغة في هذا المجموع

---

(23) François Ewald, «Anatomie et Corp politiques» critique N° 343. Decembre 1975, 1229 – 1230.

(24) أنظر إرادة المعرفة ، الفصل الاول من الباب الثاني « التحريض على الخطاب »، الحقيقة أن المقياس لم يدرس في حد ذاته الا في كتاب « الحراسة والعقاب » . لكنه اعتمد قبل ذلك ، دون أن يعد هذا مصادرة على المطلوب .

و« تتجمع » ، ذلك هو « الوجود المادي للغة » الذي تمحور حوله كتاب « الكلمات والأشياء » ، هو أيضاً « وجود اللغة » الذي قالت به « الحفريات » والـذي هو وجـود يتغير تبعاً للمجموعات[25]. ذلك هو الما « يقال » كبناء للمجهول ، كهمس مجهـول الهوية ، يأخذا هذا المظهر أو ذاك ، تبعاً للمجموع الذي ينتمي اليه .

بالمستطاع اذن ، أن نستنتج من الألفاظ والجمـل والقضايـا ، عبارات قـائمة الذات ومتميزة عنها . ذلك أن العبارات ، ليست ألفاظاً أو جملاً ، ولا حتى قضايا ، بل هي تشكيلات ، لا نرى النور الا ضمن مجموعها ، عنـدما يصيب ذوات الجملة وموضوعات القضية ومدلولات اللفظ تغير في طبيعتها يجعلها تأخذ مكاناً داخل المـا «يقال» : داخل خـطاب مجهول الهـوية ، فتتـوزع وتتنـاثـر في سمـك اللغـة . ومن المفارقات الغريبة التي تتردد في كتابـات فوكـو ، أن اللغة لا تنتـظم في مجموع الا لتصبـح وسطاً تتـوزع فيه العبـارات وتتناثـر ، أي قاعـدة « تشابـه » متناثـر بـطبعـه . والملاحظ أن هذا المنهج مثلما نجده مطبقاً في مؤلفات فوكو كلها ، وبدرجات تفسير متباينة ، لعلى جانب كبير من الدقة .

حينما ألف « غوغول » رائعته التي محورها كتابة النفـوس الميتة ، أوضـح أن روايته قصيدة شعرية ، وأبرز الجوانب التي على الرواية أن تكون فيها قصيدة . ومن الممكن جداً ألا يكون فوكو ، قدم لنا ، في حفرياته خطاباً في المنهج ، أكثر مما نظم هذا المؤلف في شكل قصيدة ، واصلاً بـذلك الى النقـطة التي تصبح فيهـا الفلسفة بالضرورة شعراً ، شعراً بليغاً لما قيل وكذلك شعراً للامعنى ، أكثر مما لو كانت شعراً للمعاني الأعمق والأكثر تواريا . يستطيع فوكو ، من جهة ، التصريح ، بأنه لم يكتب أبداً سوى أوهام وخيالات : فالعبارات ، كما لاحظنـا ، تشبه الأحـلام ، وكل شيء يتبدل وينقلب من حال الى حال ، كما هو الأمر في آلة المشكال التي تجعل الأشياء الصغيرة الملونة الموجودة داخلها تتحرك فتولد رسوماً مختلفة الأشكال والألوان ، كل شيء يتغير تبعاً للمجموع وللمنحرف المرسوم . كما يستطيع ، من جهة ثـانية ، أن يؤكد بأنه لم يكتب أبداً إلا فيما هو واقعي ، وبمـا هو واقعي ، ذلـك أن كل مـا في العبارة واقعي ، وكل واقعية ، واقعية جلية .

---

(25) حفريات المعرفة. ص 145 – 148.

ثمة عدد من ألوان الكثرة . ليس المقصود مجرد القسمة الثنائية الشهيرة التي تميز أنواع الكثرة الى كثرة خطابية وكثرة غير خطابية ، بل وحتى الأنواع التي توجد داخل الكثرة الخطابية كسائر أصناف العبارات أو تشكيلاتها ، والتي تظل قائمتها مفتوحة على الدوام ، تتغير مع كل فترة . كما تتأثر أنواع العبارات ببعض « العتبات » : قد يخترق صنف واحد منها ، عدة أنواع ، كما أن نفس النوع الواحد ، قد يطبع عدة أصناف . يتضمن العلم ، مثلاً ، عدة عتبات ، بعد أن تجتازها العبارات ، تبلغ « عتبة التنظير الابستملوجي » و« عتبة العلمية » أو حتى « عتبة الصورنة » . لكن ، لا علم يمتص ، على الاطلاق ، صنفاً ما أو تشكيلة معينة ، عرف نشأته داخلها : فوضع الطب العقلي وطموحه العلميان ، لا يلغيان النصوص القانونية والتعابير الأدبية والتأملات الفلسفية والقرارات السياسية والآراء العامة التي تعد جزءاً لا يتجزأ من تشكيلة الطب العقلي الخطابية[26] . يضاف الى هذا أن لا علم يوجه التشكيلة ويحكمها وينظم أو يصورن بعض مناطقها ، مع احتمال تلقي وظيفة ايديولوجية منها ، نرتكب خطأ شنيعاً إذا ما نحن اعتقدنا أنها مجرد انعكاس لعدم اكتمال علمي . وقصارى القول ، أي علم ، يجد مكانه داخل ميدان ما من ميادين المعرفة ، ولا يمتص هذا الأخير ، داخل تشكيلة ، تعد هي نفسها موضوع معرفة ، موضوع علم . ليست المعرفة Savoir علماً ولا حتى معرفة اختبارية تجري بين ذات وموضوع Connaissance، بل موضوعها ألوان الكثرة الآنف تحديدها ، أو على الأصح ، الكثرة الدقيقة التي تصفها المعرفة ذاتها ، كما تصف معها نقطها الفردية ومواضعها ووظائفها . « فالممارسة الخطابية ، لا تطابق الانبناء العلمي الذي قد تفسح له المجال ، كما أن المعرفة التي تنشئها تلك الممارسة ، لا تعد تباشير أولى خشنة أو شكلاً ناقصاً لعلم مكتمل النشأة »[27] . الا أننا نفهم مع ذلك ، كيف أن بعض ألوان الكثرة ، وبعض التشكيلات لا تقود المعرفة التي تخالطها نحو عتبات ابستمولوجية . بل تقودها في اتجاهات أخرى ونحو عتبات مختلفة أتم الاختلاف. لا نريد القول من هذا أن بعض الأصناف « غير قادرة » أن تغدو علماً ، في غياب كل اعادة ترتيب أو أي تحول حقيقي ممكن ، فحسب (مثلما كان الشأن بالنسبة لما سبق

---

(26) حفريات المعرفة. ص 234.

(27) حفريات المعرفة، ص 240.

الطب العقلي في القرنين السابع عشر والثامن عشر) ، بل أن نتساءل ، على الأصح ، ما اذا كانت ثمة ، على سبيل المثال ، عتبات جمالية ، تدفع معرفة ما في اتجاه غير اتجاه العلم ، وتسمح بتحديد نص أدبي أو عمل من أعمال الرسم ، داخل التشكيلات الخطابية التي تنتمي اليها . بل ما اذا كانت ثمة عتبات أخلاقية أو سياسية : بأن نبرز كيف أن المحظورات والاقصاءات والحدود والحريات والخروقات «مرتبطة بممارسة خطابية معينة »، ولها صلة بميادين غير خطابية تستطيع، الى حد ما ، تقريبها من عتبة ثورية[28]. على هذا النحو تتبلور قصيدة ـ الحفريات في كل سجلات الكثرة ، بل وفي كتابة مجرد ما قيل أيضاً في علاقته بالأحداث والمؤسسات وسائر الممارسات الأخرى. وليس أساس هذا التبلور التغلب على ثنائية كانت مؤلفات بشلار ما تزال ترزح تحت ثقلها ، ألا وهي ثنائية العلم والشعر ، ليس الحصول على أداة تسمح بالمعالجة العلمية للنصوص الأدبية بل هو اكتشاف تلك التربة المجهولة التي يمكن لكل شكل أدبي أو أية قضية عملية أو أية جملة عادية أو أي كلام لا معنى له يتلفظ به مصاب بانفصام الشخصية أن يغدو عبارة ، وعلى قدم المساواة مع غيرها من العبارات ، دونما حاجة الى مقياس مشترك أو تكافؤ خطابي ، أو امكانية رد بعضها الى بعض . وهذه المسألة هي ما لم يستطع المناطقة والصورانيون والمؤولون بلوغها أبداً . العلم والشعر هما على قدم المساواة معرفة .

لكن ما الذي يحد صنفاً ما أو تشكيلة خطابية معينة ؟ ما السبيل الى تصور القطيعة ؟ هذه مسألة تختلف أتم الاختلاف عن مسألة العتبة . ولا يتعلق الأمر هنا مرة أخرى ، بمنهج أكسيومي لائق ، ولا حتى بمنهج بنيوي بمعنى الكلمة . ذلك أن ظهور تشكيلة مكان أخرى ، لا يتم بالضرورة في مستوى العبارات الأكثر شمولاً ولا الأتقن صورنة . وحده المنهج المنظم للسلاسل ، كذلك الذي يعتمده المؤرخون اليوم ، هو الذي يسمح ببناء سلسلة بجوار نقطة مفردة ، وبالبحث عن سلاسل أخرى ، تكون امتداداً واطالة لما تسير بها وفي وجهات أخرى ، ونحو نقط أخرى . غير أن ثمة دائماً لحظة ما ومكاناً معيناً ، تبدأ عندهما السلاسل في التشعب والانتشار والتفرع داخل فضاء جديد : وهنا تحدث القطيعة . انه منهج منظم للسلاسل ، قوامه

---

(28) حفريات المعرفة، ص 251 – 255.

الفرديات والمنحنيات . ويلاحظ فوكو أن لهذا المنهج مفعولين متناقضين ، ما دام يقود المؤرخين الى اجراء قطائع شديدة الاتساع والتباعد ، بالنسبة لفترات طويلة ، بينما يؤدي بالابستملوجيين الى اكثار الانفصالات ، بين فترات قصيرة المدة أحياناً[29] . وهذا مشكل سنعود إليه على أي حال . يظل الأساس بالنسبة لفوكو ، يكمن في أن انشاء سلاسل داخل ألوان كثرة قابلة للتحديد ، يسد الباب أمام النظر الى التعاقبات من منظار متصل يكرس تصوراً معيناً لدى فلاسفة التاريخ ، يجعل من هذا الأخير معقلاً متميزاً للذات . « إن جعل التحليل التاريخي خطاباً للمتصل ، والوعي البشري ذاتاً هي مصدر كل صيرورة وممارسة : هما وجهان لنفس النظام الفكري . أنه نظام يعتبر الزمان تجميعاً كلياً للأحداث ، والثورات مظاهر ليقظة الوعي »[30] . والى أولئك الذين ما زالوا يتمسكون بتاريخ كلي وشامل ، والذين يعترضون على عدم دقة مفهوم « التحول » ، لا بد لنا من التذكير بأن الحيرة والارتباك الذي يقع فيه المؤرخون عندما يتعلق الأمر بتفسير لماذا ظهرت الرأسمالية في هذا المكان بعينه وتلك اللحظة بالذات ، بينما توفرت شروط وعوامل ظهورها في أماكن ولحظات أخرى ، فلم تظهر . كل هذا يقتضي ويتطلب « اضفاء صفة الاشكال » على السلاسل وطرح أسئلة ومشاكل عليها . وسواء كانت التشكيلات والأصناف وألوان الكثرة ، خطابية أو غير خطابية ، فانها تظل تاريخية . انها ليست مجرد عناصر متعايشة ومتساكنة ، بل لا تنفصل عما « يفرضه عليها الزمان من اتجاهات تنتهي بها الى التفرع والتشعب» ، وفي الوقت الذي ترى فيه النور تشكيلة جديدة ، وتظهر معها قواعد وسلاسل جديدة ، لا يحدث ذلك فجأة ، ولا يتخذ مظهر انبثاق جملة معينة أو ابتكار ما ، بل يتخذ صورة « لبنات » وبقايا ، وانزياحات ، واعادة توظيف لعناصر قديمة أثبتت صلاحيتها ، واستمراريتها في ظل القواعد الجديدة . ورغم ما قد يلاحظ من تناظر أو تماثل بين التشكيلات ، فان هذا لا يقوم مبرراً لاعتبار احداها أصلاً أو نموذجاً لسائر التشكيلات الأخرى الباقية . لذا فان نظرية القطيعة تعتبر هنا ركناً أساسياً بالنسبة

---

(29) **حفريات المعرفة** ، ص 15 – 16 (حول المنهج المنظم للسلاسل في التاريخ ، أنظر : **Braudel, Ecrits sur L'histoire, Flammarion).**

(30) **حفريات المعرفة**، ص 22.

للمنظومة[31]. لا بد من ملاحقة السلاسل ، واختراق المستويات واجتياز العتبات وعدم الوقوف عند سير الظواهر وتلاحق العبارات ، في اتجاه البعد الأفقي أو العمودي ، بل النظر اليها من منظار عرضاني أو منحرف متحول ، ضمنه يتحرك الوثائقي ـ الحفري . وفي هذا الصدد ، قد ينطبق الحكم الذي أطلقه « بوليز » Boulez على العالم المطفف عند « ويبرن » Webern، على فوكو (وأسلوبه) : « لقد أبدع عالماً جديداً يمكن أن نطلق عليه ، بعداً منحرفاً ، وهو ضرب من اعادة توزيع النقط والمجموعات والأشكال ، لا توزيعاً على صعيد مستو ، بل داخل فضاء »[32].

(31) ثمة مشكلان ، أحدهما عملي يكمن في معرفة أين نضع القطيعة بالنسبة لحالة معينة . والثاني نظري ، يتعلق به الأول ، ويكمن في تحديد مفهوم القطيعة ذاته (وفي هذا الصدد ، لا بد من مقارنة المفهوم البنيوي الالتوسيري بالمفهوم المنظم للسلاسل لدى فوكو) .

(32) Boulez Relevés dAPPRENTI, Ed. de Seuil, 372.

خرائطي جديد

« الحراسة والعقاب »

لم يتعامل فوكو ، قط ، مع الكتابة ، على أنها هدف أو غاية . وهذا ما يجعله في مصاف كبار الكتاب ، وما يجعل الفرحة عظيمة والابتسامة جلية أكثر فأكثر فيما يكتبه . كوميديا الهية للعقوبات : ومن حق أي مرء أن يفتن ويسحر الى حد الموت من الضحك أمام هذا القدر الهائل من الابتكارات الشاذة ، وذلك العدد العديد من الخطابات الوقحة ، والفظاعات المرعبة . فمن الآلات المانعة من الاستمناء بالنسبة للأطفال ، حتى آليات الحبس والسجن بالنسبة للبالغين ، تنبسط سلسلة بكاملها مثيرة لضحك مباغت لن يحول دون استمراره سوى الخجل أو المعاناة أو الموت . نادراً ما يضحك الجلادون ، أو أنه ضحك ليس من طينة الضحك ، أو ليس هو نفس الضحك . لقد سبق لـ« فاليص J.Vallès » أن التمس في الرعب والفظاعة ، بهجة وسروراً ، خاصين بالثوريين ، يقابلان بهجة الجلادين الفظيعة والمهولة . ويكفي للكراهية أن تكون حية بالقدر اللازم ، كي يصير بالامكان جني شيء ما منها ، كالفرحة الكبرى ، لا الفرحة الممزوجة بالغضب ، لا فرحة الكراهية ، بل فرحة الرغبة في تحطيم ما يشوه الحياة . كتاب فوكو مفعم بالفرحة الممزوجة بروعة الأسلوب وسياسة المضمون . كتاب موزون وموقع بأوصاف شنيعة رتبت بشغف :

كالمحنة الكبرى التي تعرض لهـا القديس داميلن Damien هـو ومريـدوه ، المدينـة المصابة بوباء الطاعون والحصار الذي ضـرب عليها ، وطابور المحكومين بـالأشغال الشاقة يعبرون المدينة مكبلين بالأغلال ، يتكلمون الى المارة ، ثم من جهة أخرى ، آلة العزل الجديدة : السجن ، عربة السُّجناء ، والتي تعبر عن « وعي » جـديد بفن العقاب . لقد تفنن فوكو دائماً في تشكيل لوحات رائعة يرسمها بتحاليله . التحليـل هنا ، تحليل ميكروفيزيائي أكثر فأكثر ، واللوحات فيزيائية أكثر فأكثر ، توضح « آثار » التحليل ، لا بالمعنى العلي والسببي ، بل بالمعنى البصـري ، الضوئي للون : من الأحمـر القاني الـذي يصور التعـذيب والتنكيل حتى الـرمادي القـاتم الـذي يصـور السجن . التحليـل واللوحة يسيـران جنباً الى جنب وينتميـان الى نفس المستـوى ، ميكروفيزيائية السلطة والتسخير السياسي للجسـد . لوحـات مزخـرفة بـالألوان على خارطة ملمترية . بالامكان قراءة كتاب فوكو هـذا على أنه استمـرار لكتبه السـابقة ، وعلى أنه كذلك يسجل بالنسبة لها تقدماً هاماً .

إن ما ميز اليسارية ، بكيفية واضحة أو حتى غـامضة ، من النـاحية النـظرية ، طرحها لمشكل السلطة من جديد موضع نقاش ، وهو طرح موجه ضد الماركسيـة ، وكذا ضد المفاهيم البرجوازية للسلطة ، ومن النـاحية العمليـة ، خوضهـا لشكل من أشكال الصراع المحلية النوعية ، التي لم يعد مصدر وحدتهـا الضروريـة وعلاقـاتها يكمن في عمليـة تجميـع أو مـركـزة ، بـل في مـا أسمــاه « غـطارى » Guattari بالعرضانية . وقد كان هذان الجانبان ، النظري والعملي ، مرتبطين فيما بينهما أوثق ارتبـاط . غير أن اليسـارية مـا انفكت تحتفظ ببعض الأفكار الجـريئة من المـاركسية وتحافظ عليها ، فتتقمصها من جديد وتبعثها محيية تجميعات ترتبط مجدداً بالممارسة القديمة ، بما في ذلك الممارسة الستـالينية . وربمـا زاولت « مجموعـة الاخبار عن السجون » (G.I.P) ما بين سنتي 1971 و1973 ومارست نشاطها ، بتحريض من فوكو و« ديفير » Defert، لكي تتحاشى مزالق اليسارية ، عن طريق تكريس نوع من الربط الفريد بين صراع السجون وبـاقي ألوان الصـراع الأخرى . وعنـدما قـرر فوكـو سنة 1975، أن ينشر آراءه النظرية في المسألة ، كان في رأينا أول من ابتكر ذلك المفهوم الجديد للسلطة ، والذي كان ضالة الجميع ، الكل في بحث عنه دونما معرفة بالسبيل المؤدي الى اكتشافه أو حتى التعبير عنه .

وهذا بالضبط ما يحققه كتاب « الحراسة والعقاب »، رغم أن فوكو لا يفعل ذلك الا في بضع صفحات في مطلع الكتاب ، بضـع صفحات لا أكثر ، لأنه اعتمـد فيه منهجاً يختلف تمام الاختلاف عن منهج « الأطروحات » . فهـو يكتفي بالـدعوة الى التخلي عن عدد معين من المسلمات التي طبعت الموقف التقليدي لليسار[1]. علينا أن ننتظر ظهور كتاب ارادة المعرفة الذي يتضمن عرضاً مفصلاً أكثر.

من تلك المسلمات ، مسلمة الملكية ، والتي مفادها أن السلطة « في ملك » طبقة ، وملكيتها لها أساسهـا الغلبة . يؤكـد فوكـو ، في رده ، أن السلطة لا تمارس نفسها بهذا النحو ، ولا انطلاقـاً من ذلك : فهي استـراتيجية أكثـر منها ملكيـة ، ولا ترجع آثارها ومفاعيلها الى تملك ما ، « بل تعود الى تدابير وحيل ووسـائل وتقنيـات وأعمال » ، « فهي تمارس أكثـر مما تتملك ، ليست حقـاً تحتفظ به لنفسهـا الطبقـة السائدة وتحتكره ، بل هي مفعـول مجموع مـواقعها الاستـراتيجية » . لا تـطعن هذه النزعة الوظيفية الجديدة ، بطبيعة الأمر ، في وجود طبقـات وصراعـات طبقية ، بـل ترسم لها لوحة مغايرة ، بمناظر طبيعية مختلفة ، وأشخاص ليسوا نفس الأشخاص ، وطرق غير تلك التي عودنا عليها التأريـخ التقليدي ، بمـا فيه التـأريخ المـاركسي : « نقط مواجهة لا حصـر لها ، بؤر عـدم استقرار مـع ما ينـذر به كـل واحد منهـا من انفجـار ، صراعـات ، انقلاب ، ولـو مؤقتاً ، في عـلاقات القـوى» ، دون تمثيل أو تمـاثل ، دون اشتـراك أو ترادف ، بـل بنمط فريـد من الاتصـال الممكن . مجمـل القول ، ليست السلطة سلطة متجانسة ، بل تتحد بفرديـات ونقط فريـدة تمر عبـرها السلطة وتتخفى فيها .

مسلمة انحصار موقع السلطة وتميزه. مفادهـا أن السلطة هي سلطة الدولـة ، وأنها تتجسم في جهاز الدولة ، الى حد أن السلطات التي لا تنتمي الى الدولة ، لا تتمتع الا بانفصال مظهري عن سلطة هذه الأخيرة ، لهذا فهي أجهـزة خاصـة في يد الدولة . على العكس من هذا ، يؤكد فوكو أن الدولة ذاتها ، مفعول وأثر للمجموع ، ونتيجة لكثير من الدواليب والبؤر التي تجد موضعها في مستوى مختلف أتم الاختلاف عن ذلـك الذي تـوجد فيـه السلطة ، وتمثل من جهتهـا [أساسـاً لا مرئيـاً لهـا] أي

(1) الحراسة والعقاب. ص 31 – 33.

« ميكروفيزيائية السلطة ، وليست الأجهزة الخاصة وحدها التي تجد أصلها في الدولة ، وفي الوقت ذاته طرق وممارسات تصادق عليها الدولة وتراقبها ، أو تكتفي بحمايتها أكثر من انشائها أو تأسيسها ، بل حتى القطاعات المرتبطة بوضوح بجهاز الدولة . ومن بين الأفكار الأساسية التي جاءت في كتاب **الحراسة والعقاب**، أن المجتمعات الحديثة ، يمكن أن ينظر اليها على أنها مجتمعات « انضباطية » ، لكن الانضباط لا يفهم هنا كمرادفة لمؤسسة ولا حتى لجهاز ، بل هو على الأصح لون من السلطة ، أساليب وفنون تتخلل سائر أنواع الأجهزة والمؤسسات لربطها من جديد وتصل بينها وتجعلها تتضافر ممارسة نفسها بطريقة جديدة . لا ينبغي كذلك أن يفهم كمرادف لقطاعات أو دواليب خاصة تنتمي للدولة انتماء صريحاً ، كانتماء جهاز الشرطة والسجن : « اذا كانت الشرطة ، بوصفها مؤسسة ، قد نظمت في شكل جهاز من أجهزة الدولة ، واذا كانت قد ألحقت بمركز السيادة السياسية ، فان نوع السلطة التي تمارسها والآليات التي تعتمدها في ذلك والعناصر التي تسلط عليها ، نوعية « تضطلع باشاعة النظام والانضباط داخل أدق مستويات الحقل الاجتماعي ، شاهدة بذلك على استقلالها الكبير عن الجهاز القضائي ، بل والسياسي أيضاً[2] . فالأصح هو أن يقال ، أن السجن لا يجد أصله في « البنيات القضائية والسياسية للمجتمع » : ومن الخطأ ربطه بتطور القانون ، والقانون الجنائي على الخصوص . فالسجن بوصفه يضطلع بتنفيذ العقاب ، يتمتع هو الآخر بنوع من الاستقلال الذاتي الذي يعد شرطاً ضرورياً له ، ويقوم شاهداً بدوره على أن ثمة « هيئة تضطلع بعملية التأديب » ، وتتجاوز سلطتها سلطة جهاز الدولة نفسه ، والذي جاءت ، هي كهيئة ، لتخدمه[3] . قصارى القول ، تتجاوب وظيفية فوكو وتلتقي مع نظرة حديثة ترى الى موقع الشيء ، بالنسبة الى الأشياء الأخرى ، ولا تعتبره موقعاً متميزاً وكمصدر للسلطة ، كما لم تعد تقبل بالتحديد الدقيق لموقعها . (ها هنا مفهوم جديد للفضاء الاجتماعي ، يماثل في جدته مفهوم الأمكنة الفيزيائية والرياضية الحالية ، وهو شيء لاحظناه منذ قليل بخصوص الاتصال) . سوف يتأكد لنا أن لعبارة « للسلطة موقع » معنيان مختلفان : هي ذات موقع ، لأنها ليست على الاطلاق شمولية ، لكنها غير ذات

---

(2) **الحراسة والعقاب**. ص 215 – 217.

(3) **الحراسة والعقاب**. ص 223, 249, 251.

موقع ، وليست قابلة لأن تحصر في مكان بعينه ، لأنها منتشرة .

مسلمة التبعية ، مفادها أن السلطة المجسمة في جهاز الدولة ، تابعة لنمط انتاج ما يعد بالنسبة لها بنية تحتية . ولا شك أن بالامكان ربط كبريات النظم العقابية بأنظمة إنتاج ، كما لا يمكن فصل التدابير التأديبية ، على الخصوص ، عن الضغط السكاني الذي عرفه القرن الثامن عشر ، وعن تزايد انتاج كان يسعى الى رفع مردوديته ، وائتلاف القوى ، واستثمارها فيما هو نافع . لكن من الصعب النظر الى كل ذلك على أن الاقتصاد هو الذي يلعب الدور المحدد ، « في نهاية المطاف » ، حتى ولو تصورنا البنية الفوقية مستقلة نوعياً وتتمتع بالقدرة على الفعل أو رد الفعل. فالاقتصاد بأكمله ، كالمعمل مثلاً أو المصنع ، هو الذي يفترض آليات السلطة ، والتي هي آليات تفعل فعلها في الأجساد والنفوس من الداخل ، تتخلل الحقل الاقتصادي وقوى الانتاج وعلاقات الانتاج. « ليست علاقات السلطة في موقع براني بالنسبة لباقي أنواع العلاقات . . . ولا تحتل موقع بنية عليا. . . بل توجد حيثما تلعب مباشرة دوراً منتجاً »[4]. وبدل الهرمية التي ما انفكت تطبع التصور الماركسي ، يطرح التحليل الوظيفي الدقيق نوعاً من المحايثة أو المثول الثاوي ، حيث تشكل بؤر السلطة والتقنيات التأديبية عدداً من القطاعات المترابط بعضها ببعض والتي يمر منها أفراد مجموعة ما أو يقيمون بها بأجسادهم ونفوسهم (الأسرة ، المدرسة ، الثكنة ، المصنع ، والسجن اذا لزم الحال) . فمن سمات « السلطة » أنها ماثلة في حقلها ومحايثة له ، دون أن توحده توحيداً متعالياً ، استمرار خطها واتصاله دونما مركزة شمولية ، التصاق وتجاوز قطاعاتها دون أن تكون مجتمعة. يتعلق الأمر اذن بفضاء سلاسل[5] .

مسلمة الجوهر أو الاعراض ، مفادها أن للسلطة جوهراً كما أنها عرض يظهر على أولئك الذين يملكون زمامها (الغالبون) من خلال تميزهم عن أولئك الذين تمارس عليهم تلك السلطة (أي المغلوبون) . خلافاً لهذا ، يؤكد فوكو ان ليس للسلطة جوهر ، بل هي اجرائية . ليست عرضاً ، بل انها علاقة : وعلاقة السلطة هي

---

(4) إرادة المعرفة، ص 124.

(5) الحراسة والعقاب. ص 148 (مما لا شك فيه أن التصور الهرمي باق ، انما بوظيفة منتشرة تتوزع على كل سطوحه) .

مجموع علاقات القوى التي لا تخترق القوى الغالبة أكثر من اختراقها للقوى المغلوبة ، هذه وتلك تشكلان معاً فرديتين . « تحاصر السلطة [المغلوبين] وتخترقهم مرتكزة اليهم بنفس الكيفية التي يرتكزون هم بدورهم الى التأثير والسطوة اللذين تمارسهما عليهم في صراعهم ضدها . » وسيؤكد فوكو من خلال تحليله للأوامر الاستبدادية بالحبس أو النفي والتي كان يصدرها الملوك ، أن « تعسف السلطان » تعسف لا يتجه من أعلى الى أسفل ، كصفة لسلطته المتعالية ، بل هو استجابة لطلب ، يتقدم به اليه أبسط الناس والآباء والجيران والزملاء الذين يرغبون في حبس أحد مثيري الفتن التافهين أو المحرضين على الشغب ، ملتمسين بذلك معونة الملك المستبد ، كما لو كانوا يلتمسون معونة « مصلحة عمومية » قائمة ، قادرة على فض النزاعات العائلية والزوجية والطرقية والمهنية[6] . لذا فان الأمر الاستبدادي بالحبس أو النفي ، يبدو هنا كشكل أولي أو صورة بدائية لما نسميه حالياً في الطب العقلي « الحجر الارادي » . ذلك أن علاقة السلطة ، بدلاً من أن تمارس نفسها داخل دائرة عامة أو خاصة ، تتغلغل في كل جانب ، حيثما توجد فرديات مهما كانت بسيطة ومتناهية في الصغر ، حيث توجد علاقات قوى ، مثل « الشجارات الناجمة بين الجيران ، نزاعات الآباء وأبنائهم والخلافات الزوجية ، والافراط في الشراب والدعارة ، المشاجرات في الأماكن العمومية ، وكذا الاهواء الممارسة في السر » .

مسملة أنماط التأثير ، مفادها أن السلطة تتصرف بعنف أو تمارس نفسها كإيديلوجية، تارة تقمع ، وأخرى تموه أو تخدع وتوهم ، تارة تتقمص زي الشرطة ، وتارة ثانية تتخذ شكل دعاية . نحن هنا من جديد أمام تناوب في غير محله ولا يفي بالغرض (نلحظ ذلك بوضوح بخصوص مؤتمر حزب سياسي ما : فقد يحدث أن يعم العنف قاعة المؤتمر أو الشارع ، ويحدث دوماً أن تطغى الايديولوجيا على ما يقال في المنصة ، لكن القضايا التنظيمية، تنظيم السلطة ، يتم البث فيها جانباً ، في القاعة المجاورة) . فالسلطة لا تمارس نفسها كايديولوجية ، حتى عندما تتسلط على النفوس ، لا تلجأ بالضرورة الى العنف ، لا تقمع في الوقت الذي تتسلط فيه على الأجساد . بل الصحيح هو أن العنف مظهر أو أثر للقوة المسلطة على شيء ما ،

---

(6) M.Foucault. «La vie des hommes Infames» , les Cahiers du chemin, 1977.

موضوعاً كان أو كائناً . وليست تعبيراً عن علاقة السلطة أو مظهر لعلاقة القوة بالقوة ، « علاقة فعل بفعل »[7]. علاقة القوى ، وظيفة من نوع « الحث ، الأحداث ، الترتيب. . . » . وبالنسبة للمجتمعات التأديبية يمكن القول أنها : التوزيع والتصنيف في سلاسل والتنظيم والتقنين : والقائمة قد تطول الى ما لا حد له ، كما أنها تتغير بحسب الحالات . فالسلطة « تنتج الواقع » قبل أن تقمع . كما تنتج الحقيقة قبل أن تضفي عليها رداء ايديولوجيا ، قبل أن تجرد أو تموه[8]. وكتاب « ارادة المعرفة » هو الذي سيبرز فيه فوكو بوضوح ، انطلاقاً من مثال متميز هو « الجنس » ، كيف أن باستطاعتنا التأكد من وجود قمع جنسي يفعل فعله في اللغة لو وقفنا عند الكلمات والجمل ، وهو شيء لا نتمكن منه لو استخرجنا العبارات الشائعة وعلى الخصوص اجراءات الاعتراف التي تمارس في الكنيسة والمدرسة والمستشفى والتي تبحث في آن واحد في واقع الجنس ، وفي حقيقته ، سيبرز كيف أن القمع والايديولوجيا لا يفسران شيئاً ، بل يفترضان تنظيماً أو « تجهيزاً » ضمنه يفعلان فعلهما ، وليس العكس . لا يعني هذا أن فوكو يجهل كل شيء عن القمع والايديولوجيا ، بل يعتبرهما في الحقيقة ، شأنه شأن نيتشه ، لا يشكلان معركة القوى ، بل ذلك الغبار أو النقع الذي تثيره سنابك الخيل في المعركة .

مسلمة الشرعية ، ومفادها أن سلطة الدولة تتجلى في القانون ، مع اعتبار هذا الأخير تارة على أنه سلم مفروض على القوى الوحشية ، وأخرى على أنه حاصل حرب أو صراع حالف النصر فيه الأقوياء . (وسواء كان هذا أو ذاك ، ينظر للقانون على أنه نهاية حتمية أو ارادية لحرب ، وبهذا فهو يقابل اللاشرعية التي تتحدد من خلاله على أنها اقصاء أو نفي للقانون ، لذا لم يتوان الثوريون عن رفع شعار شرعية أخرى تمر عبر الاستيلاء على السلطة واقامة جهاز دولة جديد) . ومن بين الافكار المحورية الأساسية في كتاب فوكو ، فكرة قوامها الاستعاضة عن التقابل غير الدقيق بين القانون واللاشرعية بتقابل أدق بين النزوعات اللاشرعية والقوانين. ذلك أن القانون دوماً ، جمع وتركيب لنزعات لا شرعية عن طريق التفريق بينها بتقنينها

---

(7) نص لفوكو، ورد في : Dreyfus et Rabinow, **Michel Foucault, un Parcours philosophique**, Gallimard, 313.

(8) الحراسة والعقاب. ص196.

وتعقيدها . ويكفي الرجوع الى قانون الشركات التجارية للتأكد من أن القوانين لا تتعارض كلية واللاشرعية ، بل بعض القوانين يقنن ويدبر بصورة صريحة سبل مراوغة القوانين الأخرى. فالقانون تنظيم لنزوعات لا شرعية تنظيماً يبيح بعضها ، يجعله ممكناً أو يقدمه امتيازاً للطبقة المسيطرة السائدة ، وتنظيم كذلك لنزعات لا شرعية أخرى يجيزها كتعويض للطبقة المسودة ، أو يجعلها تخدم مصالح هذه الأخيرة ، انه ، أخيراً ، تنظيم لتلك النزوعات التي يمنعها ويعزلها ويتخذها كموضوع أو كوسيلة من وسائل السيطرة. والتي كان أساسها ، التوزيع الجديد للنزعات اللاشرعية ، وهو توزيع لم يكن مرده أن طبيعة الخروقات القانونية بدأت تميل نحو التغير وتدور أكثر فأكثر حول الملكية بدل الأشخاص ، فقط ، بل لأن السلطات التأديبية نظمت تلك الخروقات وقننتها بشكل جديد يفسح المجال لتحديد شكل لم يكن معهوداً من قبل ، يطلق عليه « الجنوح » ، ويسمح بتمييز جديد وبمراقبة جديدة للنزوعات اللاشرعية[9]. وترجع أسباب ما عرفته الثورة الفرنسية من مقاومة ، بالتأكيد ، الى أن نزوعات لا شرعية معينة كان النظام الملكي يبيحها ويعتبرها شرعية ، أصبحت محرمة من قبل النظام الجمهوري. لكن ما تلتقي فيه الأنظمة الجمهورية والملكية الغربية ، هو كونها وسعت من حقيقة القانون وحولته الى مبدأ مفترض للسلطة ، حتى تعطي لنفسها صورة ممثل واحد للقانون : أي « أن الغطاء القانوني » ، جاء ليخفي الخارطة الاستراتيجية ويقنعها[10]. إلا أن خارطة النزوعات اللاشرعية ، تسترسل في عملها مع ذلك تحت غطاء الشرعية . وهذا ما جعل فوكو يؤكد أن القانون ليس حالة من السلم ، ولا حتى حاصل حرب ربحها البعض : بل هو الحرب ذاتها ، والتخطيط لها بالفعل ، والقانون في هذا مثله مثل السلطة التي ليست ملكاً دائماً وقاراً للطبقة السائدة ، بل هي ممارسة فعلية لاستراتيجيتها .

---

(9) الحراسة والعقاب. ص 84، 278. في حوار أجرته معه صحيفة Le Monde الفرنسية بتاريخ 21 –2 –1975 صرح فوكو قائلاً : « ليست النزعة اللاشرعية عرضاً أو نقصاً لا مرد له تقريباً . . ويمكنني أن أقول أن القانون لم يوضع ليمنع هذا النوع من السلوك أو ذاك ، بل سن لتقنين طرق مراوغة القانون نفسه » .

(10) الحراسة والعقاب. ص 114 – 120، 135. لم يقاسم فوكو قط فكرة عبادة « دولة القانون » ، فهو يرى أن المفهوم الشرعي ليس أفضل وأصح من المفهوم القمعي. بل هما مفهوم واحد للسلطة مع فرق بسيط هو أن القانون يبدو في أحدها كأثر خارجي للرغبات ، وكشرط داخلي لها في الثاني.
أنظر : إرادة المعرفة. ص 109.

كما لو أن أمراً جديداً ، لم نعهده ، منذ ماركس ، برز فجأة . كما لو أن الدولة أصبحت مقطوعة الأوصال بما تعتبره قوامها . لا يكتفي فوكو بطرح ضرورة مراجعة بعض المفاهيم ، بل انه لا يقول ذلك حتى ، بل يمارسه ، مقترحاً احداثيات جديدة للممارسة . في الخفاء ، تدوي المعركة بخططها المحلية ، واستراتيجياتها الشاملة ، التي لا تسلك مع ذلك منهج الشمولية والكلية ، بل مسلك الابدال والايصال والتوحيد والوصل . يتعلق الأمر ، طبعاً ، بالسؤال ما العمل ؟ ترتب ، بكيفية ما ، عن الأهمية النظرية الذي حظيت بها الدولة كجهاز للسلطة ، المفهوم العملي لحزب قائد ، يعتبر نفسه مصدراً للسلطة ، يسلك سبيل الاستيلاء على سلطة الدولة ، لكن وبالعكس ، هذا المفهوم التنظيمي للحزب يجد مبرره في نظرية السلطة تلك ، نظرية أخرى للصراع ، تنظيم استراتيجي جديد، ذلك هو رهان كتاب فوكو .

كان الكتاب السابق ، هو «حفريات المعرفة » . فما الجديد الذي يحمله كتاب « الحراسة والعقاب » بالمقارنة معه ؟ لم يكن كتاب الحفريات كتاب تفكير أو منهج عام فحسب ، بل ينطوي كذلك على توجيه جديد، كانتفاضة على الكتب السابقة ، تطوي صفحتها . يقيم كتاب الحفريات تمييزاً بين نوعين من التشكيلات العملية ، تشكيلات « خطابية » أو عبارات ، وأخرى « غير خطابية » أو أوساط . فالطب العيادي مثلاً في نهاية القرن الثامن عشر ، تشكيلة خطابية ، لكنه يعد كذلك ، في صلته بفئات من الجماهير والسكان الذين يرتبطون بنمط مختلف من التشكيلات ، وبأوساط غير خطابية « كالمؤسسات والأحداث السياسية ، الممارسات والعمليات الاقتصادية » . وبطبيعة الحال ، هذه الأوساط تنتج عبارات هي الأخرى ، والعبارات تحدد بدورها الأوساط . الا أن التشكيلتين متغايرتان ، رغم اندماجهما : إذ العلاقة بينهما ، ليست علاقة تقابل أو تناظر أو تبعية مباشرة ، أو علاقة رمز بما يرمز اليه[11] . كان لكتاب « الحفريات » اذن ، دور نقطة التقاء ، أو همزة وصل ، ذلك أنه طرح تمييزاً قاطعاً بين شكلين، ولما كان هدفه يتحدد بالضبط في تحديد شكل العبارات ، فقد اكتفى بالاشارة الى الشكل الآخر بكيفية سلبية معتبراً اياه « لا خطابياً» .

اما كتاب « الحراسة والعقاب »، فينجز خطوة جديدة : لننطلق من « شيء ما »

(11) حفريات المعرفة . ص 212 – 213.

كـالسجن : انه تشكيلة وسط (وسط « اعتقـال »)، انه شكـل (شكـل مضمـون) أو محتوى (والمضمون أو المحتوى هو السجين) . غير أن هذا الشيء أو هذا الشكل ، لا يحيلان الى « لفظ » يخصصهما أو يشير اليهما ، ولا الى دال يعتبران مدلولاً له . بل يحيلان الى ألفاظ وتصورات أخرى مختلفة أتم الاختلاف ، كالجنوح أو الجانح ، تكشف عن كيفية جديدة في التعبير عن الخروقات والعقوبات ، كما تكشف عن صفة من تطبق بشأنهم هذه الأخيرة . لننطلق اذن على تشكيلة العبارات هذه شكل تعبيـر . ومع أن الشكلين برزا معاً في وقت واحد ، في القرن الثامن عشر ، فان هذا لا يعني انهما غير متغايرتين . فالقانون الجنائي قطع شوطاً جعله يعبر عن الجرائم والعقوبات ويصوغها في اتجاه الدفاع عن المجتمع (وليس رغبة في الانتقام ، أو في تنصيب من يقوم بشأن المجتمع) : دلائل تخاطب النفس أو الفكر وتوقظ داعياً في الأفكار ترتبط من جـرائه في الـذهن الخروقـات بالعقـاب (فيتحول كـل ذلـك الى قـانـون يضبط السلوك) . أما السجن ، فهو أسلوب جديد في التأثير على الأبدان، أفقه غيـر أفق القانون الجنائي : « ليس السجن ، وهو أكثر صور التأديب قساوة وخشونة ، عنصـراً تابعاً من صميم النظام الجنائي كما تحدد في نهاية القرن الثامن عشر ومطلع التـاسع عشر »[12] . ذلك أن القانون الجنائي ، يعنيه ما يمكن قوله وشرحه في عبارات بيانية بشأن القضايا الجنائية ، فهو نظام لغة ، يصنف الخروقات ويكيفها مع القوانين ، كما يقدر العقوبات ، أي أننا أمام مجموعـة من العبارات ، وأمـام عتبة . أمـا السجن ، فيعني ، من جهتـه ، بما هـو مرئي : فهـو لا يسعى الى أن يقدم لنـا رؤية للجـريمة والمجرم فقط ، بل يطمع كذلك في أن يغدو هو بنفسه رؤية ، فهو نظام رؤية قبل أن يكون جدراناً بنيت على نحو معين « مكشوف الداخل ويسمح بانكشاف مـا بداخله بنظرة واحدة » ، أي يتحدد كنظام رؤية وكوسط منكشف يمكن فيه للحارس أن يرى الشاذة والفاذة دون أن يرى، أن يراقب المعتقلين باستمرار دون أن يتمكنوا هم من رؤية أي شيء (برج رئيسي في الوسط وزنزانات تحيط به في جوانبه)[13] . نحن أمام نظام رؤية

(12) الحراسة والعقاب. القسم الثاني ، الفصل الاول : (للاطلاع على حركة الاصـلاح الجنائي وعبـاراتها) والفصل الثاني (للاطلاع على أسباب كون السجن لا يمت بصلة الى هذه المنظومة ولا يعتبر جزءاً لا يتجزأ منها ، بل يحيل الى نماذج أخرى) .

(13) أنظر : الحراسة والعقاب، الفصل الثالث (وصف الانكشاف الداخلي) .

ونظام لغة ، لا ينتميان الى نفس الشكل ، ولا ينتميان الى ذات التشكيلة . وتجدر الاشارة الى أن فوكو ، لم ينفك عن دراسة هذين الشكلين في مؤلفاته السابقة . وقد أطلق عليهما في ميلاد العيادة ، اسم المرئي والملفوظ ، أما في كتاب تاريخ الحمق ، فقد ظهر هذان الشكلان ، في صيغة تمييز بين الحمق مثلما يرى في المستشفى عامة ، والجنون مثلما يعرض له الطب (ولم يكن المستشفى في القرن السابع عشر هو المكان الذي يتم فيه العلاج) . وما اهتدى اليه كتاب الحفريات دون أن يتمكن بعد من الاشارة اليه وتعيينه ، إلا سلباً ، أي كحقول وأوساط غير خطابية ، سيعرف مع كتاب الحراسة والعقاب صيغته الايجابية التي كانت هوساً يستبد بمؤلفات فوكو كلها : شكل المرئي في اختلافه عن شكل الملفوظ . فقد أدخل السواد الأعظم من الناس ، في مطلع القرن التاسع عشر في حقول رؤية ، وصاروا قابلين للرؤية ، في ذات الوقت الذي توسعت فيه العبارات الطبية لتكتسح أشياء أخرى وتعبر عنها : (كالاصابات النسيجية والارتباطات التشريحية الفيزيولوجية . .)[14].

ان ما لا شك فيه ،أن للسجن ذاته، كشكل مضمون أو محتوى ، عباراته وقوانينه التنظيمية . ما لا مراء فيه ، ان للقانون الجنائي ، كشكل تعبير ، وكعبارات مبينة للجنح ، مضامينه : قد تكون في أبسط الحالات ، نمطاً جديداً من الخروق أو الاعتداء على ملكية الغير بدل الاعتداء على الأشخاص[15]. وهما كشكلين ، ما ينفكان يتبادلان بينهما التأثير والتأثر ، ويتداخلان في بعضهما البعض ، ويتنازعان مناطقهما : ما انفك القانون الجنائي يوصل الى السجن ، ويزوده بالسجناء ، أما السجن ، فما انفك يعيد انتاج الجنوح من جديد ، ويجعله « موضوعاً » ، ويحقق الأهداف التي يصوغها القانون الجنائي ، يحققها بوجه آخر (حماية المجتمع ، اصلاح السجين ، مسؤولية الأفراد في تحمل عقوبات خروقهم ، كأفراد)[16]. بالرغم من هذا كله ، فانهما لا يجتمعان في شكل واحد مشترك ، ليس ثمة أي تطابق بينهما ولا أي توافق . وبخصوص هذه

---

(14) حفريات المعرفة . ص 214.

(15) الحراسة والعقاب. ص 77 – 80 (حول تطور الخروق وتغيرها) .

(16) الحراسة والعقاب القسم الرابع . الفصلان الأول والثاني : للوقوف على الكيفية التي يفرض السجن نفسه كمرحلة ثانية مرتبطة أوثق الارتباط بالنظام الجنائي ، من أجل « انتاج » الجنوح أو تشكيل « الجنوح كموضوع». ص 282.

النقطة ، سيطرح كتاب « **الحراسة والعقاب** » المشكلين اللذين لم يكن في مقدور كتاب « **الحفريات** » طرحهما ، نظراً لأنه ، ظل عند مستوى المعرفة وعند أولية العبارة في المعرفة . هذان المشكلان هما : من جهة أولى : هل ثمة ، بوجه عام ، علة مشتركة ، خارج الشكلين ، محايثة للحقل الاجتماعي ؟ من جهة ثانية ، كيف يؤدي انسجام الشكلين وانتظامهما وتداخلهما عمله بصورة تتلاءم مع كل وضع بعينه ؟

يطلق لفظ الشكل ، في معنيين : شكل بمعنى شكل ونظم موضوعات ما ، شكل بمعنى رتب غايات الوظائف ، وحدد لها أهدافاً . وليس وحده الذي يعتبر موضوعاً منظماً ، بل المستشفى كذلك والمدرسة والثكنة والمعمل . العقاب وظيفة مقننة وذات قواعد ، وكذا العلاج والتربية والتدريب والتشغيل . والحقيقة أن ثمة نوع من التوافق بين الشكلين رغم تعارضهما وعدم قابلية رد أحدهما الى الآخر (فالعلاجات في القرن السابع عشر ، لم تكن من شأن المستشفى العام أو اختصاصه ، كما أن القانون الجنائي في القرن الثامن عشر لم يكن يعود في أمر من الأمور الى السجن أبداً) . كيف نفسر إذن ذلك التوافق المشترك بينهما ؟ ذلك أن في مستطاعنا أن نتصور موضوعات خالصة ووظائف خالصة مجردة عن الأشكال التي تتقمصها . وعندما يعرف فوكو « انكشاف الداخل انكشافاً يمكن من الاحاطة به بنظرة واحدة » ، فهو يحدده تارة تحديداً ملموساً على أنه رؤية وادراك منظم يتميز به السجن ، وطوراً يحدده تحديداً مجرداً على أنه عامة ترتيب ينظم موضوع ادراك ورؤية (والسجن في هذا يشبه العمل والثكنة والمدرسة والمستشفى) ، ويشمل باقي الوظائف التعبيرية . ومن ثم لم تعد الصيغة المجردة لانكشاف الداخل هي « أن يرى المرء أي شيء دون أن يرى » ، بل أصبحت تعني **فرض سلوك بعينه على كثرة من الناس بعينهم** . نشير هنا فقط ، الى أن هذه الكثرة ، من المفروض فيها أن تكون منخفضة العدد ، ليمكن حشدها في مكان محصور ، وان فرض سلوك معين عليها ، يتم عبر توزيعها في المكان وترتيبها وتصنيفها تصنيفاً يتسلسل حسب الزمان وتنظيمها في المكان ـ الزمان[17] . . . . انها قائمة لا حد لطولها ، لكنها

---

(17) هذه التوضيحات ضرورية الى حد أن ارادة المعرفة سيكشف عن زوج آخر هو المادة ـ الوظيفة الخالصتين : عندئذ تكون الكثرة هنا كثرة كثيرة ، داخل فضاء مفتوح ، ولن تبقى الوظيفة تتمثل في فرض سلوك ما ، بل « تدبير شؤون الحياة » . ويقوم كتاب ارادة المعرفة بعقد مقارنة بين الزوجين ، ص 182 – 185. سنعود الى هذه النقطة .

تخص بصفة دائمة موضوعات غير مشكلة وغير منظمة ووظائف غير مقننة ولا معقدة وغير واضحة الأهداف ، تخص المتغيرين المرتبطين فيما بينهما أوثق ارتباط . ما الاسم الذي يصح أن نطلقه على هذا البعد اللاشكلي الجديد ؟ فوكو ، أطلق عليه ذات يوم اسمه الأدق : « المبيان »، ويعني به « سيراً أو اشتغالاً لا يتأثر بأي عائق أو عقبة . . . ولا يرتبط بأي استخدام نوعي»[18]. أي أن المبيان ، لم يعد الوثيقة السمعية أو البصرية ، بل أصبح خارطة أو علم رسم للخرائط ، يمتد شمولها ليغطي الحقل الاجتماعي كله » . انه آلة مجردة تتحدد وتتضح من خلال وظائف وموضوعات لا شكلية ، لا شكل لها ، تأبى كل تمييز من حيث الشكل بين المضمون والتعبير ، وبين التشكيلة الخطابية والتشكيلة غير الخطابية . انه آلة تكاد تكون بكماء خرساء وعمياء ، رغم أنها هي التي تسمح بالرؤية وبالكلام .

واذا كان ثمة عدد عديد من الوظائف وكذا من الموضوعات المبيانية ، فلأن كل مبيان كثرة مكانية . زمانية ، ولأن هناك من المبيانات بقدر ما عرفه التاريخ من حقول اجتماعية . وحينما يلجأ فوكو الى مفهوم المبيان ، فهو يفعل ذلك انطلاقاً من مجتمعاتنا الحديثة التي هي مجتمعات انضباطية ، تقوم فيها السلطة بالاشراف على الحقل كله : وان كان ثمة من مثال أو نموذج ، فلا نجد خيراً من « الطاعون » الذي يحاصر المدينة المصابة به حصاراً يشمل أدق نقطة فيها . غير أننا إن عدنا الى المجتمعات القديمة ، والتي هي مجتمعات سيادة ، للاحظنا أنها لم تكن تفتقد الى مبيان ، وان كان الأمر فيها يتعلق بموضوعات مختلفة ، ووظائف مغايرة : هنا أيضاً ، قوة ما تمارس نفسها على قوى أخرى ، لكن لتأخذ بدلاً من أن تنظم ، لتقسم مجموع الأموال بدلاً من أن تقطع الأجزاء ، لتنفي بدلاً من أن تراقب (مثلما يحدث بالنسبة « للمصابين بالجذام والبرص»)[19]. إنه مبيان مخالف ، وآلة من نوع آخر ، أقرب الى المسرح منها الى المصنع : انها علاقات قوى مختلفة . يضاف الى هذا ، أن ثمة مبيانات مخضرمة ، تعد وسطاً بين مجتمع ومجتمع : مثال ذلك ، المبيان النابليوني ، الذي تمتزج فيه الوظيفة

---

(18) يوضح فوكو بهذا الصدد أن انكشاف الداخل لا يحصل على تعريفه الكافي اذا ما نحن نظرنا اليه على أنه مجرد « نظام معماري وبصري » . الحراسة والعقاب . ص 207.

(19) حول مقارنة هذين النوعين من المبانات ، أنظر : إرادة المعرفة ، ص 178 – 179، وعن مقارنة الجذام بالطاعون ، أنظر : الحراسة والعقاب، ص 197 – 201.

التأديبية بالوظيفة السياسية « عند نقطة التقاء للممارسة السلطانية والطقوسية الشعائرية للسيادة ، بالممارسة والمسترسلة للتأديب اللامحدود »[20]. ذلك أن المبيان يطبعه ، وبقوة ، عدم استقرار وعدم وضوح ، فهو ما ينفك يضم وظائف وموضوعات ضماً تنشأ عنه تحولات . ان كل مبيان ، أخيراً ، مبيان تتداخل فيه عدة مجتمعات ، وهو في صيرورة مستمرة . وهو لا يلجأ أبداً ، كي يقوم ، الى تمثيل عالم جاهز ومعطى سلفاً ، بل يقوم بانتاج نوع جديد من الواقعية ونموذجاً جديداً للحقيقة . ليس المبيان ذات التاريخ ، ولا حتى ذاتاً تطل على التاريخ وتشرف عليه ، بل هو يصنع التاريخ من خلال فك أو نقض الوقائع والدلالات السابقة ليحل محلها قدرها من نقط الانبثاق والابتكار والاقتران غير المتوقعة ، وألوان اتصال بعيدة الاحتمال . فهو يضاعف التاريخ بصيرورة .

لكل مجتمع مبيانه أو مبياناته . وحرصاً من فوكو على أن يكون موضوع بحثه ، سلاسل محددة أوضح التحديد ، لم يصرف اهتمامه مباشرة الى المجتمعات المدعاة بدائية . دون أن يعني هذا أنها لا تعد في نظره ، نموذجاً مفضلاً ، أو ربما أفضل . فهي ليست مجتمعات بدون سياسة ولا تاريخ ، بل لها من التحالفات ، ما يصعب رده الى بنية قرابة أو ارجاعه الى علاقات تبادل بين جماعات تربطها أواصر نسب . تنمو التحالفات بين جماعات محلية وتشكل علاقات قوى (هبات وهبات أخرى في مقابلها) وتقود السلطة . ويكشف المبيان هنا عن اختلافه مع البنية ، باعتبار أن التحالفات تنسج شبكات مرنة وعرضانية ، متعامدة والبنية العمودية ، كما تحدد ممارسة ، طريقة ما في العمل ، أو استراتيجية تختلف عن أي تحليل تأليفي توافيقي ، كما تنشىء نظاماً فيزيائياً غير قادر ، في تحول مستمر واختلال دائم ، عوض دورة تبادل مغلق (من هنا النقاش الذي دار بين ليشن وليفي ستروس ، أو الذي أثارته سوسيولوجية الاستراتيجيات مع بورديو) . لن نستنتج من هذا أن مفهوم السلطة لدى فوكو يناسب ، بصفة خاصة ، المجتمعات البدائية ، التي ليست محور حديثه ، بل نستنتج ، بالأولى ، أن المجتمعات الحديثة التي خصص كلامه عنها ، تظهر هي الأخرى عن مبيانات توضح علاقات قواها أو استراتيجياتها النوعية . والواقع أن ثمة دائماً ما يدعو الى البحث ، خلف المجموعات

(20) الحراسة والعقاب. ، ص 219.

الكبرى ، عن الأنساب البدائية أو المؤسسات الحديثة، أو عن الروابط الدقيقة الصغرى التي لا تترتب عنها ، بل وعلى العكس ، تركبها وتدخل في تكوينها . حينما كان « غابرييل طارد » G.Tarde يركز دعائم الميكروسوسيولوجيا ، أي علم اجتماع يهتم بالظواهر الدقيقة الصغرى ، لم يكن يفعل شيئاً آخر غير ذلك . لم يكن يفسر الاجتماعي بالفردي ، بل كان يقوم بتحليل المجموعات الكبرى ، من خلال تحديد الروابط والعلاقات التفاضلية ، « التقليد » كانتشار لتيار من الاعتقاد والرغبة (وكأنه يحدد كوانطاً لظواهر الاجتماعية) ، « التجديد » أو الخلق ، كتلاقي تيارين تقليديين . . . وقد كانت تلك ، روابط قوى حقيقية ، من حيث أنها تتجاوز العنف .

ما البيان؟ انه بيان لروابط أو علاقات القوى التي تؤسس السلطة ، انطلاقاً من السمات الآنف تحليلها . « ليس نظام الانكشاف الداخلي مجرد نقطة اتصال ، أو نقطة للتبادل (الحراري) بين آلية سلطة ووظيفة ، بل هو أسلوب في تشغيل علاقات السلطة في وظيفة ، وتشغيل وظيفة في علاقات السلطة»[21]. لاحظنا أن علاقات القوى أو السلطة ، علاقات ميكروفيزيائية ستراتيجية ، متعددة النقط ، منتشرة ، وانها تحدد فرديات وتنشىء وظائف خالصة . والمبيان أو الآلة المجردة ، خارطة لعلاقات القوى ، خارطة كثافة وشدة ، تبرز صلات أو روابط لا يمكن حصرها في مكان وموضع بعينه ، خارطة تمثل في أية لحظة في كل الأمكنة ، « أو على الأصح ، تحضر في كل علاقة تربط مكاناً بآخر»[22]. لا صلة لهذا ، بطبيعة الحال ، بالفكرة القبلية المتعالية ، ولا حتى بالبنية الفوقية الايديولوجية ، لا صلة له ، كذلك ، بالبنية التحتية الاقتصادية ، موصوفة بمادتها ومحددة بصورتها واستخدامها . غير أن المبيان يتصرف مع ذلك ، كعلة محايثة ، لا تقوم بتوحيد ما تحايثه ، يشمل امتدادها الحقل الاجتماعي كله . فالآلة المجردة بمثابة علة الانتظامات العيانية ، وهي التي تقوم بنسج علاقاتها ، ولا تمر هذه الأخيرة « من فوق » ، بل تخترق نسيج الانتظامات ذاتها التي تتولد عن تلك الانتظامات .

---

(21) الحراسة والعقاب. ص 208.

(22) ارادة المعرفة، ص 122. « ان وجود السلطة في كل مكان ، لا يعني أنها تشمل كل شيء ، بل أنها تأتي من كل مكان » .

ماذا تعني هنا علة محايثة ؟ إنها علة تظهر من خلال مفعولها وتخرج الى الفعل من خلال معلولها ، تندمج بهذا الأخير وتبرز فيه . أو بعبارة أفضل ، العلة المحايثة ، هي تلك العلة التي يخرجها معلولها الى الفعل ويندمج بها ويضفي عليها الاختلاف . ثمة أيضاً ، ترابط وارتباط متبادل بين العلة والمعلول ، بين الآلة المجردة والانتظامات العيـانيـة (وهـذه الأخيـرة هي التي يـطلق عليهـا ، في أغلب الأحـوال ، اسم « الآليات ») . اذا كانت انمعلولات تظهر الى الوجود علتها وتخرجهـا الى الفعل ، فلأن علاقات القوى أو السلطة كامنة ، وتوجد بالقوة ، وفي صيغة امكان ، ولا تستقر على حـال ، تتلاشى مضمحلة ، جزئية ، تحـدد مجـرد امكـانيـات ، واحتمـالات تفاعل ، ما دامت لم تندرج ضمن مجموع ماكرسكوبي قادر على أنّ يمنح شكـلاً ما لمادتها المائعة ولوظيفتها المبعثرة . ومع هـذا ، فان اخـراج ما بـالقوة الى الفعـل ، اندماج ، انـدماجـات تدريجية ، موضعيـة في بدايـة الأمر ، ثم مـا تلبث أن تصبح شمـولية ، أو تميـل الى الشمـول ، عـاملة على صف عـلاقـات القـوى في خـطوط مستقيمـة ، وتجميعها وجعلهـا متجانسـة : القانـون كدمـج وتـوفيق بين نـزعـات لا مشروعة . أما الآليات العيانية والمتمثلة في المدرسة والمعمل والحبس. . . فتجري عمليات دمج على مـواد موصـوفة (الأطفـال ، العمال ، الجنـد) ووظائف محـددة الأهـداف (التربيـة أو غيرهـا) وهكذا حتى نصـل الى الدولـة التي تسعى الى دمج شامل ، الا اذا كانت الفوضى الشاملة[23]. ان اخراج ما في القوة الى الفعل ، والذي هو في ذات الوقت ادماج ، هو أيضاً تمييز وتفريق ، لا لأن العلة المتحققة والتي تظهر الى الفعل ، وحدة عليا ، بل لأن الكثرة المباينـة ، لا يمكنها ، بـالعكس ، أن ترى النور وتخرج الى الفعل ، وتفاضل القوى لا يمكنه أن يندمج ، الا بضياعه في دروب متفرقة عندما يتوزع الى ثنائيات ، متبعاً خطوط اختلاف وتمايز ، لولاها يظل أي شيء متناثراً تناثر علة لم تخرج الى الفعل. ان ما يخرج الى الفعل، لا يفعل هذا الا في شكل ازدواج أو انفصام ، بخلق أشكال متفرقة يتوزع بينها[24]. هنا اذن تظهر الثنائيات

---

(23) حول أنظمة الدمج ، الدولة خصوصاً ، والتي هي أنظمة لا تفسر السلطة ، بل تفترض علاقاتها مكتفية بأن تتابعها وتعطيها صفة الاستقرار ، أنظر : ارادة المعرفة، ص 122 –124، وكذا نص فوكـو المنشور في Libération 30 يونيو 1984.

(24) عن علاقات السلطة « كشروط داخلية للاختلاف والتمايز » أنـظر : ارادة المعرفـة، ص 124. أن يكون خروج ما بالقوة الى الفعل دوماً اختلاف وتفريق ، هذا ما نعثر عليه لدى برغسـون الذي حلله بعمق.

الكبرى، الثنائيات التصنيفية الفئوية ، كالحاكمين والمحكومين ، العمومي والخصوصي. بل إن ما هو أهم كذلك ، أن ها هنا يفترق شكلا الترهين أو التحقق ويختلفان الى شكل تعبير وشكل مضمون ، أشكال خطابية وأشكال غير خطابية ، شكل ما يرى وشكل ما يعبر عنه . ذلك أن العلة المحايثة ترفض ، على الأصح ، في موادها ، كما في وظائفها ، الأشكال ، تتحقق في اتجاه تمايز وافتراق أو تفرع مركزي ، ينشيء ، في جهة ، موضوعات مرئية ، ويقنن ، في جهة أخرى ، وظائف للتعبير. بين المرئي والعبارة ، توجد فجوة أو انفصال ، الا أن انفصال الأشكال هذا ، يظل ، برأي فوكو ، الموضع الذي لا وجه لتحديده وتعيينه في نقطة محددة ، حيث يندفع المبيان غير متقمص أي شكل ، ليتجسد في الاتجاهين المفترقين حتماً والمتمايزين والمتباينين أعمق التباين . فالتنظيمات العيانية تتصدع وتنفلق من جراء الانشقاق الذي تحدثه الآلة المجردة .

هو ذا الجواب اذن ، عن المشكلين اللذين طرحهما كتاب « **الحراسة والعقاب** » . فمن جهة، لا تقصي ثنائية الأشكال والتشكيلات، امكان علة مشتركة محايثة، تعمل في الخفاء. ومن جهة أخرى، لن تنفك تلك العلة المشتركة ، منظوراً اليها في كل حالة على حدة ، عن قياس امتزاج عناصر أو أجزاء الشكلين ، وغلبة أو طغيان احداها على الآخر ، رغم أنهما يظلان ، كشكلين ، متباينين تبايناً يتعذر معه رد أحدهما الى الآخر. وليس من المبالغ فيه ، ان قلنا : أن كل تنظيم خليط يمتزج فيه ما يرى بما يعبر عنه : « ان النظام الاعتقالي ، في ذات الصورة الواحدة خطابات وأشكال بناء معينة »، برامج وميكانيزمات[25] . و« **الحراسة والعقاب** » ، هو الكتاب الذي يتغلب فيه فوكو ، فعلاً ، على الثنائية الواضحة التي صعب على مؤلفاته السابقة التغلب عليها (وهي ثنائية كانت تميل قبل ذلك الى أن تتحول الى نظرية في الكثرة) . إذا كان قوام المعرفة ربط ما يرى بما يعبر عنه ، فان السلطة هي العلة المفترضة لذلك ، غير أن السلطة تستلزم ، بدورها ، المعرفة كتشعب وتفرع ، بدونها لن تخرج الى الفعل . « لا وجود لعلاقة سلطة ، لا ترتبط بنشأة حقل معرفة ، ولا وجود لمعرفة لا تفترض علاقات سلطة ، وتنشئها في الوقت

---

(25) الحراسة والعقاب، ص 276.

ذاته »[26]. ومن الخطأ والمكابرة ، الظن أن المعرفة لا تظهر الا حيثما تبطل أو تغيب علاقات القوى . فلا وجود لنمط حقيقة لا يحيل الى نمط من السلطة ، ولا لسلطة أو علم لا يفصح عن سلطة أو لا ينطوي عليها بالفعل ، سلطة تباشر نفسها . فكل معرفة تذهب من المرئي الى ما يعبر عنه ، والعكس بالعكس ، ورغم هذا كله ، فلا وجود لشكل مشترك كلي يحكمهما ، كما لا وجود لتطابق أو تناسب تقابلي بينهما . كل ما يجمعهما ، علاقة قوى تعمل بنحو عرضاني ، كما تعثر في ثنائية الأشكال على شرط عملها الخاص ، وشرط خروجها الخاص الى الوجود والفعل . واذا كان ثمة توافق بين الشكلين ، فانه نابع من « تلاقيهما » (شرط أن ينظر الى هذا الأخير على أنه اضطراري) . وليس العكس . « فالتلاقي ، لا يجد مبرره الا في الضرورة الجديدة التي أنشأها » ، ومن هذا القبيل ، تلاقي مرئيات السجن بعبارات القانون الجنائي .

ما هذا الذي يسميه فوكو آلة ، مجردة أو محسوسة ؟ (سيتكلم عن «الآلة ـ السجن » بل وكذا عن الآلة ـ المدرسة والآلة ـ المستشفى . . .)[27]. أن الآلات العيانية المحسوسة ، هي التنظيمات والآليات ذات الشكل المزدوج ، والآلة المجردة ، هي المبيان الذي لا شكل له . والآلات ، اجمالاً ، اجتماعية قبل أن تكون تقنية . أو ثمة ، على الأصح ، تكنولوجية بشرية ، قبل أن تكون ثمة تكنولوجية مادية . ولا شك أن هذه الأخيرة تنشر آثارها على صعيد الحقل الاجتماعي كله ، غير أنها كي تكون هي ذاتها ، كتكنولوجية ، ممكنة ، لا بد وأن تكون الأدوات والآلات المادية قد انتقيت من قبل المبيان ، وتتقلدها آليات . وغالباً ما صادف المؤرخون هذا الوضع : فالأسلحة التي كان يتقلدها الجنود الشكاة في اليونان القديمة ، تعد من عتاد الكتيبة ، ركاب الفارس منتقى من قبل مبيان الاقطاعية ، قضيب الحفر والمجرفة والمحراث ، ليست تقدماً خطياً متصلاً ، بل تحيل تباعاً الى آلات جماعية تتنوع بتنوع كثافة السكان وزمن اراحة الأرض[28]. ويؤكد فوكو ، بهذا الصدد ، أن البندقية لا

---

(26) الحراسة والعقاب، ص 32.

(27) أنظر : الحراسة والعقاب. ص 237.

(28) تعد هذه النقطة من بين النقط التي يلتقي فيها فوكو مع المؤرخين المعاصرين : بخصوص المجراف وغيره. . . يقول بروديل Braudel « الأداة نتاج وليست علة »

= (Civilisation matérielle et Capitalisme, I, 128.

وجود لها كأداة [حرب] الا ضمن « مجموع آليات لم تعد يستند مبدؤها الى الكتلة المتحركة أو الثابتة ، بل الى هندسة قطع قابلة لأن تفكك ويعاد تركيبها »[29]. يعني هذا ، اذن ، أن التكنولوجية اجتماعية قبل أن تكون تقنية . « بجانب أفران الفحم الحجري الكبرى ، أو آلات النجار ، كان اختراع البناءات المنكشفة من الداخل شيئاً تافهاً ، غير أنه من الجور والاجحاف مقارنة الأساليب التأديبية بالاختراعات ، كاختراع الآلة النجارية . . . فهي لا تساوي شيئاً بالنسبة لهذه الأخيرة ، لكن لها مع ذلك شأناً عظيماً »[30]. واذا كانت التقنيات ، بالمعنى الضيق للفظ ، تعد جزءاً من مجموع نظام ونتاج تنظيمات ، فلأن هذه الأخيرة ذاتها ، هي وتقنياتها من نتاج المبيان . فقد يكون للسجن ، مثلاً ، وجود هامشي في مجتمعات السيادة (أوامر الحبس) ، لكنه ، لن يتحول الى جهاز الا في الوقت الذي يتيح له مبيان جديد ، والمبيان التأديبي ، أن يجتاز « العتبة التكنولوجية »[31] .

وكأن الآلة المجردة والأجهزة العيانية ، تشكل قطبين ، نمر من أحدهما الى الآخر دون أن نشعر بذلك . فتارة تتوزع الأجهزة متخذة شكل قطع صلبة متماسكة ، معزولة عن بعضها البعض ، تفصلها حجب وحواجز عازلة ، كما تفصل بعضها عن بعض فواصل شكلية (المدرسة ، الجيش ، المعمل ، والسجن في بعض الأحوال ، فبمجرد ما يبلغ المرء مرحلة التجنيد ، يقال له « كبرتم على المدرسة » . .) ، وتفضي ، تارة أخرى ، وبالعكس ، الى الآلة التجريدية التي تضفي عليها تجزيئية وانقسامية دقيقة ، مرنة ومنتشرة ، بحيث تتشابه كلها ، ويشيع السجن عبر الأجهزة والأنظمة الأخرى فتصبح كمتغيرات لدالة واحدة تفتقد الى الشكل ، دالة مسترسلة ، (فالمدرسة والثكنة والمعمل هي بالأولى سجون)[32]. واذا كنا ما ننفك

= بخصوص أسلحة الجنود الشكاة اليونان ، يقول ديتيان Détienne« أن التقنية ، اذا صح القول ، اجتماعية وذهنية » .

Problèmes de la guerre en Grèce ancienne, Monton, 134).

(29) الحراسة والعقاب، ص 165.

(30) الحراسة والعقاب، ص 226.

(31) أنظر : الحراسة والعقاب، ص 225.

(32) نص أساسي، الحراسة والعقاب، ص 306.

في سعي بين القطبين ، ننتقل من أحدهما إلى الآخر ، فلأن كل نظام يجسد بصورة فعلية الآلة المجردة ، وان كان ذلك بدرجات متفاوتة ومختلفة : وكأنما الأمر يتعلق بمعاملات مختلفة لاخراج المبيان الى الفعل ، وكلما كانت درجة ترهين المبيان واخراجه الى الفعل عالية ، الا وكان شيوع النظام أو الجهاز في سائر الأجهزة الأخرى كبيراً ، وامتد ليشمل الحقل الاجتماعي بأسره . وهنا يكتسي منهج فوكو أقصى درجات المرونة . ذلك أن المعامل يتغير باديء الأمر من جهاز لآخر : فالمستشفى البحري العسكري ، مثلاً ، يقع في ملتقى طرق ، ويمد مصفاته ومبادلاته في كل الاتجاهات ، يراقب سائر أنواع الحركيات مما يجعل منه بؤرة تأثير عال ، وفضاء طبياً يمتد ليشمل المبيان كله[33]. لكن المعامل يتغير أيضاً ، داخل نفس الجهاز ، من حقل اجتماعي الى آخر ، أو ضمن نفس الحقل الاجتماعي . ثمة اذن ثلاثة أطوار مر بها السجن : في مجتمعات السيادة ، لم يوجد الا على هامش الأنظمة العقابية الأخرى ، ويرجع السبب في ذلك الى أنه لم يحقق المبيان الا تحقيقاً طفيفاً . ثم ما لبث أن أخذ يشيع في جميع الاتجاهات ، لا ليضطلع بمهام وأهداف القانون الجنائي فحسب ، بل وليتغلغل في الأجهزة أو الأنظمة الأخرى ، لأنه أصبح يحقق شروط المبيان التأديبي تحقيقاً عالياً (كما كان عليه أن يقضي على « السمعة السيئة » التي جلبها عليه دوره الآنف) . وأخيراً ، ليس من المؤكد أن المجتمعات التأديبية ستتركه يحتفظ بذلك المعامل الكبير ، لو استطاعت ذلك وتمكنت من تطوير وسائل أخرى لانجاز أهدافها الجنائية ، وتحقيق المبيان في كل اتساعه وشموله : من هنا فكرة اصلاح السجون التي صارت تستبد أكثر فأكثر بالحقل الاجتماعي ، والتي قد تنتهي بانزال نموذج السجن من عليائه لتحيله الى جهاز محدود الأهمية ومحصوراً ومنعزلاً[34]. وكأن السجن مؤشر ضغط ، علق في كرة جوفاء تتحرك صعوداً ونزولاً حسب نسبة تحقيق المبيان التأديبي وترهينه . يوجد تاريخ للأجهزة مثلما أن ثمة

---

(33) **الحراسة والعقاب**، ص 145 – 146 (« تقترن الحراسة الطبية بسلسلة كاملة من الرقابات : كالرقابة العسكرية على الفارين من الجندية ، والرقابة المالية على البضائع ، والرقابة الادارية على العلاجات والحصص والاختفاءات والشفاء والموتى والتقليد. . . »).

(34) عن تيار الاصلاح الجنائي ، والأسباب التي جعلت السجن لم تعد له نفس الأهمية ، أنظر : **الحراسة والعقاب**، ص 313,312.

صيرورة وتحول يتعرض لهما المبيان .

ليست تلك احدى مميزات منهج فوكـو فحسب ، بَلْ انهـا أيضاً نتيجـة هامـة يوصلنا اليها تفكيره . لقد نظر غالباً الى فوكو على أنه مفكر الحجز والحبس (فكتابه « تاريخ الحمق » كتاب موضوعه المحوري المستشفى العام ، أما كتابـه « الحراسـة والعقاب » فموضوعه السجن) ، وهـو شيء غير صحيح ، بل ينـطوي على تأويـل معكوس لا نتمكن معه من ادراك المشروع الفوكوي في شموليتـه . يعتقد، فيـريليو Paul Virilio، على سبيـل المثال ، أنـه يختلف مع فـوكـو حينمـا يؤيـد أن مشكـل المجتمعات الحديثة ، أي مشكل « الشرطة » ليس مشكل حجز أو حبس ، بل مشكل « تقنين الطرق » ، مشكل السرعة أو الزيادة في السرعة ، ضبط السرعات ومراقبتها ، مشكل محاصرة وتطويق فضاء مفتوح . وفوكو لا يقول شيئاً سوى ذلك ، بدليل تطابق تحليلهما للقلاع ، أو تحليل المستشفى البحري العسكري لدى فـوكو . وليس هـذا الخلاف ، الذي يعتبره « فيريليو » تعارضاً ، أمراً خطيراً ، لأن قوة وأصالـة مسعاه ، دليل على أن الالتقاءات النظرية بين مفكرين لا صلة تجمعهم ، تتم دوماً حول النقط الصعبة . لكنه قد يغدو ، بالمقابل ، خطيراً حينما يتجرأ بعض المؤلفين غير المؤهلين للنقد ، على كيل انتقادات جاهزة لفوكو كاتهامه مثلاً بايلاء أهمية مبالغ فيهـا للحجز والحبس ، أو يصفقـوا لانكبابـه على تحليلهما . ذلـك أن الحجز والحبس، شكـلا دوماً ، بالنسبة له ، معطى ثانوياً ، يتفرع عن دالة أصلية ويختلف اختلافاً كبيراً تبعـاً للأحوال ، فشتان ما بين حجـز المجانين في المستشفى العـام أو الملجأ في القـرن السابع عشر ، وحبس الجانحين خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشـر . ذلك أن حجز المجانين ، كان يتم على غرار « النفي » وعلى منوال عزل المصابين بالجـذام والبرص ، أما حبس الجـانحين ، فقد كـان يتم على غرار « الحراسة والمـراقبة »، وعلى منوال حراسة المصابين بأوبئة[35]. وتعد الصفحات التي خصصها فوكو لتحليل هذه المسألة من أروع وأجمل صفحات مؤلفه . إن النفي والحراسة ، هما بالضبط ، وظيفتان خارجية أو برانية ، تظهران الى الوجود وتخرجان الى الفعل من قبـل أنظمـة وأجهزة حجز. والسجن كجزء صلب (انفرادي) يحيل الى وظيفة مرنة متحولة ، الى

---

(35) الحراسة والعقاب، ص 197 – 201 (وتاريخ الحمق ، الفصل الأول) .

دورة مراقبة ، الى شبكة كاملة تخترق كذلك الأوساط الحرة وتتخللها ، ويمكنها أن تعلم كيف يمكن الاستغناء عن السجن. ويشبه هذا، الى حد ما ، « التسويف اللامحدود » لدى بلانشو Blanchot بصدد فوكو ، الحبس أو الحجز يحيلان الى خارج ، وما هو محتجز أو محبوس هو الخارج[36]. « ففي » الخارج ، أو عن طريق الاقصاء ، تحجز الأجهزة وتحبس. ونفس ما يقال على « الخارج » أو الحجز الفيزيائي ، يقال أيضاً على الداخل النفسي. في الغالب ما يلتمس فوكو شكلاً لما هو خطابي وشكلا لما هو غير خطابي ، لكن هذين الشكلين ، لا يحجزان شيئاً ، ولا يترجمان عن نفسيهما جوانياً ، فهما « شكلاً خارجية » برانيين ، عبرهما ، تتناثر العبارات أحياناً ، وتنتشر المرئيات أحياناً أخرى . انها بصفة عامة مسألة منهج : عوض أن نتجه من خارجية برانية نحو « نواة جوانية » نعتبرها جوهرية ، علينا أن نرفض وهم الداخل ، وهم الجوانية ، كي نعيد للكلمات والأشياء برانيتها المؤسسة[37].

بل علينا أن نميز عدة مستويات متلازمة ، ثلاثة على الأقل . أولها الخارج كعنصر قوي ، لا شكل له : ذلك أن القوى تأتي من الخارج ، وتتعلق بالخارج الذي يصنع روابطها وعلاقاتها ، ويسطر مبياناتها . وثانيها الخارجي، كوسط أجهزة عيانية تتحقق فيها علاقات القوى وتتجسد فعلاً . ثالثها وأخيرها أشكال الخارجية أو البرانية ، ما دام التجسد أو الخروج الى الفعل يتم ضمن انفصال شكلين وافتراقهما ، يقتسمان الأجهزة (حيث لا يكون الحبس والحجز والاحساسات الداخلية الجوانية سوى صور عابرة وطارئة على سطح تلك الأشكال) . سنعمل لاحقاً ، على تحليل مجموع تلك الصور مثلما تظهر وتتجلى في « تفكير الخارج » . غير أن فوكو ، يؤكد ها هنا أن لا شيء في الحقيقة يمارس الحجز. . . فتاريخ الاشكال ، نظام العبارة ، مضاعف بصيرورة القوى ، المبيان . ذلك أن القوى تظهر في ارتباط كامل بنقطة أخرى : « المبيان خارطة ، أو الأصح ، تركيب خرائط ، يقوم على وضع احداها فوق الأخرى ، ومن مبيان الآخر ، تظهر خرائط جديدة . ليس ثمة مبيان لا ينطوي ، الى

---

(36) Blanchot, L'entretien infini, Gallimard, 292.

(37) حول التاريخ و« شكل البرانية المنظم »، أنظر : حفريات المعرفة ، ص 158 ، 161.

جانب النقط التي يصل بينها ، على نقط حرة متحللة ، نقط خلق وتحول ومقامة ، ولعل من الضروري الانطلاق منها بغية فهم المجموع . فانطلاقاً من « الصراعات » التي عرفتها كل فترة ، ومن أسلوب تلك الصراعات ، يمكننا فهم تعاقب المبيانات ، أو تسلسلها وارتباطها خارج ألوان الانفصال[38] . ذلك أن واحداً يشهد على الكيفية التي يلتوي بها خط الخارج ، الذي تحدث عنه « ملفيل » Melville ، بلا بداية ولا نهاية ، خط محيطي يمر بكل نقط المقاومة ، يخدع ويصدم المبيانات باستمرار ، تبعاً لما هو أقرب عهداً . أي التواء غريب ذلك الذي أصاب الخط ، خط ألف ضلال ، سنة 1968 . من هنا كان التعريف الثلاثي للكتابة : الكتابة صراع ومقاومة ومقاومة . الكتابة صيرورة ، الكتابة رسم لخرائط ، « فأنا خرائطي . . . »[39] . .

---

(38) ينتهي كتاب الحراسة والعقاب، بغتة وبفظاظة على « دوي المعركة» (ص 315) . وسيقوم كتاب ارادة المعرفة « بابراز فكرة » نقط المقاومة » (ص126 – 127) ، والنصوص اللاحقة التي ستحلل أنماط الصراعات في ارتباطها بمبيانات القوى (يرجع اليها في كتاب : . Dryfus et Rabinon, 301 – 304

(39) جوار أجرته : ,Nouvelles littéraires, 17 Mars 1975



الموقعية : او " التفكير بنحو اخر " :

الأبنية أو التشكيلات التاريخية :
ما يرى وما يعبر عنه (المعرفة)

الأبنية Strates تشكيلات تاريخية ، وضعيـات أو اختباريـات . « انها طبقـات رسوبية » مترسبة ، تتكون من أشياء وكلمات ، من رؤية وكلام ، من مرئي وملفوظ ، من رحاب رؤية وحقول قراءة ، مضـامين وتعبيرات . نقتبس هذه المصطلحـات من « يلمسليف » Hjelmslev، انما بغية تطبيقها على فوكو لغرض مغاير ، ما دام لم يعد من الممكن اعتبار المضمون مدلولاً ومماثلته به ، ولا اعتبار التعبير دالاً ومماثلته به . يتعلق الأمر بتقسيم جديد على جانب كبير من الدقة . للمضمون شكل وفحوى : هذا الفحوى ، هو السجن مثلاً ، وأولئك الموصد عليهم داخله وبين جدرانه ، السجنـاء (من؟ لماذا ؟ كيف ؟)[1]. للتعبير هو الآخر شكل وفحوى : انه القانـون الجنائي ، مثلاً ، و« الجنوح » ، بصفتهما مادة عبارات . ومثلما أن القانون الجنـائي ، يحدد ، من حيث هو شكل تعبير ، حقل قول (عبارات الجنوح) ، كذلـك السجن يحدد ، بوصفه شكل مضمون ، محل رؤية («منكشف الـداخل » انكشـافاً يمكن المـرء من الاحاطة بداخله بنظرة واحدة ، دون أن يرى) . هـذا المثال ، يحيـل الى آخر أهم

---

(1) حول « الشكل ـ السجن » واختلافاته عن أشكال التعبير المواقتة له (والمتمثلة في القانون الجنـائي) ، أنظر : الحراسة والعقاب ، ص 233.

تحليل قام به فوكو في كتابه « الحراسة والعقاب » ، وهو نفس ما كان قد فعله في كتاب « تاريخ الحمق » . ظهر الملجأ في العصر الكلاسيكي كمحل لرؤية الحمق ، في الوقت ذاته الذي صاغ فيه الطب عبارات أساسية حول « الجنون » . وبين هذين الكتابين ، ألف فوكو كتابين في آن واحد هما « ريمون روسيل » و« ميلاد العيادة » . يوضح في أولهما كيف أن أعمال روسيل تنقسم الى قسمين ، ابتكار رؤى تبعاً لآلات خارقة ، توليد عبارات ، تبعاً « لطريقة » شاذة . ويوضح في الثاني ، والذي يتناول ميداناً مختلفاً تمام الاختلاف ، كيف أن العيادة والتشريح المرضي ، أعقبتهما توزيعات متنوعة بين « ما يرى وما يعبر عنه » .

ومن غير الصحيح هنا ، اعتبار « العصر » سابقاً على العبارات ، والقول بأنه مرجعها ، تمثله وتعكسه ، وسابقاً على الرؤى ، والاعتقاد بأنه وعاؤها ، تملؤه وتشغله . انهما المظهران الأساسيان فأي بناء ، أو أية تشكيلة تاريخية تتضمن توزيعاً لما يرى ولما يعبر عنه ، يحدث ويتم على أرضيتها . ومن بناء الى آخر ، يتنوع التوزيع ، من جهة ثانية ، نظراً لأن الرؤية ذاتها يتغير نمطها ، ولكون العبارات نفسها يتغير نظامها . مثال ذلك أن الملجأ ظهر ، في العصر الكلاسيكي ، ككيفية جديدة في الرؤية ، وفي ابراز الحمقى ، ككيفية مخالفة تمام المخالفة لتلك التي سادت العصر الوسيط وعصر النهضة ، وحتى الطب بدوره ، وكذا القانون والتشريعات المنظمة والأدب وغيرها من الفنون ، خلقت نظام عبارات تختص بالجنون كمفهوم جديد . اذا كانت عبارات القرن السابع عشر تصف الحمق كأقصى درجات الجنون (كمفهوم جوهري) ، فان الملجأ أو الحجر يحجبه ويطوقه ضمن مجموع يحشر فيه الحمقى الى جانب المتسكعين والمشردين والفقراء والعاطلين ، أي بجانب سائر الصعاليك المنحرفين . نحن هنا أمام أمر « جلي وواضح للعيان » ، ادراك تاريخي أو حساسية ، وبداهة « لا تقل وضوحاً عن أي نظام خطابي [2] . وفي وقت لاحق ، وضمن شروط أخرى ، سيبرز السجن ككيفية جديدة في الرؤية وفي تقديم الجريمة والجنوح ككيفية جديدة في التعبير. كيفية في الرؤية وكيفية في التعبير ، خطابيات

(2) عن « بداهة » المستشفى العام في القرن الثامن عشر ، بوصفها تتضمن « حساسية اجتماعية ، ستختفي فيما بعد ، أنظر : تاريخ الحمق ، ص 66. كذلك الشأن فيما يخص « بداهة السجن » ، أنظر الحراسة والعقاب ، ص234.

وبداهات ، أي بناء يتركب منهما ، ومن بناء الى آخر ، تختلف الخطابيات والبداهات ، ويختلف تركيبهما . وما ينتظره فوكو من التاريخ ، هو هذا التحديد ، تحديد المرئيات والتعبيرات بالنسبة لكل عصر ، تحديداً يتعدى السير والذهنيات والأفكار ، ما دام هو (التحديد) الذي يسمح بامكانها . لكن التاريخ لا يقدم جواباً الا لأن فوكو ، عرف كيف يبتكر ، في ارتباط ، بطبيعة الحال ، بمفاهيم المؤرخين الجديدة ، كيفية فلسفية ، بالمعنى الدقيق ، في طرح القضايا وطرح الأسئلة ، كيفية تتسم هي ذاتها بالجدة ، تعطي دفعاً جديداً للتاريخ .

وكتاب « حفريات المعرفة »، هو الذي سيستخلص النتائج المنهجية ، وسيقوم بوضع لبنات وتشييد نظرية معممة في عنصري الأبنية : ما يرى وما يعبر عنه ، التشكيلات الخطابية والتشكيلات غير الخطابية ، أشكال التعبير وأشكال المضمون . غير أن هذا الكتاب ، منح مع ذلك أولية مطلقة للعبارة . مما جعل رحاب الرؤية لا تتعين الا بكيفية نفيية سلبية ، « كتشكيلات غير خطابية » توجد في فضاء ، ليس سوى فضاء مكمل لحقل العبارات . يقول فوكو بوجود علاقات خطابية بين العبارة الخطابية وبين ما ليس خطابياً . لكنه لم يقل قط أن اللاخطابي يمكن رده الى العبارة ، وانه بالتالي مجرد فضلة زائدة أو وهم . ولمسألة الأولية أهمية قصوى : فالعبارة تتمتع بالأولية ، سنرى لماذا . لكن الأولية لم تكن تعني قط أن كل شيء قابل لأن يرد اليها . إذ عبر كل ما كتبه فوكو ، تظل المرئيات غير قابلة لأن ترد أو ترجع الى العبارات ، لا سيما وأنها تشكل ، فيما يبدو ، سلباً وانفعالاً بالمقارنة مع فاعلية العبارات . لقد كان العنوان الفرعي لكتاب « ميلاد العيادة » هو « أركيولوجيا النظرة »، ولا يكفي هنا أن نقول ، ان فوكو تراجع عن هذا العنوان الفرعي وانتقده ، كعادته دائماً حتى بالنسبة لمؤلفاته السابقة ، لا يكفي ذلك ما لم نتساءل عن السبب ، وعن المواطن التي انصب عليها النقد . والحال أن المسألة التي انصب عليها النقد ، بالتأكيد ، هي مسألة الأولية . فقد تقوى لدى فوكو ، أكثر فأكثر ، الاعتقاد بأن مؤلفاته السابقة لا تشير بما فيه الكفاية الى أولية أنظمة العبارة بالنسبة لكيفيات الرؤية والادراك . وذاك هو رد فعله على الفينو مينولوجية . غير أن أولية العبارة ، لا تحول ، في رأيه ، على الاطلاق ، دون الاستقلال التاريخي للمرئي وعدم قابليته لأن يرد الى العبارة، بل العكس. ذلك أن العبارة لا تتمتع بأولية، الا لأن للمرئي قوانينه

الخاصة ، واستقلاله الذاتي الذي يجعله مرتبطاً بالعنصر الغالب ، أي بسلطان العبارة . فبسبب أن ما يعبر عنه يتمتع بأولية ، كان المرئي يواجهه ويعارضه بشكله الخاص به الذي يتحدد بما يعبر عنه أن يستسلم وينقاد له ويتقلص فيه . ويعتقد فوكو أن مواضع الرؤية ليس لها على الاطلاق نفس الايقاع أو الوتيرة ، ولا ذات التاريخ أو ذات الشكل الذي تتصف به حقول العبارة ، وكل كلام عن أولية العبارة ، لا يكون صحيحاً الا بهذا المعنى ، أي بوصفها أولية تمارس على شيء غير قابل للرد . وكل تجاهل لنظرية الرؤية فيه تشويه لمفهوم فوكو للتاريخ ، بل تشويه حتى لتفكيره ، ومفهومه للتفكير ، واحالته الى مجرد صيغة جديدة لفلسفة التحليل المعاصرة ، والتي لا تربطه بها صلة تذكر (ما عدا ، ربما ، بـ« فتغنشتين » Wittgenstein ، الذي انتهى الى تصور طريف لعلاقة ما يرى بما يعبر عنه) . ما انفك فوكو ، يبدي افتتاناً بما يرى وبما يسمع أو يقرأ ، والحفريات ، كما يتصورها ، نظام عبارة سمعي بصري (بداية من تاريخ العلوم) . لم يكن فوكو مشدوداً الى العبارة ومولعاً باكتشاف عبارات غيره كشف الغطاء عنها ، الا لأنه شغوف بالرؤية : ما يتميز به فوكو ، قبل أي شيء ، هو الصوت ، بل وحتى البصر. العينان والصوت . ما انقطع فوكو أبداً عن الرؤية ، في الوقت ذاته الذي كان فيه يطبع الفلسفة بأسلوب عبارات جديد، والصوت والرؤية ، لديه ، كانا يسيران معاً بخطى متفاوتة وبايقاع مزدوج .

ليست الأبنية موضوعاً غير مباشر لمعرفة تأتي فيما بعد ، بل هي تشكل مباشرة وعلى الفور معرفة : درس الأشياء ودرس قواعد اللغة . لهذا السبب ، كانت الأبنية من اختصاص الحفريات ، ومرد ذلك بالذات ، هو أن هذه الأخيرة لا تحيل بالضرورة الى الماضي ولا ترجع اليه . فلا حفريات الا للحاضر . وسواء تعلق الأمر بالماضي أو الحاضر ، فان ما يرى وما يعبر عنه يعتبران معاً ، موضوع بحث ابستملوجي ، لا موضوع بحث فينومينولوجي . وما ينتقده فوكو على نفسه في كتاب « تاريخ الحمق » أن هذا الأخير أولى عناية مبالغاً فيها لتجربة معيشة ، كانت ما تزال تجربة غضة ، وذلك على طريقة أنصار الفينومينولوجيا ، واهتماماً متطرفاً بقيم المخيال الأبدية ، على طريقة بشلار . لكن الواقع ، أن ليس ثمة شيء قبل المعرفة ، لأن المفهوم الجديد الذي يعطيه فوكو للمعرفة ، مفهوم يعتبرها تتحدد بتركيبها لما يرى وما يعبر عنه تركيبات تخص كل واحدة منها بناء بعينه وتشكيلة تاريخية معينة . ان المعرفة نظام

عملي ، « مجموع آليات » عبارات ورؤى . إذن ، فلا شيء يوجد خلف المعرفة (رغم أن ثمة أشياء خارج المعرفة ، كما سنرى) . ويعني هذا أن المعرفة لا توجد الا في ارتباط بـ« عتبات » مختلفة ومتباينة أشد التباين ، انها مؤشر على عدد من الانقسامات والتفرعات والاتجاهات التي يعرفها بناء معين من الأبنية . ولا يكفي الكلام بهذا الصدد عن « عتبة انطلاء الصبغة الابستمولوجية » : فهذه الأخيرة تسير حتماً في اتجاه يقود الى العلم ، ثم ستكون مضطرة الى أن تجتاز أيضاً عتبة خاصة هي عتبة « العلمية » بل و« عتبة الصورنة » عند الاقتضاء . ولا نعدم في البناء ، عتبات أخرى ، ذات وجهات مخالفة : كعتبة التنظير الاخلاقي أو التنظير الجمالي أو عتبة التسييس ، أو ما شابهها[3]. ليست المعرفة هي العلم ، فهي لا تنفصل عن هذه العتبة أو تلك حيث تجد مكانها ، بل لا تنفصل حتى عن التجربة الادراكية وعن قيم المخيال وأفكار العصر أو معطيات الرأي العام . المعرفة هي وحدة بناء يتوزع في مختلف العتبات ، بل البناء ذاته لا يوجد الا كتكدس لتلك العتبات تكدساً يتخذ اتجاهات متباينة ، والعلم ليس سوى تكدس واحد من تلك التكدسات . والعناصر الوحيدة المكونة للمعرفة ، هي الممارسات أو الوضعيات : ممارسات خطابية ، أي العبارات وممارسات غير خطابية هي الرؤى . لكنها ممارسات تتقمص دوماً زي عتبات حفرية . تشكل تقسيماتها غير الثابتة ، الاختلافات التاريخية بين الأبنية . تلك هي نزعة فوكو الوضعية أو البرغماتية ، ان علاقة العلم بالأدب ، والخيالي بالعلمي ، أو المعرفي بالمعيش ، لم تشكل أبداً وعلى الاطلاق ، بالنسبة له مشكلاً ، لأن مفهوم المعرفة يتخلل كل العتبات ويتقمصها جاعلاً من متغيرات البناء تشكيلة تاريخية .

مما لا شك فيه ، أن الأشياء والكلمات ، لفظان أكثر غموضاً وابهاماً من أن يدلا على قطبي المعرفة ويحددانهما التحديد الواضح ، وهذا ما يؤكده فوكو حينما يذهب الى القول بأن عنوان كتاب « الكلمات والأشياء » ينبغي أن يؤخذ مأخذ التهكم . فمهمة الحفريات ، تتمثل ، أولاً ، في اكتشاف شكل حقيقي للعبارة لا يمكن خلطه بأي وحدة من الوحدات اللسانية ، مهما كانت طبيعتها ، كالدال والكلمة والجملة والقضية والفعل اللساني . يهاجم فوكو ، على الخصوص ، فكرة الدال ،

---

(3) حفريات المعرفة، ص 236 – 255.

مؤكداً « أن الخطاب يلغي نفسه في واقعه ، بأن يضع نفســه في مستوى الـدال »[4].
ولقد لاحظنا كيف اكتشف فوكو شكل التعبير في مفهوم على جانب كبير من الطرافة هو « العبـارة » كدالـة تتقاطـع ومختلف الوحـدات ، فترسم بـذلك منحـرفـاً أقـرب الى الموسيقى منه الى المنظومة الدالة . وعليه ، فان الحاجة تدعو الى تفتيت الكلمـات والجمل والقضايا وفلقها قصد استخراج العبارات التي تنطوي عليها ، مثلما كان يفعل ذلـك « ريمون روسيـل » بابتكـاره لـ« طريقتـه » . وصنيع كهـذا ، ضروري لشكـل المضمون ، فليس هذا الأخير مدلولاً ، مثلما يستحيل على التعبير أن يكـون دالاً . ليس واقعة أو مرجعاً أو علاقة للرؤى بعناصر بصرية أو حسية بوجه عام ، ليس أشياء وموضوعات أو مركبا من موضوعات . ولقد أنشأ فوكو بهـذا المضمار ، دالـة لا تقل أصالة عن دالة العبارة . فالحاجة تدعو الى تفتيت الاشياء وهشمهـا . فليست الرؤى أشكال موضـوعات ، ولا أشكـالاً تنكشف عند تسليط الضـوء على الشيء ، بل هي أشكال نور ، يخلقها الضوء ذاته ، فتتحول معها الأشياء والموضوعـات من صورتهـا الحقيقية وتغدو وميضاً متلألئاً ولمعاناً وبريقاً[5]. هذا هو الجانب الثـاني الذي أبـرزه فوكو عند « ريمون روسيل » والذي كان يسعى ، ربما، الى ابرازه أيضاً لدى « ماني » Manet. واذا كان قد بدا لنا أن مفهـوم العبارة مستـوحى من الموسيقى وأقـرب الى « فيبرن » Wiebern منه الى اللسـانيات ، وان مفهـوم المرئي مستلهم من الـرسم أو التصوير ، وأقرب الى « دولوني » Delaunay الذي كان يعتبر الضوء شكـلاً ، يخلق أشكاله وحركاته الخاصة به . كان يقول : كسر « صيزان » Cézanne طبق الفاكهة ، ولا حاجة لمحاولة رأبه وترميمه ، على نحو مـا يفعل التكعيبيـون . تفتيت الكلمات والجمل والقضايا ، تفتيت الكيفيات والأشياء والموضوعات : مهمة مزدوجة تضطلع بها الحفريات ، مثلما اضطلع بها مشروع روسيل . فالحاجة تدعـو الى أن نستخرج من كلمات اللغة ، العبارات الموافقة لكل بناء ولعتباته ، كما تدعو إلى أن نستخرج من الأشياء والمشاهدات ، الرؤى و« البداهات » الخاصة بكل بناء من الأبنية .

إلام ترجع ضرورة هـذه الاستخراجات ؟ لنبدأ بالعبارات : فهذه الأخيـرة ليست

(4) نظام الخطاب، ص 51.
(5) ريمون روسيل، ص 140 — 141.

على الاطلاق خفية ، دون أن يترتب عن ذلك أنها تقرأ وتقال مباشرة . ومن الممكن أن يذهب بنا الاعتقاد الى أن العبارات غالباً ما تكون مختفية ، ما دامت عرضة للتنكر والمواربة والزجر والكبت . وفضلاً عما ينطوي عليه هذا الاعتقاد من تصور مغلوط للسلطة ، فهو لا يستقيم الا اذا لبثنا عند حدود الكلمات والجمل والقضايا . وهو ما يؤكده فوكو بخصوص الجنس ، في مطلع كتاب « ارادة المعرفة » : قد تظن أن مجموعة بكاملها من المفردات والجمل الاستعارية ، واللغة المنتقاة ، منعت في العهد الفيكتوري بحيث أصبح الجنس بمثابة الأساسي الذي لن يفضحه الا منتهكو الأعراض الوقحين الأشرار ، الى أن جاء « فرويد » . . . لكن شيئاً من هذا لم يحدث ، ولم تقم في يوم من الأيام بنية ما من الأبنية أو تشكيلة معينة من التشكيلات التاريخية ، بنشر هذا العدد الهائل من عبارات الجنس ، بتحديد شروطها ونظمها ومواضعها ومناسباتها ومحاوريها (الذين سيضيف اليهم التحليل النفسي محاوريه).
اننا نسيء فهم دور الكنيسة منذ انعقاد المجمع الديني المسكوني ، في الثلاثينات ، ما لم نتابع كثرة ووفرة الخطابات الجنسية . « تحت غطاء لغة ثم تهذيبها بعناية ، بحيث لم يعد يذكر فيها الجنس مباشرة باسمه ، وقع الجنس في شرك وحبال خطاب يطمح الى أن لا يبقيه في غموضه وابهامه واستراحته. . . ان ما يميز المجتمعات الحديثة ، ليس أنها حكمت على الجنس بأن يبقى في الظل ، بل هو أنها نذرت نفسها للكلام عنه باستمرار ، مع الترويج له واظهاره على أنه سر» . ومجمل القول ، تظل العبارة خفية ما لم نكتشف شروط استخراجها ، الا أنها تغدو ، في الوقت ذاته ، ماثلة وكاملة ، بمجرد ما نبلغ تلك الشروط . نفس الشيء يقال عن السياسة : فهي لا تخفي شيئاً ، في الدبلوماسية والتشريع والتشريعات المنظمة ، وفي الحكومة ، رغم أن كل نظام من العبارات ، يتضمن طريقة معينة في ربط الكلمات والجمل والقضايا . ويكفي للمرء أن يحسن القراءة ، مهما نجم عن ذلك من صعوبات . والسر لا يكون سراً الا ليتم افشاؤه وكشف الغطاء عنه . كل فترة تصوغ على الوجه الأكمل ، ما هو أكثر صفاقة في سياستها ، وأكثر فجاجة في حياتها الجنسية ، الى درجة أن المنتهك لا يفلح كثيراً ولا يحالفه الحظ في فضح ذلك . كل فترة تقول كل ما بوسعها قوله ، تبعاً لشروط العبارة . ومنذ « تاريخ الحمق » ، كان فوكو يحلل خطاباً « المشفق على البشر » الذي حرر الحمقى وكسر أغلالهم دون أن يخفي

الأصفاد الجديدة التي أعدها لهم ، والتي هي أشد وثاقاً[6]. ان كل ما يمكن أن يقال في فترة ما ، يتم قوله فعلاً ، ولعل هذا أكبر مبدأ تاريخي لدى فوكو : خلف الستارة لا شيء يمكن رؤيته ، وما دام لا شيء وراءها ، بات من الأهمية في كل حين وصف الستارة نفسها الانكباب على وصف الستارة أو الدعامة . والاعتراض بوجود عبارات مختفية ، مجرد اقرار واعتراف بأن ثمة متكلمين ومصغين يتغيرون بحسب الأنظمة أو الشروط . إلا أن متكلمين ومصغين متغيران من متغيرات العبارة ، يتعلقان أشد التعلق بشروط تحدد العبارة ذاتها من حيث هي دالة . وقصارى القول ، لا تغدو العبارات ممكنة القراءة والقول ، الا في ارتباط بالشروط التي تسمح لها بأن تكون كذلك ، والتي تشكل انخراطها الوحيد في « منظومة عبارات » (لاحظنا أنه لا وجود لانخراطين أحدهما بائن والثاني خفي) . الانخراط الوحيد أو شكل التعبير ، يكون من صنع العبارة وشروطها ، أي الدعامة أو الستارة . هو ذا ميل فوكو لمسرح العبارات ، أو لنحت ما هو قابل للتعبير ، أي « الأثريات » وليس « الوثائق » .

ما الشرط الأعم للعبارات أو التشكيلات الخطابية ؟ يكتسي جواب فوكو أهمية قصوى من حيث أنه يقصي الذات ، سلفاً ، من عملية التعبير . الذات متغير ، أو هي ، على الأصح ، مجموع متغيرات العبارة . أنها دالة مشتقة من الدالة الأصلية ، أو من العبارة ذاتها . نعثر على تحليل لهذه الدالة ـ الذات في كتاب « حفريات المعرفة » : الذات موضع أو مكان يتغير تبعاً لنوعية العبارة وعتبتها ، و« المؤلف » ذاته ، ليس سوى موقع من تلك المواقع الممكنة بالنسبة لبعض الحالات . بل من الممكن أن يكون لنفس العبارة الواحدة عدة مواقع . الى حد أن ما هو أولي وأصلي ، كلام مبهم للمجهول ، صوت بدون اسم ، غفل الهوية ، تجد فيه أي ذات كيفما كانت موقعها : « همس الخطاب الكبير المتواصل » . وقد تحدث فوكو ، في مناسبات عديدة ، عن هذا الهمس الذي ود لو يتسلل اليه خلسة وأن يجد لنفسه موقعاً

(6) حول « تحرير » الحمقى من طرف توك Tuke وبينل Pinel ، راجع « تاريخ الحمق » ، خصوصاً مسألة « نشأة الملجأ » : يتعلق الأمر باخضاع الحمقى لـ« نظرة » و« حكم » دائمين (رؤية وعبارة) . وفيما يخص أخذ العقوبات الصادرة في القرن الثامن عشر بظروف التخفيف واتسامها بالسمة الانسانية المتسامحة ، راجع : **الحراسة والعقاب** « العقوبة «المعممة» . وحول الاتجاه نحو الغاء عقوبة الاعدام ، راجع : **ارادة المعرفة** ، ص 181 ، يتعلق الأمر بتكييف العقوبة بسلطة لم تعد ترغب في أن تكون صاحبة القول الفصل في الموت ، بل فقط في « تسيير الحياة ومراقبتها » .

فيه[7]. يعارض فوكو ثلاث كيفيات في اسناد اللغة والبحث لها عن بداية ومصدر : اما في الأشخاص ، حتى ولو كانوا ضمائر لسانية أو أدوات وصل (هوس الاسناد الى الضمائر في اللغة ، اسناد الكلام الى « ضمير المتكلم » الذي لن يلبث فوكو بمعارضته مؤكداً على أسبقية ضمير الغائب من حيث هو بناء للمبهم واللامعلوم) ، أو في الدال كتنظيم أو انتظام جواني أو اتجاه أصلي تحيل اليه اللغة (البنيوية اللسانية ، « الكلام كبناء للمجهول » والذي يعارضه فوكو بالتأكيد على أولية المتن أو مجموع معين من العبارات المحددة) . أو في تجربة أصلية أو تواطؤ بيننا وبين العالم يشكلان الأساس الذي يفسح لنا امكانية الحديث عنه ، ويجعلان من المرئي قاعدة ما يعبر عنه (الفينومينولوجيا ، « العالم يتكلم » كما لو كانت الأشياء المرئية تهمس لنا سلفاً بمعنى ليس على لغتنا الا أن تكشفه وتوقظه ، أو كما لو أن اللغة تستند الى صمت معبر ، صمت ما انفك فوكو ، يعارضه رافعاً في وجهه شعار اختلاف جذري أو في الماهية ، بين الرؤية والكلام[8]. تحضر اللغة كاملة أو لا تحضر اطلاقاً . فما عسى أن يكون شرط العبارة اذن ؟ انه « وجود اللغة » ، « وجودها المادي » أو ماديتها ، أي البعد الذي يقدمها لنا كلغة أو تحضر فيه كلغة ، والذي لا يختلط بأي اتجاه من الاتجاهات التي تحيل عليها اللغة فنحن مضطرون الى « أن نضرب صفحاً عن قدرة اللغة على تعيين الأشياء وتسميتها واظهارها ، وعن كونها معقل المعنى والحقيقة ، تتخلف عن اللحظة التي تحدد وجودها الفريد والمتميز والمحصور ، أي لحظة ارتباط الدال بالمدلول»[9]. لكن ما الذي يمنح بالذات ، هنا ، معنى ملموساً لأطروحة فوكو تلك . ما الذي يعصمها من السقوط في ابهام وغموض الاتجاه الفينومينولوجي أو اللساني ، ما الذي يبيح لها البحث عن وجود مزيد ومتميز ومحصور ؟ يقترب موقف فوكو ، هذا ، من موقف « النزعة التوزيعية » Distributionalisme وينطلق باستمرار ، تبعاً لوجود « الحفريات » ، من متن محدد ليس لا متناهياً ، رغم تنوعه ، متن يتكون

---

(7) حول مسألة الذات في العبارة ، أنظر : **حفريات المعرفة**، ، ص121 – 126. وعن الهمس الاكبر، انظر، **نظام الخطاب**، المطلع . وخاتمة مقال : Qu'est – ce un auteur?

(8) أنظر بسط هذه الأفكار المحورية الثلاث في : **نظام الخطاب**، ص 48 – 51.

(9) **حفريات المعرفة** ، ص 145 – 148: حيث النص الأساسي الذي يتعرض لمسألة « وجود اللغة». كما يتعرض لها كذلك كتاب « **الكلمات والأشياء** » في خاتمته (حول مسألة مادية اللغة، انظر ص 316 – 318, 395 – 397. وقبل ذلك ، ص 57 – 59).

من كلام ونصوص وجمل وقضايا ، يطرحها عصر معين ، ويسعى فوكو من جانبه الى اخراج « انتظاماتها » ، العبارية الى واضحة النهار . وعليه ، فان الشـرط ذاته شـرط تـاريخي ، القبلي تاريخي : والهمس الكبير ، أو بعبارة أصح ، ماديـة اللغـة ، أو « وجودها » يتغير من تشكيلة تاريخية الى أخرى ، ومـع كونـه غفل الاسم ومجهـول الهـوية ، فـان هذا لا يجعله غفـل الفرديـة ومجهولهـا ، بلغ « من الابهام واللغـزيـة والعرضية » حداً يصبح من المتعذر معه عزله عن هذا النمط أو ذاك وبتره منه . فلكل عصر طريقته في جمع اللغة تبعاً لمتونها . واذا كانت مادية اللغة قد طغت على العصر الكـلاسيكي ، وبرزت بكـاملهـا ، في التمثيـل الـذي حـاولت ، مثـلاً ، أن تـرسم خطوطه ، فانها ، عوض ذلك ، تحولت في القرن التاسع عشر ، فجأة عن الوظائف التمثيلية ، في اتجاه فك وحدتها ، لكن وفي الوقت ذاته ، في اتجاه العثور عليها من جديد خارج تلك الوظائف ، أي في نمط مختلف ، في الأدب كوظيفة جديدة («كان فيها الانسان صورة بين لونين من مـادية اللغـة » . .)[10]. وعليه ، لا تجـد الكينونـة التاريخية اللغة وحدتها وتجمعها على الاطـلاق في جوانيـة وعي مؤسس ، أصلي أو وسيط فقط ، بل تجدها في شكل برانية تتبعثر على صعيده عبارات المتن وتتناثر ، ان أرادت أن تبرز . يتعلق الأمر بوحدة توزيعية . « وليس قبلي الوضعيات مجرد منظومة تبعثر زماني ، بل هو ذاته مجموع قابل للتغير »[11].

ينسحب كل ما ذكر اللحظة عن العبارة وشرطها ، على الرؤية بدورها ، فرغم أن الرؤى لا يحجبها هي الأخـرى شيء ما عن الأنـظار ، الا أنها لا تـرى مع ذلـك مباشرة وعلى الفور ، لا تعرض نفسها تواً وفي الحال للرؤية . بـل تظـــل غير قـابلة للرؤية طالما وقفنا عند حدود الموضوعات والأشياء أو الكيفيات المحسوسة ولم نصعد نحو الشرط الـذي يسمح بهـا . واذا كانت الأشيـاء تنغلق على نفسها ، فـان الرؤى تنمحي وتتلاشى أو تختلط وتتشوش ، الى حد أن ما كان يعتبر ، بالنسبة لعصر ما ، في عداد « البداهات » ، يصبح ، بالنسبة لعصر آخر ، متعـذراً رؤيته : فحينمـا كان

---

(10) الكلمات والأشياء ، ص 313 – 318 (حول وظيفة الأدب الحديث كتجمع اللغة ، راجع ، الكلمـات والأشياء ، ص 59 ,313. و'':

M.Foucault. «La vie des hommes infâmes» in les cahiers du chemin, 1977, P.28 – 29.

(11) حفريات المعرفة ، ص 168.

العصر الكلاسيكي يحشر ، في نفس المكان الواحد ، الحمقى والمشردين والعاطلين » وهو ما لم يعد بالنسبة لنا سوى حساسية غير متميزة ، كان يمثل بالنسبة لانسان ذلك العصر ، ادراكاً واضحاً متميزاً . وليس الشرط الذي ترتبط به الرؤية ، هو الكيفية التي ترى بها ذات ما من الذوات : ذلك أن الذات التي ترى ، هي نفسها محط رؤية ، دالة مشتقة من الرؤية (كمكان الملك في التمثيل الكلاسيكي ، أو مكان الملاحظ ، أياً كان ، في نظام السجون) . فهل من حاجة اذن الى التماس قيم خيالية واعتبارها المسؤولة عن توجيه الادراك ، أو اللجوء الى نظام تآلف الكيفيات الحسية والادعاء أنه هو الذي ينشىء « موضوعات الادراك » ؟ قد تكون الصورة الخيالية ، أو الصفة النوعية الديناميكيتين ، تمثلان شرط المرئي ، وفوكو يعبر عن أفكاره في كتاب « **تاريخ الحمق** » ، على طريقة « بشلار » احياناً[12]. لكنه ما يلبث أن يفترق عنه مبلوراً حلاً مغايراً . فاذا كانت الأساليب المعمارية ، مثلاً ، رؤى ، ومحط رؤية ، فمرد ذلك أنها ليست مجرد أشكال بناء أقيمت من الحجر ، تترتب فيها الأشياء وتنتظم الصفات على نحو معين ، بل انها بالعكس ، أشكال بصرية تتوزع فيها الأنوار والظلال والألوان الشفافة والداكنة ، كما تتوزع فيها المرئيات وغير المرئيات وما شابه ذلك . وفي صفحات شهيرة ، يقوم فوكو ، في كتاب « الكلمات والأشياء » بتحليل لوحة « بلاسكيث» Velasquez « الوصيفات » ، كنظام ضياء ، يدشن فضاء التمثيل الكلاسيكي ويوزع فيه الرؤى والرائين ، انعكاسات الظلال ولمعانها ، بما في ذلك مكان الملك الذي لا يمكن أن يهتدي اليه الا على أنه خارج اللوحة (ألا يتعلق الأمر هنا بنظام آخر مخالف أتم المخالفة لنظام الضياء الوارد وصفه في المخطوط الذي ألفه « ماني » Manet مع استعمال آخر للمرآة وتوزيع مغاير للانعكاسات؟) أما في كتاب « الحراسة والعقاب » ، فيصف هندسة بناء السجن ، نظامه المنكشف الداخل ، كشكل رؤية يغمر بنوره الحجرات الانفرادية الموجودة على أطرافه ، تاركاً البرج المركزي غارقاً في عتمته ، موزعاً السجناء بصورة تجعل الملاحظ يدرك الكل بنظرة واحدة ولا يدرك هو . ومثلما أن العبارات لا تنفصل عن أنظمتها ، كذلك الرؤى لا تنفصل عن الآلات ،لا لأن أية آلة ، هي آلة منظورة ، بل لأن مجموعة من الأعضاء

---

(12) أنظر على الخصوص ، تاريخ الحمق ، الفصل الذي عنوانه « فنون الحمق » ، حيث ورد ذكر « القوانين نصف الادراكية ونصف الخيالية لعالم كيفي » .

والـوظائف هي التي تـرى شيئاً مـا من الأشياء وتخـرجـه الى واضحـة النهـار («آلـة السجن » أو آلات « روسيل ») ، بل سبق وأن قدم كتاب « ريمـون روسيل » صيغـة أعم لـذلك : ضـوء أول يصنع الأشيـاء ويظهـر المرئيـات كبريق ولمعـان ، « كضوء ثان »[13]. وهذا مـا يبرر لنـا لمـا كان العنـوان الفرعي لكتـاب « ميلاد العيـادة » هو ، « حفريات النظرة »، ذلك أن كل تشكيلة طبية تاريخية ، كانت تضبط الضوء بـالقدر الذي تراه مناسباً ، وتعمل على انشاء فضـاء رؤية للمـرض ، تنعكس فيه الأعـراض وتلمع تارة كعيادة ، حيث تنبسط علامات الامراض وأمراضها انبساطاً ثنـائي البعد ، وتارة كتشريح مرضي ، تنثني فيه تلك العلامات والامارات ثانية وفق اتجاه ثالث يمنح العين من جديد امكانية ادراك العمق ، كما يعطي للمرض حجمه الحقيقي (المرض « كتشريح » للجثث الحية) .

ثمة اذن «وجـود» للضوء ، مـادية الضـوء ، أو الماديـة الضوء ، وهي شبيهـة بمادية اللغة . كلاهـما مطلق ، لكنه ، ورغم ذلك، تاريخي ، ما دام لا ينفصـل عن الكيفية التي تشده الى تشكيلة ما ، أو متن معين . أحدهما يجعل المرئيات مرئية أو مدركة ، مثلما يجعل الثاني من العبارات المعبر عنها ، مقولة أو مقـروءة . بحيث أن المرئيات ليست أفعالاً لذات ترى ولا معطيات احساس بصري (ينتقد فوكو العنـوان الفرعي « حفريات النظرة »). وكما أن المرئي لا يرتد الى شيء ما من الاشياء أو الى صفة محسوسين ، مادية الضوء لا ترتدهي الاخرى الى وسط فيزيائي: وفوكو هنا أقرب الى « غوته » منه الى « نيوتن » ، مادية الضوء ، شرط لا يقبل القسمة اطلاقاً ، شرط قبلي يقدر وحده على ارجاع الرؤى الى الرؤية وكذا الى الحواس الأخرى ، كل مرة ، بحسب تركيبات هي ذاتها مرئية : فالمحسوس ، مثلاً ، كيفية يخفي بها المرئي مرئياً آخر . وما قد اكتشفه كتاب « ميلاد العيادة » ، كان « نـظرة مطلقـة » « رؤية كـامنة » « رؤية خارج النظرة »، تحيط بكل التجارب الادراكية ، ولا تستـدعي النظر دون أن تستدعي سائر الحقول الأخرى أيضاً ، كالسمع واللمس[14]. لا تتحدد الرؤى بالنظر ،

---

(13) ريمون روسيل ، ص 140.

(14) ميلاد العيادة ، («وحينما كان كـورفيزار Corvisart ينصت الى دقـات قلب لا يعمل جيـداً ، ولينيـك Laënnec يصغي الى صوت حاد مخيف ، فانهما يريان تضخماً وانصباباً ، بنظرة تستبد خفية بـسمعهما وتحكم تسييره ») .

بل هي مركبات ألوان من الفعل والانفعال ، ألوان من الفعل ورد الفعل ، مركبات متعددة الحواس ، تظهر الى النور . وكما جاء في احدى رسائل « ماغريت » Magritte الى فوكو : ان ما يرى ويمكن أن يوصف وصفاً جلياً واضحاً ، هو التفكير .
هل من حاجة إذن تدعو الى تقريب هذا الضوء الأولي الذي قال به فوكو من ذلك الضوء Lichtung الذي قال به « هيدغر» و« ميرلوبونتي » ، الضوء المنطلق المنفتح الذي لا يخاطب النظرة . الا بكيفية ثانوية ؟ مع فارقين : أولهما أن المادية ـ الضوء ، لا تنفصل ، في رأي فوكو ، عن هذا النمط أو ذاك ، إذ مع أنها قبلية ، إلا أنها تاريخية وابستمولوجية بدل أن تكون فينومينولوجية ، ثانيهما ، انها ليست مادية منفتحة على الكلام ولا على النظرة ، ما دام الكلام ، من حيث هو عبارة ، يجد شرط انفتاح آخر مختلف ، في مادية اللغة وأنماطها التاريخية . وما نستطيع استخلاصه ، هو أن أي تشكيلة تاريخية ترى وتُري كل ما بوسعها أن تراه وتريه ، تبعاً لشروطها للرؤية ، كما أنها تقول كل ما بوسعها قوله تبعاً لشروط تعبيرها . ليس ثمة على الاطلاق سر ، رغم أن لا شيء يعطي كاملاً وبرمته على الفور للرؤية وللقراءة . وساء تعلق الأمر بشروط الرؤية أو شروط العبارة ، فانها جميعاً شروط لا تجد وحدتها في جوانية وعي أو ذات ، كما لا ترتد الى وحدة شعور مطابق أي الى ذاتية : بل هي شروط خارجية برانية تتبعثر على صعيدها العبارات والرؤى وتتناثر . فاللغة « تشتمل » على الكلمات والجمل والقضايا ، لكنها لا تشتمل على العبارات التي تفترق بمسافات يتعذر تقليصها . تتبعثر العبارات بحسب عتبتها وبحسب صفتها . كذلك الأمر بالنسبة للضوء الذي يشتمل على الموضوعات ولا يشتمل على الرؤى . ومن الخطأ ، كما أسلفنا ، الاعتقاد أن ما يسترعي اهتمام فوكو هو أمكنة الحجر والحجز في حد ذاتها : فالمستشفى والسجن ، أولا وقبل كل شيء ، أمكنة رؤية ، أمكنة داخل شكل خارجية برانية ، وتحيل الى وظيفة عارضة ، اذا ما ترك جانباً كونها أمكنة حبس . . .

لا يتعلق الأمر بتاريخ للعقليات ولا حتى تاريخ للسلوك والسير. فالكلام والرؤية ، او العبارات والرؤى ، على الأصح ، عناصر خالصة وشروط قبلية ضمنها تجد كل الأفكار صيغتها في لحظة معينة ، كما تنكشف السير وألوان السلوك . ويشكل هذا البحث عن الشروط نوعاً من الكنطية الجديدة الخاصة بفوكو . لكن ثمة فروقاً جوهرية تفصل هذا الأخير عن كنط : إذ الشروط بالنسبة له ، شروط التجربة

الواقعية ، وليست شروط امكان ، (فـالعبارات ، تفتـرض على سبيل المثـال ، متناً محدداً)، توجد بجانب « المـوضوع ، وفي جـانب التشكيلة التاريخيـة ، وليس في جـانب ذات كلية (القبلي ذاتـه ، تاريخي) ، وسـواء كان هـذا أو ذاك ، نحن أمام أشكال خارجية برانية[15]. واذا تحدثنا عن كنطية جديـدة ، فلأن الـرؤى تشكل مـع شروطها قابلية تلقي وتأثر ، ولأن العبارات تشكل مع شروطها ، عفوية . عفوية اللغة وقابلية التأثر بالرؤية . لم يكن يكفي إذن مماثلة المتأثر المتلقي بالمنفعل المطاوع ، والعفوي التلقائي بالفاعل النشيط . لا يعني المتلقي المنفعل المطاوع ، ما دام ثمـة من الفعـل بقدر مـا هنالـك من الانفعال في مـا تريـه الرؤيـة . ولا يعني العفـوي ، الفاعل ، بل يعني فاعلية « غير » أو آخر تنصب على الشكل القابل للتأثر . وهو نفس ما نجده في الفكر الكنطي حيث أن عفوية الأنا أفكار تمارس ذاتها على كائنات متلقية تتمثلها (أي تتمثل تلك العفوية) بالضرورة كغيـر[16]. أما لـدى فوكـو ، فان عفـوية الفهم أو الكوجيطو ، تنسحب تاركة المجال لعفوية اللغة « أو « وجود اللغة ») بينما قابلية تأثر الحدس ، تنسحب تاركة المكان للرؤية (شكل جديد للمكان ـ الزمان) . نستطيع عندئذ ادراك لم كانت ثمة أوليـة للعبارة على المـرئي : وهذا مـا يبرر كـون « حفريات المعرفة » أولى الدور المحدد والحاسم للعبارات كتشكيلات خطابية . أما الرؤى ، فهي لا تقل من جهتها استقلالية ، ما دامت تحيل الى شكل يتعين ويتحدد ، أي ما لا يمكن رده الى شكل التحديد والتعيين . وقد كانت تلك هي القطيعة الكبرى بين كنط وديكـارت : شكل التحـديد (أنـا أفكر)، لا يستنـد الى ما لا يتحـدد (أنا موجود) بل الى شكل متحدد خالص (المكان ـ الزمان) ، أي أن ألانا أفكر يعي ذاته في المكـان والزمـان . والمشكل هنـا هو كيف يتـوافق الشكلان أو الشـرطان اللذان يختلفان فيما بينهما اختلافاً جوهرياً . وهو مشكل نعثر عليه محـولاً ، لدى فـوكو : حيث يتخذ صيغة : العلاقة بين نمطي « وجود » الرؤية واللغة ، العلاقـة بين الرؤى المتحددة والعبارات المحددة.

ومنذ البداية ، نجد أن من بين الأطروحات الأساسية التي اقترحها فوكو : القول

---

(15) الكلمات والأشياء ، ص 257، حفريات المعرفة ، ص 167 (وحول « شكل البرانية » ، ص 158 – 161).

(16) وهذا ما أسمته مقدمة الطبعة الأولى لكتاب نقد العقل الخالص « مفارقة الاحساس الباطني » خصوصاً في الصفحة : 136. نشرة المطابع الجامعية الفرنسية .

بوجود اختلاف في الطبيعة بين شكل المضمون وشكل التعبير ، بين ما يرى وما يعبر عنه (رغم أنهما مرتبطان أوثق ارتباط وما ينفكان عن الاندماج والتداخل من أجل تركيب أي بناء من الأبنية وأية معرفة). لعل هذا هو الجانب الأول الذي يلتقي فيه فوكو بـ« بلانشو » Blanchot : « ليس الكلام رؤية » . غير أنه في الوقت الذي ألح فيه « بلانشو » على أولية الكلام كمحدد ، تمسك فوكو ، رغم المظاهر الخداعة ، بنوعية الرؤية ، واستقلالية المرئي كمتحدد[17]. ولا يوجد بينهما تشاكل أو تطابق رغم ارتباطهما المتبادل ، ورغم أولية العبارة . بل حتى « **حفريات المعرفة** »، الذي يلح على هذه الأولية ، سيذهب الى انكار أن تكون ثمة علاقة بينهما ، علاقة علة بمعلول أو رمز بمرموز ، واذا كان ثمة موضوع للعبارة ، فانه موضوع خطابي خاص بها ، ولا يماثل بأي حال من الأحوال ، الموضوع المرئي . نستطيع ، بطبيعة الحال ، أن نحلم دائماً بوجود ذلك التشاكل : فيتخذ الحلم صورة ابستمولوجية ، كأن يقول الطب العيادي بوجود تماثل بنيوي بين « ما يرى وما يعبر عنه » ، بين العرض والأمارة ، بين المشهد والكلام ، أو يتخذ شكلاً جمالياً ، كأن يضفي الخطاط ذات الشكل الواحد على النص والرسم والكلمات والمادة التشكيلية والعبارة والصورة الخيالية[18]. وفي رده على « ماغريت » ، أكد أن « شريطاً رفيعاً ، عديم اللون ومحايداً » ينشأ دوماً ليفصل بين النص والصورة ، رسم الغليون والعبارة « هذا غليون » ، الى حد أن العبارة تغدو « هذا ليس غليوناً » ما دام لا الرسم ولا العبارة ولا اسم الاشارة هذا»، يعتبرون غليوناً : « والرسم والغليون والنص الذي عليه أن يدل عليها ، كل أولئك لا يجدون مكاناً يتلاقون فيه ، لا على اللوحة السوداء ولا فوقها » .

---

(17) أنظر بلانشو : **L'entretien infini, Gallimard,**

«ليس الكلام رؤية » هو النص الحاسم بالنسبة لفكرة بلانشو المحورية والتي نجدها حاضرة في كل مؤلفاته ، وما لا شك فيه أنه نص يولي مكانة خاصة « للرؤية » أو للصورة البصرية (ص 42، أنظر أيضاً : **L'espace Littérataire, 266 – 277**) لكنها مكانة تظل مبهمة وملتبسة كما يقول بلانشو نفسه ، لأنه يؤكد أن الكلام ليس رؤية دون أن يؤكد بالمقابل أن الرؤية ليست كلاماً . ويرجع السبب في ذلك الى أنه ظل ديكارتياً بطريقة ما : فهو لا يقيم علاقة (أو لا علاقة) الا بين التحديد واللامتحدد الخالص . أما فوكو فهو أكثر كنطية : العلاقة أو اللاعلاقة بالنسبة له ، هي بين شكلين ، التحديد والمتحدد.

(18) حول حلم « التشاكل » الذي يخترق العيادة ، أنظر ميلاد العيادة ، ص 108 – 117، وحول الخطاط. أنظر : **Ceci n'est pas une pipe.**

إن الأمر يتعلق بـ« لا علاقة »[19]. ولعل في هذا ، الترجمة الهزلية لمسعى بلوره فوكو في دراساته للتاريخ . ذلك أن كتاب « **تاريخ الحمق** » أكد على ما يلي : لا يجد المستشفى كشكل مادي ، أو كمكان لرؤية الحمق أساسه على الاطلاق في الطب ، بل في الشرطة ، فالطب ، من حيث هو شكل تعبير وعامل انجاب عبارات يكون محورها « الجنون » ، ينشر نظامه الخطابي وأعراضه وعلاجاته خارج المستشفى . وفي تعليقه على فوكو ، سيذهب بلانشو الى القول : اختلاف ، تصادم الجنون والحمق . وسيتناول كتاب « **الحراسة والعقاب** » من جديد فكرة مماثلة ، بالتعميق والدرس ، حيث سيؤكد على أن السجن كرؤية للجريمة لا يتفرع من القانون الجنائي كشكل تعبير ، ولا يتولد عنه ، بل يجد أساسه في أفق مغاير ومختلف أتم الاختلاف ، أفق « تأدبي » وليس قانونياً ، كما أن القانون الجنائي ينجب ، من جهته ، عبارات « الجنوح » في استقلال عن السجن وبمعزل عنه ، كما لو كان منقاداً باستمرار ، وبكيفية ما الى أن يقول ، ليس هذا سجناً . . . ليس لشكلي التعبير والرؤية ، ذات التشكيل ولا ذات التكوين أو النسب بالمعنى الحفري للفظ تكوينGestaltung . لكن بينهما مع ذلك ، التقاء وتلاق ، ولو كان ذلك تحت غطاء ومراوغات وحيل : فأنما السجن يستعيض عن الجانح الجنائي بشخص آخر ، وخلال الاستعاضة ، ينجب الجنوح أو يعيد انتاجه ، في الوقت ذاته الذي ينتج فيه القانون السجناء ويعيد انتاجهم[20]. وبينهما تنشأ تحالفات في هذا البناء أو ذاك ، ثم تنحل ، تحدث التقاءات ثم تنفك . كيف نبرر كون اللاعلاقة لدى فوكو وكذا « بلانشو » هي أيضاً علاقة ، بل علاقة أعمق ؟ يمكن القول في الواقع بوجود « ألاعيب الحقيقة » أو « طرق الحقيقة » على الأصح . إذ لا تنفصل الحقيقة عن طرق بنائها وانشائها (سيعقد كتاب « **الحراسة والعقاب** » مقارنة بين « البحث التمهيدي » كنموذج لعلوم الطبيعة في نهاية العصر الوسيط ، و« الاستقصاء التأديبي » كنموذج للعلوم الانسانية

---

(19) **M. Foucault, Ceci n'est pas une pipe,** Fata Morgana, 1973, p.19 – 25.

(20) تضم بعض نصوص « **الحراسة والعقاب** » الى جانب السجن . لكن ثمة في الحقيقة نوعين من الجنوح ، « الجنوح اللاشرعي » والذي يحيل الى العبارات ، و« الجنوح ـ الموضوع » الذي يحيل الى السجن . ما يهم ، هو أن « **الحراسة والعقاب** » يقيم تمايزاً واختلافاً بين تطور القانون الجنائي وبين ظهور السجن ، في القرن الثامن عشر ، بنفس القوة والاصرار الذي يقيم به كتاب « **تاريخ الحمق** » تمايزاً واختلافاً جذرياً بين ظهور ملجأ الحمقى وبين حالة الطب في القرن السابع عشر .

في نهاية القرن الثامن عشر) . لكن ما قوام تلك الطريقة ؟ لعلها تكمن بصفة عامة ، في مسلسل وطريقة برغماتية . المسلسل هو مسلسل الرؤية ، يطرح على المعرفة العديد من الأسئلة : ماذا يرى في هذا البناء أو في تلك العتبة ؟ لا يتساءل عن الموضوعات التي تتخذ منطلقاً أو عن الأوصاف التي تتبع ، وعن الظروف التي تحدد الموقع (المتن المحسوس) فحسب ، بل وعن الكيفية التي تستخلص بها رؤى من تلك الموضوعات وتلك الأوصاف والأشياء ؟ كيف تلمع وترسل بريقها وفي أي ضوء ، كيف يتسلط الضوء على البناء ؟ ما هي كذلك مواقع الذات باعتبارها متغيرات تلك الرؤى ؟ من يشغلها ، من يمارس الرؤية ؟ غير أن ثمة أيضاً طرق اللغة ، والتي تختلف من بناء الى آخر مثلما تختلف بين مؤلفين عربيين (كاختلاف « طريقة » روسيل عن طريقة « بريسي » Brisset، مثلاً)[21]. ما مجموع الكلمات والجمل والقضايا ؟ ما السبيل الى أن تستخرج منه « العبارات » التي ينطوي عليها ؟ في أي نظام لغوي تتبعثر وتنتشر ، وباتجاه أية أصناف أو عتبات ؟ من يتكلم ، أي من هي ذوات العبارة ، والتي هي ذوات متغيرة ، تأتي لتشغل حيزاً ؟ مجمل القول ، ثمة طرق عبارية وعمليات آلية . ها هنا عدد لا حصر له من الأسئلة التي تعكس في كل حين مشكلة الحقيقة . وسوف يقوم كتاب « استخدام اللذات » باستخلاص نتائج سائر الكتب السابقة ، حينما سيؤكد أن الحقيقي لا يعطي للمعرفة الا عبر عملية « اضفاء الصفة الاشكالية » ، وهي عملية لا تتم الا انطلاقاً من « ممارسات » ، ممارسات الرؤية وممارسات القول[22]. وتعد هذه الممارسات ، والمتمثلة في المسلسل والطريقة ، طرق الحقيقي ، « تاريخاً للحقيقة » . غير أنه لا بد من أن تنعقد بين شقي الحقيقي ، وبصورة اشكالية ، علاقة ، في اللحظة ذاتها التي يقصي فيها مشكل الحقيقة توافقهما وتطابقهما . وحتى نضرب لذلك مثالاً موجزاً من الطب العقلي ، نقول : هل هو ذات الرجل ذاك الذي نراه في الملجأ وننعته بأنه أحمق ؟ إذ من السهل ، مثلاً ، « رؤية » الحمق الهذياني أو جنون العظمة لدى الرئيس « شريبر » ، وادخاله تبعاً لذلك الى الملجأ ، لكننا سنضطر الى اخراجه منه ثانية ،

---

(21) M.FOUCAULT, **Préface à la grammaire logique de J.Pierre Brisset**. Tchou 1970 xvi.

مقارنة « الطرق الثلاثة » « بريسي » ، « روسيل » ود لفسون » .

(22) استخدام اللذات ، ص 17.

لاستحالة « النطق » بحمقه . والعكس ، عندما يتعلق الأمر بمصاب بالمس الأحادي : يسهل النطق بحمقه ، بينما تصعب رؤيته في الوقت المرغوب وحجزه في الوقت المطلوب[23]. ويحتضن ملجأ الحمقى عدداً كبيراً من الأشخاص الذين لا حاجة تدعو الى وجودهم به ، بينما ثمة عدد آخر من الأشخاص يوجدون خارجه رغم أن الحاجة تدعو في الحقيقة الى أن يكونوا بداخله . والطب العقلي في القرن التاسع عشر ، قام على هذه الملاحظة التي « تضفي صفة الاشكال » على الحمق ، بدلاً من أن تتصوره كمعطى جاهز وواحد محدد .

ليست الحقيقة تطابقاً أو شكلاً مشتركاً ولا حتى توافقاً بين الشكلين . فبين الكلام والرؤية ،أو ما يرى وما يعبر عنه ، ثمة انفصال : « وما يرى لا يجد موقعه اطلاقاً فيما يقال » ، والعكس بالعكس ، وثمة سبب مضاعف يمنع وجود اتصال بينهما : للعبارة موضوعها الملازم الخاص بها ، وهي لا تعدو قضية تحيل الى ظرف ما أو موضوع بعينه ، مثلما يقضي بذلك المنطق ، لكن المرئي ليس معنى أبكم صامتاً ، أو مدلولاً بالقوة يخرج الى الفعل متجسداً في اللغة ، مثلما تدعي ذلك الفينومينولوجيا . نظام العبارة ، السمعي البصري منفصل . وليس من الغريب في شيء ، أن نعثر أيضاً على الأمثلة الأكثر وضوحاً لانفصال الرؤية والكلام ، في السينما . إذ لدى « سطروب » Straub و« سيبربرغ»Syberberg و«مارغريت دوراس» Marguerite Duras تسير الأصوات في جانب ، « كقصة » لم تدو في مكان بعينه ، بينما يسير المرئي في جانب آخر ، كمكان فارغ لا تجري به قصة[24]. ففي India

(23) راجع : Moi Pierre Rivière... Gallimard – Julliard. وهو كتاب جماعي ساهم فيه فوكو. مسألة المس الاحادي الجنائي الذي يطرح مشكلاً بالنسبة للطب العقلي في القرن التاسع عشر.

(24) أنظر تعليقات ايشاغبور ، خصوصاً على ماغريت دوراس في : **D'une image à L'autre** وقد صدر في سلسلة Médiations، وتحليل بلانشو في كتاب L'amitie لـ«Détruire dit – elle». وقد اهتم فوكو كثير الاهتمام بفيلم René Allio حول كتاب فوكو «أنا بيير ريفيير . . » فقد كان ثمة مشكل يهم علاقة أفعال بيير بالنص الذي كتبه (أنظر ملاحظات فوكو : « لا يقوم النص برواية وسرد الأفعال ، بل ينسج بينها علاقات جد معقدة » ص266)، كان على الفيلم أن يجد حلاً ، بطريقته ، لهذا المشكل . ونجد بالفعل أن المخرج لم يكتف بخفض الصوت ، بل استعمل عدة وسائل لابراز التفاوت والانفصال الموجود بين المرئي والعبارة ، بين الصورة البصرية والصورة الصوتية (منذ المشهد الأول تطالعنا شجرة في البادية القاحلة ، لكننا نسمع أصوات وصيغ قاعة الجلسات) .

Song لماغريت دوراس ، تثير الأصوات وتوقظ حفلاً راقصاً قديماً لا يظهر البتة ، بينما تظهر الصورة البصرية حفلاً راقصاً آخر أبكم لا يتكلم ، دون أن يكون ثمة أي مشهد خاطف مقدم يربط الحفلين ويصل بينهما ، أو أي صوت قاطع يقوم بالربط الصوتي ، وقبل هذا ، نجد أن فيلم La femme de Gage كان عبارة عن تلازم أو تزامن فيلمين « فيلم الصورة وفيلم الأصوات » ، والفراغ وحده هو الذي يلعب دور « عامل ربط » ، أو نقطة اتصال ، وفجوة ، في الوقت ذاته . إذ بينهما دوماً وباستمرار ، قطيعة لا عقلية . غير أن هذا لا يعني مع ذلك غياب أي توافق ، إذ لا يتعلق الأمر بأية أصوات وأية صور . حقاً لا وجود لتسلسل يتجه من المرئي الى العبارة ، أو من هذه الأخيرة الى المرئي ، لكن ثمة ، مع ذلك عوداً مستمراً للتسلسل والاتصال ، رغم القطيعة اللاعقلية ورغم الفجوة . وبهذا المعنى ، يشكل المرئي والعبارة بناء ، لكنه بناء متصدع مليء بالفجوات ، يطبعه شرخ حفري مركزي (سطروب) . وطالما لبثنا عند حدود الأشياء والكلمات ، فاننا سنتوهم أننا نتكلم عما نراه ، ونرى ما نتكلم عنه ، وان الأمرين مرتبطان : ويعني هذا أننا نظل عند المستوى الاختباري ولا نتجاوزه بعد . لكننا بمجرد ما نتغلغل في الكلمات والأشياء ، نكتشف العبارات والرؤى ، فيرتفع الكلام والرؤية الى مستوى أعلى ، « قبلي » حتى أن كلاً منهما يبلغ حده الخاص به والذي يفصله عن الآخر ، مرئي لا سبيل اليه الا بالرؤية ، ومعبر لا سبيل اليه الا بالكلام . ومع هذا ، فان الحد الخاص الذي يفصل كلاهما ، يعد في الوقت ذاته الحد المشترك الذي يجمعهما والذي يتخذ وجهين غير متماثلين : كلام أعمى ورؤية صامته . وفوكو في هذا قريب من السينما المعاصرة .

كيف تكون اللاعلاقة علاقة اذن ؟ أو بعبارة أخرى ، هل يوجد تناقض ما ، بين تصريحي فوكو المتمثلين في تأكيده من جهة أنه رغم قولنا أن ما يرى لا يجد موقعه اطلاقاً فيما يقال ، ورغم ما نعمد اليه من اظهار ما نحن آخذون في قوله ، بواسطة صور واستعارات ومقارنات ، فان مكان تألقها ليس هو ذلك الذي تظهره العيون وتبين عنه ، بل ذلك الذي تحدده تتاليات المبنى النحوي « وتأكيده من جهة ثانية » أن من الواجب أن نسلم بوجود عراك وصراع حقيقتين ، أو على الأصح هجومات متبادلة وتراشق بوابل من السهام ، وحملات التقويض والهدم ، وطعن بالرماح ، علينا أن نقر بوجود معركة حامية الوطيس بين الصورة والنص» ، « سقوط الصور وسط الكلمات ،

بـريق كـلامي يجـوب الـرسـوم . . »، « شقـوق خـطاب تتخلل شكـل الأشيـاء » ، والعكس[25] وأرى ألا تناقض بين هاتين المجمـوعتين من النصوص . فـأولاها تنفي وجود تشاكل أو تماثل أو اشتراك في الشكل يجمع الرؤية بالكلام أو المرئي بما يعبر عنه . أما الثانية فتؤكد تداخل الشكلين في بعضهما البعض مثلما يلتقي الجمعان في معركة ويختلطان . والمغزى الحقيقي من ضرب المثل بالمعركة هنا ، هو نفي وجود أي تشـاكل . ذلـك أن الشكلين المتغايـرين ينطويـان على شرط ومشـروط ، الضوء والرؤية ، اللغة والعبارات ، لكن الشرط لا « يحتوي » المشـروط ، بل يعـرضه في فضـاء تناثـر وتفريق ، ويعـرض نفسه هـو ، كشكل خـارجية بـرانيـة . فبين المـرئي وشـرطه ، تنسـل العبارات اذن ، كمـا تنسل بين غليـوني « ماغـريت ». بين العبارة وشرطها تنساب الرؤى اذن كما هو الأمر لدى « روسيل » الذي لا يكشف عن الكلمات دون أن يظهر الأشياء (ولا يكشف عن الأشياء دون أن يظهر العبارة أيضـاً) . لقد حاولنا آنفاً أن نظهر أن شكل الرؤية ، « السجن » ينجب عبارات ثانوية توصل الى الجنوح ، مع احتمال أن تنجب العبارات الجنائية مرئيات ثانوية تعزز السجن . يضاف الى هذا أن العبارات والرؤى هي تتصارع في عراك متبادلتين القسر والاكراه أو تستوليان على بعضهما البعض ، مكونتين بذلك ، في كل مرة ، « الحقيقة » . من هنا قول فوكو : « الكلام والابانة في وقت واحد . . . . عراك مذهل»[26]. الكلام والـرؤية في الـوقت ذاته . . . رغم أنهما لا يتعلقان بذات الشيء ، ورغم أننا نتكلم لا عما نراه ، أو نرى ما لا نتكلم عنه . لكنهما معاً ، يكونان البناء ويتغيران ، في الوقت ذاته ، من بناء الى آخر (وان كان تغيراً لا تحكمه ذات القواعد) .

بيد أن هذه الاجابة (الصراع ، العراك ، المعركة ، الاشتبـاك والاختلاط) لم تشف الغليل بعد . فهي لا تأخذ بالاعتبار أولية العبارة . وهي أولية نابعة من عفويـة شرطها (اللغة) الذي يمنحها شكلاً محدداً . بينما لا يتوفر المرئي الا على شكل ما يقبل التحديد ، نظراً لشرطه المتمثل في قابلية التأثر (الضوء) . لذا فان من الممكن

---

(25) الكلمات والأشياء، ص 25. ليس هذا غليوناً، ص 30، 48، 50.

ويعرض هذا الكتاب الأخير ، مجموعتي النصوص ، مستغلاً أيا الى أقصى حد .

(26) ريمون روسيل، ص 147.

اعتبار أن التحديد يأتي دوماً من العبارة رغم أن الشكلين يختلفان فيما بينهما اختلافاً جوهرياً . وهذا ما جعل فوكو يؤكد على جانب طريف في أعمال « روسيل » الذي لا يتعلق الأمر لديه بمجرد كشف الأشياء قصد اكتشاف العبارات ، ولا حتى بكشف الكلمات قصد بلوغ الرؤى ، بل بغية انجاب العبارات واكثارها ، بموجب عفويتها ، بحيث تمارس على المرئي تأثيراً لا منتهياً[27]. واجمالاً ، ها هي ذي الاجابة الثانية عن مشكل العلاقة بين الشكلين : العبارات وحدها هي المحددة ، هي التي ترى ، رغم أنها ترى خلاف ما تقول . ولن نستغرب اذا لاحظنا أن المرئي في كتاب « حفريات المعرفة » ، لا يتحدد الا سلبياً ، كشيء لا خطابي ، خصوصاً وأن الخطابي تربطه به علاقات خطابية . فبين ما يرى وما يعبر عنه ، علينا أن نتصور جميع الصلات والمظاهر التالية : تغاير الشكلين ، اختلاف طبيعتهما ، عدم تطابقهما ، تبادل التأثير ، العراك والاشتباك ، الأولية المحددة التي يمارسها أحدهما على الآخر.

غير أن هذه الاجابة الثانية لا تشفي الغليل . فاذا كان التحديد لا متناهياً ، كيف لا يغدو المتحدد لا متناهياً ، حيث يتقمص شكلاً آخر غير شكل التحديد ؟ كيف لا يتوارى المرئي ، المحدد المطلق ، حينما تحدده العبارات للغاية ؟ كيف السبيل الى صد الموضوع عن الافلات ؟ أو ليست هذه النقطة ، في نهاية المطاف ، هي التي فشل فيها « روسيل » لا بمعنى الاخفاق ، بل بمعنى الجنوح ، جنوح السفن ؟ « تتخذ اللغة ها هنا شكل دائرة توجد داخل نفسها ، مخفية ما تعرضه للرؤية ، ومتوارية عن الأنظار ما تنوي عرضه عليها ، تمضي بسرعة مذهلة متجهة نحو غور لا تدركه الأبصار صعبة المثال أشياؤه ، تختفي فيه لهثاً عليها »[28]. لقد سبق أن مر « كنط » بمغامرة مماثلة : فاعلية الفهم وتلقائية ، لا تمارس تحديدها لقابلية الحدس للتأثر ، دون أن تواصل هذه الأخيرة معارضة شكلها الذي يتحدد للشكل الذي يحدد : وهذا ما اضطر

---

(27) لهذا السبب انتهى فوكو الى التمييز بين ثلاثة أنواع من الأعمال لدى روسيل : لا اعمال الآلة فقط ، حيث الرؤى تتلقى العبارات أو تبعثها (مثلما هو الأمر في La vue) . أو أعمال الطريقة ، حيث العبارات تثير رؤى وتحدثها (مثلما هو الشأن في Impressions d'Afrique) بل والعمل اللامتناهي (Nouvelles impressions d'Afrique) حيث تتكاثر العبارة وتنجب أقواساً داخل أقواس، مواصلة تحديد المرئي الى ما لا نهاية . أنظر ريمون . . . الفصل 7).

(28) ريمون روسيل ، ص 172.

كنط الى أن يلتمس الحل في مستوى ثالث خارج الشكلين ، مستوى غامض « مبهم » ، في الحقيقة ، بامكانه وحده اظهار توافقهما كحقيقة . وهذا المستوى هو الرسوم الخيالية ، ويطابق لفظ « غريب » ، مع فوكو ، ما كان كنط قد اعتبره سراً ضارباً في أعماق النفس ، وان كان ذلك بمعنى مغاير وضمن تقسيمات مغايرة . ومع ذلك ، تظهر مع فوكو ، الحاجة ماسة الى مستوى ثالث ، يعمل على التوفيق بين ما يتحدد وما يمارس التحديد ، بين ما يرى وما يعبر عنه ، بين قابلية تلقي الضوء وتلقائية اللغة ، مستوى ثالث يعمل فيما وراء الشكلين ، أو دونهما . وفي هذا الاتجاه كان فوكو يؤكد أن المشادة أو العراك ، يتطلبان مسافة عبرها يتبادل الخصمان « التهديد فيما بينهما والوعيد » ، ويقتضيان أن مكان عراكهما « لا يمكن الوقوف عليه » أو اثبات وجوده في محل ، مما يشهد على أن المتعاركين لا ينتميان لذات الفضاء الواحد ولا يرتبطان بنفس الشكل[29] . كما يذهب ، أثناء تحليله لـ« بول كلي « Paul Klee الى أن الصور المرئية ودلائل الكتابة تتحد وتأتلف ، لكن اتحادهما وائتلافهما يجري داخل بعد آخر مخالف لبعد شكل كلتيهما[30] . ها نحن أولاء ملزمون بالقفز داخل بعد آخر غير البناء وشكليه ، داخل بعد ثالث لا يندرج تحت أي واحد من الشكلين ، يطلعنا على التركيب المبني للشكلين ، وأولية كل منهما على الآخر . ما عسى أن يكون هذا البعد ، أو هذا المحور الجديد ؟ .

---

(29) M.Foucault, **Nietzche, la généalogie, l'histoire,** in «Hommage à J.Hyppolite», P.U.F., 1971, p.156.

(30) M.F,OUCAULT, **Ceci N'est pas une pipe,** p. 40 –42.

الاستراتيجيات أو ما وراء الأبنية
فكر الخارج : (السلطة)

ما السلطة ؟ يبدو تعريف فوكو لها بسيطاً جداً ، فهو يعتبرها علاقة قوى ، أو أن كل علاقة قوى هي ، على الأصح ، « علاقة سلطة » . لنشر بادىء الأمر الى أن السلطة لديه ، ليست شكلاً ، كشكل الدولة مثلاً ، وليست علاقة بين شكلين ، كالمعرفة . لنشر ، ثانياً ، الى أن القوة ليست ، على الاطلاق ، قوة مفردة ، بل أن من سماتها الجوهرية أنها ترتبط بقوى أخرى ، وإن كانت كل قوة هي أصلاً علاقة ، أي سلطة : ليس للقوة أي موضوع آخر ، أو ذات أخرى ، سوى القوة . ولا ينبغي اعتبار هذا التعريف على أنه يتضمن عودة الى القانون الطبيعي ، ذلك أن الحق يعد شكل تعبير ، بينما الطبيعة تعتبر شكل رؤية ، والعنف ملازم للقوة أو نتيجة تترتب عنها وليس عنصراً مكوناً لها . ان فوكو أقرب هنا الى « نيتشه » (والى ماركس أيضاً) ، الذي يرى أن علاقة القوى تتعدى العنف ولا تنحصر فيه أو تتحدد به . ذلك أن العنف ينصب على الأجساد والموضوعات أو على كائنات معينة يبيدها أو يبدل شكلها ، بينما القوة لا موضوع آخر لها سوى القوة ، قوى أخرى ، لا تدخل في علاقة مع كائن آخر ، بل مع قوى أخرى ، فهي « فعل في فعل أو في أفعال ممكنة أو واقعة ، مستقبلة أو حاضرة ، هي « مجموع أفعال في أفعال ممكنة » . بالمستطاع اذن ،

تصور قائمة ، مفتوحة بطبيعة الأمر ، بمتغيرات تعبر عن علاقة قوى أو سلطة ، تشكل أفعالاً في أفعال : كالتحريض والاثارة والحث ، أو التسهيل والتوعير ، والتوسيع والتضييق ، والزيادة أو النقص في الاحتمال[1]. تلك هي مقولات السلطة . وقد قدم كتاب « الحراسة والعقاب »، بهذا الصدد ، قائمة مفصلة أكثر ، بالقيم التي كانت تقوم عليها علاقة القوى في القرن الثامن عشر وهي : التوزيع في المكان (ويتمثل في الحجز والرقابة والصف والتصنيف. . .) الترتيب في الزمان (تقسيم الزمان الى أجزاء ، برمجة الفعل ، تفكيك الاشارة. .)، التركيب في المكان ـ الزمان (حاصل مجموع طرق تكوين قوة منتجة ، أعلى من مجرد جمع القوى البسيطة الداخلة في تكوينها »). . . وهذا ما جعل أطروحات فوكو الأساسية حول السلطة ، كما أسلفنا ، تنقسم الى ثلاثة أنواع : ليست القوة ، بالضرورة سلطة قامعة (لأنها « تحرض ، تحث أو تثير وتنتج »)، يجب البحث عن القوة من حيث هي قوة تمارس قبل أن تتملك وتتجسد (ما دامت لا تمتلك الا بشكل يتحدد، كما هو الشأن في الطبقة ، أو بشكل يحدد ، كما هو الحال في الدولة)، تبسط نفسها على الكل ، غالبين أو مغلوبين (ما دامت تخترق سائر القوى المتواجدة) . انه موقف نيتشوي عميق .

ان السؤال « ما السلطة ؟ أو ما مصدرها أو أصلها ؟ » قد لا يكون في محله ، بل ينبغي بالأحرى أن نتساءل عن الكيفية التي تتحقق بها أو كيف تمارس نفسها وتظهر الى الفعل ؟ وتظهر ممارسة السلطة للعيان كعلاقة بين قوتين ، وهي علاقة سجال وصراع وتدافع أو تأثير وتأثر ، ما دامت القوة تتحدد هي نفسها بقوتها على التأثير في قوى أخرى (تربطها بها علاقة) ، وبقابليتها للتأثر بقوى أخرى . فالتحريض والاثارة والانتاج ، (وسائر المفردات المشابهة) مؤثرات فاعلة ، أما التعرض للتحريض والحث والضرورة الانتاج ، ولانتاج الأثر « النافع » ، فهي مؤثرات استجابية . غير أن المقصود بهذا الوصف ، ليس أنها مجرد « رد فعل » أو « الضد المنفعل » أو « الوجه السلبي » للمؤثرات الفاعلة ، بل ، على الاصح ، « المقابل الذي لا سبيل الى اختزاله » ، خصوصاً اذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن القوة المتأثرة لا تفقد كلية القدرة

---

(1) **«Deux essais sur le sujet et le pouvoir»**, in Dreyfus et Rabinow, **Michel Foucault, un parcours philosophique**, Gallimard, 313.

على المقاومة[2]. فلكل قوة قدرة على التأثير في قوى (أخرى) ، وقابلية لأن تتأثر ، في الوقت ذاته (بقوى أخرى) ، بحيث أن كل قوة تتضمن علاقات سلطة ، فنكون أمام حقل قوى في علاقات دائماً فيما بينها ، يوزع القوى تبعاً لهذه العلاقات ولتنوعاتها . لذا فان الفاعلية أو التلقائية ، وقابلية التأثر ، يحصلان مع فوكو على معنى جديد وطريف ألا وهو التأثير والتأثر .

والقدرة على التأثر ، هي بمثابة مادة القوة ، بينما القدرة على التأثير ، هي بمثابة دالة القوة . لكنها دالة تظل مجردة لا تتقمص أي شكل ولا تتجسم في هيئة ، تدرك بمعزل عن الأشكال الواقعية التي تتقمصها ، وبمعزل عن الأهداف التي تسعى اليها والوسائل التي تستعملها : فيزياء العمل ، أو فيزياء العمل المجرد . هي ذي الصورة أو الصيغة التي تأخذها ممارسة السلطة وعلاقة القوة : شكل التحولات الفيزيائية . فالأمر هنا يتعلق بمادة خالصة لم تتقمص أية هيئة ، تدرك بمعزل عن الجواهر المشكلة وعن الكائنات أو الموضوعات التي تتقمصها : فهي فيزياء المادة الأولى أو المجردة . فمقولات السلطة ، هي اذن تحديدات تخص الأعمال المفترض أنها أعمال ما « أياً كانت » والعناصر المعبرة أنها عناصر ما « أياً كانت » . وعلى هذا الأساس ، يُعرف كتاب « الحراسة والعقاب» « الانكشاف الداخلي » بوظيفته أو دلالته الخالصة المتمثلة في فرض سلوك بعينه أو تصرف ما على عدد ما أياً كان من الأفراد ، شريطة أن يكون ذلك العدد غير مرتفع ، وأن يكون المكان محصوراً ، غير مترامي الأطراف . ليس ثمة اعتبار ، لا للأشكال التي تتقمصها الدالة فتمنحها أهدافاً ووسائل (التربية ، العلاج ، العقاب ، الانتاج) ولا للمواد التي تحصل على هيئتها وتتخذ شكلاً ، والتي تنصب عليها الدالة (« السجناء ، المرضى ، تلاميذ المدارس ، الحمقى ، العمال ، الجنود» . . .) .

والواقع أن « انكشاف الداخل » في القرن الثامن عشر ، يبسط سيطرته على كل تلك الأشكال ويخترقها وينطبق على موادها : وبهذا المعنى ، يغدو مقولة سلطة ، وظيفة تأديبية خالصة سيطلق عليها فوكو اسم مبيان ، أي دالة ، وظيفة « يلزم النظر

(2) ارادة المعرفة ، ص 126 – 127.

اليها بمعزل عن أي استخدام نوعي ، وعن أية مادة بعينها[3]. وسيتكلم فوكو في « ارادة المعرفة » عن وظيفة أخرى ، تطفو في الوقت ذاته على السطح ، ممارسة تسيير الحياة ومراقبتها بالنسبة لعدد من السكان ، أياً كانوا ، شرط أن يكون ذلك العدد كبيراً وأن يكون المكان ممتداً أو شاسعاً . وهنا يحصل « الاحتمال » على معناه كمقولة من مقولات السلطة ، كما تتدخل المناهج الاحتمالية . وبعبارة موجزة ، تتمثل الوظيفتان الخالصتان في المجتمعات الحديثة في « التشريح السياسي » و« السياسة الحيوية » ، والمادتان المجردتان هما الجسد ، أياً كان ، والسكان ، أياً كانوا[4]. بالامكان اذن تعريف المبيان بكيفيات عديدة لكنها مرتبطة ومتكاملة : انه عرض لعلاقات القوى الخاصة بتشكيلة معينة ، توزيع سلط التأثير والتأثر ، تجسيد الوظائف الخالصة غير المتقمصة لشكل وامتلاؤها بمواد خالصة غير ذات شكل .

ألا يلزم هنا بخصوص العلاقة بين القوى التي تؤسس السلطة ، وعلاقات الأشكال التي تؤسس المعرفة ، أن نقول ما أسلفنا قوله بخصوص العنصرين المشكلين للمعرفة أي ما يرى وما يعبر عنه ؟ لقد أسلفنا أن بينهما تغاير ، لكنه تغاير لا يقف عائقاً أمام تداخلهما وارتباطهما . ونفس الشيء ينطبق على السلطة والمعرفة : انهما تختلفان في الطبيعة ، وبينهما تغاير ، لكن بينهما أيضاً ارتباط وتداخل ، وهناك ، أخيراً ، أولية احد هما على الأخرى . انهما يختلفان في الطبيعة ، ما دامت السلطة تبرز من خلال الأشكال ، بل تتقمص شكل القوى فقط . بينما تنصب المعرفة على موضوعات اتخذت هيئة (المواد) وذات وظائف محددة وموزعة بدقة في شكليهما الرئيسيين ، الرؤية والكلام ، الضوء واللغة : فالمعرفة اذن مبنية ، ذات بناء ، وتتسم بتجزيئية نسبياً صلبة . أما السلطة ، فهي على العكس مبيانية : تحشد موضوعات وتعبيء وظائف غير مبنية ، سالكة طريقة تجزيئية مرنة جداً . ذلك أنها لا تتقمص أشكالاً ، بل نقطاً ، نقطاً مفردة ، ترسم في كل فينة ممارسة قوى ، فعل قوة أو رد فعلها ازاء قوة أخرى ، أي ترسم تأثيراً بوصفها « حالة سلطة تمارس نفسها دوماً في مكان بعينه ، وبصفة غير قارة » . وينتج عن هذا تعريف رابع للمبيان : ان هذا

---

(3) **الحراسة والعقاب**، ص 207 وص. 229: « ما الغريب اذا كان السجن يشبه المصانع والمدارس والثكنات والمستشفيات ، والتي جميعها تشبه السجن؟» .

(4) **ارادة المعرفة**، ص 183 – 188.

الاخير انتشار فرديات وتوزعها . علاقات السلطة علاقات يطبعها الانتشار والمحلية وفي الوقت عدم الاستقرار ، انها لا تصدر عن نقطة مركزية أو عن بؤرة مستقطبة ، تكون بؤرة سيادة ، بل تنتقل بين عدة نقط ، تذهب « من نقطة الى اخرى » ، لا يقتصر تحركها على الانطلاق من نقطة للوصول الى نقطة ثانية في الفراغ في اتجاه خط مستقيم ، بل هي علاقات ترسم انحناءات وإلتواءات وانعطافات وتحويمات مغيرة دوماً اتجاهها ، كما تبدي باستمرار مقاومة . انها علاقات شبكية تتواجد وتتزامن بين قوى لا حصر لها وأمكنة لا حد لعددها . لذا يظل من المتعذر « تحديد مكان » لها في هذه اللحظة أو تلك ، فهي بمثابة استراتيجية أو ممارسة لما هو خارج الأبنية ، و« الاستراتيجيات المجهولة الهوية » استراتيجيات شبه صماء وشبه بكماء وشبه عمياء ، ما دامت تفلت من الأشكال القارة لما يرى وما يعبر عنه[5]. تتميز الاستراتيجيات عن الأبنية ، بالكيفية ذاتها التي تتميز بها المبيانات عن أنظمة العبارات . وعدم استقرار علاقات السلطة ، وتحركها الدائم ، هو الذي يحدد الوسط الاستراتيجي غير المبني . من سمات علاقات السلطة أيضاً ، أنها غير معروفة . ها هنا أيضاً بعض التشابهات بين فوكو وكنط ، حيث التحديد العملي الخالص غير قابل ، حسب هذا الأخير ، لأن يتقلص في أي تحديد نظري أو أن يرتد اليه ويرجع الى أية معرفة . صحيح أن أي شيء بالنسبة لفوكو ، ممارسة ، لكن ممارسة السلطة تظل ، مع ذلك ، غير قابلة لأن تختزل في أية ممارسة معرفة . وقصد ابراز هذا الطابع المميز ، وهذا الاختلاف الماهوي ، سيؤكد فوكو على أن السلطة تحيل الى « ميكروفيزياء » . شريطة ألا يفهم لفظ « ميكرو » هنا ، على أنه مجرد تصغير لأشكال كبرى ، أو على أنه أشكال دقيقة ومبسطة للأشكال التي ترى أو يعبر عنها ، فهو في الحقيقة ميدان آخر ، نمط مختلف من العلاقات ، بعد تفكير يتعذر اختزاله في المعرفة : روابط متحركة لا تقبل التحديد في المكان[6].

---

(5) في كتاب ارادة المعرفة ص 122 – 127، نص أساسي (حول النقط ، الاستراتيجيات ، عدم استقرارها ، وبخصوص المقاومات ، سيستعمل فوكو وبكيفية صريحة لغة النقط الفردية في الرياضيات ، مثل « العقدة والبؤرة. . . ») .

(6) حول « ميكروفيزيائية السلطة »، أنظر الحراسة والعقاب، ص 140. وحول تعذر رد الميكروفيزيائي الى شيء آخر ، راجع ارادة المعرفة ص 132. ويجمل هنا عقد مقارنة بين تفكير فوكو وسوسيولوجيا « الاستراتيجيات » مع بيير بورديو : بأي معنى تشكل هذه الاخيرة ميكروسوسيولوجيا . ولعل من =

قال « فرانسوا شاتلي » ملخصاً تداولية فوكو : « السلطة كممارسة ، المعرفة كقانون منظم »[7]. عرفت دراسة العلاقات المبنية للمعرفة أوجها في كتاب « الحفريات » . أما دراسة العلاقات الاستراتيجية للسلطة ، فقد بلغت اكتمالها في كتاب « الحراسة والعقاب »، وبشكل به بعض المفارقة ، في كتاب « ارادة المعرفة » . ذلك أن الاختلاف الماهوي بين السلطة والمعرفة ، لا يقف ، مع ذلك ، عائقاً يحول دون أي تداخل وارتباط بينهما . فعلوم الانسان لا تنفصل عن علاقات السلطة التي تسمح بامكانها والتي تولد معارف تكون قادرة ، الى حد ما ، على اجتياز عتبة ابستمولوجية أو على اقامة معرفة : كعلاقة طالب التوبة بالمرشد الديني بالنسبة « للعلم الجنسي « Scientia sexualis مثلاً ، أو علاقة المؤمن بالموجه الديني ، أو العلاقات التأديبية بالنسبة للسيكولوجيا . وليس غرضنا هنا أن نقول أن علوم الانسان منشؤها السجن ، بل نبغي مجرد القول بأنها تفترض مبيان القوى التي يعتبر السجن ذاته من افرازاتها وتجسيداً لها . والعكس صحيح أيضاً ، فعلاقات القوى تظل علاقات متعدية ، غير قارة ، زائلة ، شبه كامنة ، وغير معروفة ، على أي حال ، ما لم تتجسد فعلاً في العلاقات المشكلة أو المبنية التي تؤلف معارف . بل أن معرفة الطبيعة ، والمرور بعتبة العلمية على الأخص ، يحيلان الى علاقات قوة بين البشر ، والتي علاقات تظهر مع ذلك الى الفعل بهذا الشكل : ان المعرفة لا تحيل أبداً الى ذات شاردة متحللة من أي ارتباط بمبيان سلطة . وليست هذه الأخيرة في حل من أي ارتباط بالمعارف التي تتقمص السلطة ذاتها لتخرج الى الفعل. من ثم كان تأكيد فوكو على تركيب السلطة ـ المعرفة الذي يصل المبيان بنظام العبارة ويربطهما ربطاً مفصلياً يستند الى اختلاف طبيعتهما . « بين تقنيات المعرفة واستراتيجيات السلطة ، لا توجد بتاتاً أي خارجية ، حتى ولو كان لها دورها النوعي وارتبطت ببعضها البعض انطلاقاً من

= الضروري كذلك ، ربطهما معاً بـ« طارد » في « ميكروسوسيولوجيته ، والتي انصب أساساً على دراسة العلاقات المنتشرة التفاضلية ، ولم اهتماما لدراسة المجموعات الكبرى ولا الرجال العظام ، بل اكتفت بحصر موضوعها في الأفكار الصغيرة لأناس صغار ، كتوقيع موظف ، أو عادة محلية جديدة أو انحراف لساني ، أو التواء بصري منتشر . ويرتبط هذا بما أطلق عليه فوكو « متناً » حول دور « الابتكارات الصغيرة جداً » هناك نص شبيه بما كتبه طارد ، نعثر عليه في الحراسة والعقاب، ص 222.

(7) François chatelet et Evelyne pisier. **Les Conceptions politiques du XXe siècle**, P.U.F. 1985.

اختلافها»[8].

علاقات السلطة ، علاقات فارقية تفاضلية ، تحدد فرديات (بروز تأثيرات) السلطة وقد خرجت الى الفعل وتحققت ، وهو تحقيق يضفي عليها الاستقرار والبناء ، هو أيضاً اندماج : أي عملية تقوم على رسم « خط قوة عامة » وعلى وصل الفرديات وربطها من جديد ورصدها واضفاء صفة التجانس عليها وتنظيمها في سلاسل وتقريب بعضها من بعض[9]. ويلزمنا أن نضيف هنا أنه لا وجود لاندماج فوري وكلي ، بل كل ما يوجد هو عدد من الاندماجات المحلية المكانية الجزئية ، يرتبط كل منها بصلة بعلاقات السلطة تلك وبتلك النقط الفردية . وتشكل عوامل الدمج ، وعوامل البناء ، مؤسسات : كمؤسسة الدولة وكذا مؤسسة الأسرة والدين والانتاج والسوق والفن والأخلاق أيضاً . . . وما عدا ذلك . وليست المؤسسات أصولاً أو ماهيات ، ليست لها ماهية أو جوانية ، بل هي ممارسات ، آليات اجرائية لا تفسر السلطة ولا تؤسسها ، ما دامت هي نفسها تفترض علاقات السلطة وتستند اليها ، مكتفية في نفس الوقت « باضفاء صفة الثبات » عليها ، أو « تثبيتها » في وظيفة اعادة انتاج تلك العلاقات ، وليس انتاجها . لا توجد الدولة ، هناك فقط عملية دولنة étatisation، وقس هذا على سائر الحالات الأخرى . الى حد أننا مضطرون بخصوص كل تشكيلة تاريخية ، الى أن نلتمس مالها من وشائج بكل مؤسسة توجد ضمن ذلك البناء ، وأن نبحث في العلاقات التي تربطها بمؤسسات أخرى ، وكيف تتنوع تلك التوزيعات وتتغير من بناء لآخر . ها هنا أيضاً نجد مشاكل السيطرة وألوانها المتنوعة ، أفقية وعمودية . فاذا كان شكل ـ الدولة ، في تشكيلاتنا التاريخية ، قد استحوذ على كل علاقات السلطة ، فليس مرد ذلك أن هذه العلاقات تنشأ فيه وتتفرع عنه ، ويعتبر هو أصلها ، بل أن عملية « دولنة متواصلة » طرأت على النظام التربوي والقضائي والاقتصادي والأسري والجنسي ، اختلفت بحسب الأحوال ، تهدف الى الدمج الكلي والاندماج الشامل . على أي حال ، تفترض الدولة علاقات السلطة ، بدلاً من أن تكون هي مصدرها . وهذا ما عبر عنه فوكو عندما أوضح أن الحكومة

---

(8) ارادة المعرفة ، ص 130.

(9) ارادة المعرفة ، ص 124.

أسبق بالنسبة للدولة ، اذا كنا نعني « بالحكومة » قوة التأثير بكل مظاهرها (من سياسة الأطفال والنفوس وتدبير المرضى وتدبير شؤون الأسرة)[10]. ولو رمنا ، منذ الآن ، تعريف الطابع العام للمؤسسة ، سواء كانت الدولة أو غيرها ، لبدا لنا أنه يتمثل في تنظيم العلاقات التي هي قوام سلطة ـ الحكومة ، وهي علاقات جزيئية أو « ميكروفيزيائية » ، تدور حول نواة رئيسية : هي سلطة السيد أو القانون ، بالنسبة للدولة ، أو سلطة الأب بالنسبة للأسرة ، أو سلطة المال أو الذهب أو الدولار بالنسبة للسوق ، أو سلطة الله بالنسبة للدين ، أو سلطة الجنس بالنسبة للمؤسسة الجنسية . وسيقوم كتاب « ارادة المعرفة » بتحليل هذين المثالين المتميزين : القانون والجنس ، وركزت خاتمة الكتاب كلها على كون العلاقات التفاضلية « للجنس بلا جنس » تندرج في العنصر النظري للجنس « كدال واحد ومدلول كلي » ، ذلك العنصر الذي يضبط الرغبة عن طريق « اضفاء الصفة الهستيرية » على الحياة الجنسية . غير أنه خلف الجنس المندمج ، ثمة جنسية تغلي باستمرار وتزمجر ، ويشبه هذا شيئاً ما ، ما نجده عند « بروست »Proust .

هذه الاندماجات وتلك النواة الرئيسية هي ما يكون المعارف (« كالعلم الجنسي » مثلاً) . لكن إلام يرجع ظهور شرخ في هذا المستوى ؟ يلاحظ فوكو أن أي مؤسسة تتوفر بالضرورة على قطبين أو ركنين : « أجهزة » و« قواعد » . فهي تنظم رؤى كبرى وحقول رؤية وحقول تعبير كبرى وأنظمة عبارات . المؤسسة ذات شكل ثنائي ، وذات وجهين ، فهي ثنائية الشكل وثنائية المظهر (الجنس على سبيل المثال ، جنس يتكلم ويرى في ذات الوقت ، لغة وضوء)[11]. نعثر عامة هنا ، ومن جديد ، على حصيلة التحليلات السابقة : لا يحقق الاندماج أولا يخرج الى الفعل الا من خلال خلق طرق تحقيق وترهين متباينة يتوزع بينها . أو بعبارة أصح ، أن التحقيق أو الخروج الى الفعل ، لا يمارس الدمج الا عن طريق خلق نظام تفاضل أو تمايز شكلي . ففي كل تشكيلة ، شكل قابلية تأثر بشكل ما يرى ، وشكل تلقائية

---

(10) راجع النص الرئيسي الذي تناول فيه فوكو مسألة «الحكومات» في .Dreyfus et Rabinon, 314 وحول المؤسسات ، ص 315.

(11) يقوم كتاب ارادة المعرفة بتحليل هذين الشكلين ، الجنس الذي يتكلم (ص101) والجنس الذي يرى (ص207).

يشكل ما يعبر عنه . ولا يطابق هذان الشكلان ، بطبيعة الحال ، مظهري القوة ، أو نوعي التأثير المتمثلين في قابلية السلطة للتأثر ، وفاعليتها وقدرتها على التأثير . بل ينحدران منهما ، ويعثران فيهما على « شروطهما الداخلية » . ذلك أن علاقة القوة في حد ذاتها ، وكعلاقة قوة ، لا شكل لها ، تصل مواد لم تحصل على شكل ، (قابلية التلقي) بوظائف أو دوال لم تتقنن (التلقائية) . بينما تنصب علاقات المعرفة كلها على مواد حصلت على شكلها ووظائف تقننت ، تارة تحت النوع القابل للتأثر بما يرى ، وأخرى تحت النوع التلقائي لما يعبر عنه . وتتميز المواد المشكلة بكونها تقبل أن ترى ، أما الوظائف المقننة ، فتتميز بالعبارة . نحن مضطرون اذن ، الى أن لا نخلط بين المقولات الاحساسية الشعورية للسلطة (من طراز « حث » « حرض » وغيرهما) والمقولات الموضوعية الشكلية للمعرفة (من طراز « ربى »، « عالج » « عاقب » وما شابه ذلك. . .) والتي هي مقولات تتخذ الرؤية والكلام وسيلة لتحقيق الأولى واخراجها الى الفعل . وهذا بالذات ، ما يجعل المؤسسة ، بفضل تلك الازاحة ، قادرة على ادماج علاقات السلطة ، وتكوين معارف تخرجها الى الفعل وتحققها وتنقحها وتوزعها . وتبعاً لنوعية المؤسسة المعنية بالأمر ، أو تبعاً ، بالأحرى ، لطبيعة عملها ، تبلغ الرؤى ، من جهة ، والعبارات ، من جهة ثانية ، هذه العتبة أو تلك ، فتحولها الى رؤى وعبارات سياسية أو اقتصادية أو جمالية . . (و« المشكل » الذي سيطرح هنا ، بطبيعة الحال ، سيكون هو معرفة ما اذا كان في متناول عبارة ما ، أن تبلغ عتبة ما ، كالعتبة العلمية مثلاً ، فتظل الرؤية ، من جراء ذلك ، في مستوى أدنى بالنسبة لها ، أو العكس . لكن هذا ما يجعل من الحقيقة مشكلاً . ثمة رؤى الدولة أو الفن أو العلوم ، بقدر ما هنالك من عبارات ، في تغير مستمر) .

كيف تتم هذه العملية المزدوجة ، أي الترهين أو الخروج الى الفعل أو التحقق فيه والاندماج ؟ يجيبنا كتاب « الحفريات » على الأقل ، عن نصف السؤال . حيث يؤكد فيه فوكو على « الانتظام » كخاصية للعبارة . وللفظ الانتظام ، لدى فوكو ، معنى دقيق جداً : فهو المنحنى الذي يجمع نقطاً فردية (القاعدة) . فعلاقات القوى ، تحدد بالذات تلك النقط بصورة يكون معها المبيان دوماً انتشاراً لفرديات . أما المنحنى الذي يبعث الوحدة في هذه الأخيرة عندما يمر بالقرب منها ، فهو شيء آخر

مخالف تماماً . وقد أوضح « ألبير لوطمن » A.Lautman أن « ثمة حقيقتين متمايزتين قطعاً » في الرياضيات ، وبالذات في نظرية المعادلات التفاضلية ، وان كانتا في واقع الأمر متكاملتين : وجود نقط فردية وتوزيعها داخل حقل موجهات ، أو شكل منحنيات كاملة على مقربة منها[12]. ويترتب عن هذا منهج أكد عليه كتاب « الحفريات » : سلسلة تمتد لتصل على مقربة من نقط فردية أخرى ، تنطلق منها سلسلة جديدة ، تلتقي تارة والسلسلة الأولى (عبارات من ذات « الصنف ») وتارة أخرى تفترق عنها (عبارات من صنف آخر). بهذا المعنى يحقق المنحنى علاقات قوة عندما يبعث فيها الانتظام ويرتبها ويجمع بين سلاسلها ، ويرسم « خط القوة العام » : فبالنسبة لفوكو ، ليست المنحنيات والرسوم البيانية عبارات فقط ، بل أن العبارات ضرب من المنحنيات أو الرسوم البيانية . وأما رغبة منه أن يظهر بكيفية أوضح أن العبارات لا ترتد الى الجمل أو القضايا ، ذهب الى أن الحروف التي أرسمها بالصدفة وبكيفية عشوائية على ورقة ، تشكل عبارة « عبارة حروف اختيرت بكيفية عشوائية » ، وان الحروف التي أقوم برقنها بآلة رقن ، ذات حروف لاتينية ، تشكل عبارة A,Z,E,R,T (رغم أن الملامس والحروف المبينة عليها ، في حد ذاتها ، ليست عبارات ، بل رؤى). ولو جمعنا ، بهذا الصدد ، نصوص فوكو الأكثر صعوبة وغموضاً ، للاحظنا أنه يؤكد على أن العبارة تربطها بالضورورة آصرة نوعية بخارج ، « بشيء آخر قد يشبهها تمام التشابه أو يكون شبه مطابق لها » هل يتعين علينا أن نفهم من هذا أن للعبارة ارتباطاً بالرؤية ، وبالحروف المرسومة على الملامس ؟ بالتأكيد لا ، ما دام هذا الارتباط بين ما يرى وما يعبر عنه ، هو بالذات موضوع النقاش . لا تتحدد العبارة البتة بما تشير اليه أو تدل عليه . وما يتعين علينا ، في رأيي ، أن نفهمه من ذلك هو : أن العبارة منحنى يبعث الوحدة بين نقاط فردية ، أي يظهر علاقات القوى أو يخرجها الى النهار مثلما توجد بالفرنسية بين الحروف والأنامل ، تبعاً لنظام توارد وتقارب (أو يخرجها الى الفعل بكيفية عشوائية لا تخضع لأي نظام مثلما الأمر في المثال السابق) . غير أنه من المتعذر على النقاط الفردية بنفسها وبمعية علاقات قوتها ، أن تشكل عبارة ، بل بمثابة خارجها الذي قد تشبهه أتم التشابه أو قد تكون شبه مطابقة

---

(12) Lautman, **Le problème du temps**, Hermann, 41 – 42.

ومماثلة له[13]. أما الرؤى ، كالحروف المرسومة على ملامس الآلة ، مثلاً ، فهي وان كانت خارجية بالنسبة للعبارة ، الا أنها ليست بمثابة خارج لهذه الأخيرة . عندها ، تغدو الرؤى في نفس الوضعية التي توجد عليها العبارات ، أي في وضعية نوعية تضطلع هي نفسها بتحويلها بطرقها الخاصة . كما يتعين على الرؤى كذلك أن تكون على اتصال بالخارج الذي تحققه وتخرجه الى الفعل وتبرزه ، بمعية الفرديات أو علاقات القوى التي تدمجها بدورها ، دمجاً مغايراً وبنمط مخالف للعبارات ، ما دامت تلك خارجية بالنسبة لهذه.

يقوم منحنى ـ العبارة بدمج شدة التأثيرات والعلاقات التفاضلية للقوى وفرديات السلطة (امكاناتها) ، في اللغة . حينئذ يتعين على الرؤى أن تدمجها بدورها في الضوء دمجاً يختلف تمام الاختلاف . بحيث يكون على الضوء ، بصفته شكلاً يتلقى الادماج ويتعرض له ، أن يشق لنفسه طريقاً يضاهي طريق اللغة بوصفها شكل تلقائية وفاعلية ، لكنه لا يطابقه . وستغدو العلاقة بين الشكلين ، ضمن «لا علاقاتهما» هي كيفياتها في تثبيت علاقات قوى غير قادة ، وتحديد مواضع الانتشار واضفاء صفة الشمول والكلية عليها ، وتنظيم نقاط فردية . ذلك أن الرؤى ، تعتبر من جهتها ، وفي ضوء التشكيلات التاريخية ، بمثابة لوحات ، نسبتها الى المرئي ، كنسبة العبارة الى الملفوظ أو المقروء . فقد مارست فكرة « اللوحة » تأثيرها القوي على فكر فوكو ، وغالباً ما استعمل هذا اللفظ بمعنى عام جداً يشمل حتى العبارات أيضاً . غير أنه يمنح للعبارات قيمة وصفية عامة لا تتفق ومعناها الضيق المحصور . فبالمعنى الدقيق ، اللوحة ـ الوصف والمنحنى ـ العبارة قوتان مختلفتان للتقنين والاندماج . وهذا ما يجعل فوكو ينخرط في تقليد منطقي عريق يرفع لواء القول بوجود اختلاف في الطبيعة بين العبارات والأوصاف (مثلما هو الأمر مع « رسل » مثلاً) . وقد عرف هذا المشكل بعد ظهوره في المنطق ، تطورات غير متوقعة في الرواية و« الرواية الجديدة » ثم في السينما . غير أن الحل الجديد الذي اقترحه فوكو هو المعول عليه هنا : فهو

---

(13) حفريات المعرفة : حول العبارة والمنحنى أو الرسم البياني أنظر ص 109، حول توزيع الصدفة أو التواتر ، ص 114، حول الاختلاف بين الملامس والعبارة ، الحروف المرسومة على الملامس وداخل العبارة ، ص 114، حول « الشيء الآخر » أو الخارج ، ص 117. حول مجموع هذه القضايا ، نص فوكو جد مكثف ووجيز .

يرى أن اللوحة ـ الوصف انتظام خاص بالمرئيات مثلما أن المنحنى ـ العبارة انتظام خاص بالمقروءات . من هنا كان شغف فوكو بوصف اللوحات ، أو على الأصح ، ولعه باجراء أوصاف تصلح أن تكون لوحات : كوصفه الرائع للوحة « الوصيفات » أو للوحات « ماني »و« مغريت »، ووصفه الشيق لأغلال المكبلين المحكومين بالأشغال الشاقة ، أو لمستشفى المجانين أو للسجن أو لعربة نقل السجناء ، كما لو كانت لوحات ، وكما لو كان فوكو رساماً . ولعله التشابه الثابت بين مجموع مؤلفاته والرواية الجديدة ، « وريمون روسيل ». لنعد الى وصف لوحة « الوصيفات » لـ« بلاسكيث »Velasquez : يرسم النور في مروره شكلاً شبيهاً « بصدفة حلزونية » تجعل الفرديات مرئية وتصنع منها عدداً من الألوان اللامعة والظلال المنعكسة داخل « دورة » تمثيل كاملة[14]. فمثلما أن العبارات منحنيات قبل أن تكون جملاً وقضايا ، كذلك اللوحات خطوط نور قبل أن تكون دوائر وألوان . وما تنجزه اللوحة في شكل قابلية التأثر هذا ، هو فرديات علاقة القوى ، وهنا علاقة الرسام بالعاهل مثلما « يتعاقبان ، في تناوب ، بلمح نور لا ينقطع » . ويتحقق مبيان القوى ، في آن معاً ، في اللوحات ـ الأوصاف وفي المنحنيات ـ العبارات .

يصلح مثلث فوكو هذا للتحليلات الابستمولوجية مثلما يصلح كذلك للتحليلات الجمالية . يضاف الى ذلك ، مثلما أن الرؤى تنطوي على عبارات استحواذ وسيطرة ، تنطوي العبارات بدورها على رؤى استحواذ وسيطرة ، رؤى تظل متميزة حتى في الوقت الذي تتقمص فيه شكل كلمات . وبهذا المعنى ، كان التحليل الأدبي ، بالمعنى الدقيق ، جديراً بأن يكتشف ، في حضنه ، التمييز القائم بين اللوحات والمنحنيات وأن يعثر عليه . بامكان الأوصاف أن تكون لفظية ، لكن هذا لا يعني أنها لا تقل اختلافاً عن العبارات : نفكر في عمل كعمل « فوكنر » : حيث ترسم العبارات منحنيات عجيبة تتخلل موضوعات خطابية وتمر بمواقع غير قارة للذات (نجد أن نفس الاسم الواحد يطلق على عدة أشخاص ، أو اسمان يطلقان على شخص واحد بعينه) ، مواقع تجد مكانها في مادية اللغة وتنخرط في نظامها ، في

---

(14) الكلمات والأشياء ، ص 27(و319).

احتشاد للسان الخاص بفوكنر . إلا أن الأوصاف ترسم نفس القدر من اللوحات التي تـظهر الـظلال والأضواء واللمعـان والرؤى المتغيـرة بحسب السـاعـات والفصـول ، وتوزعها داخل مادية الضوء ، ضمن احتشاد للضوء بـأجمعه الـذي يمتلك « فوكنـر » أسراره (فوكنر ، أكبر « نوارني » الأدب. .). وفوق هـذين العنصرين ، ثمـة عنصر ثالث ، هو بؤر السلطة ، وهي بؤراً غير معروفة ، وغير مرئية وغير ملفوظة ، بؤر آكلة أو متآكلة ، تنقلب وتتحد في صنف الجنوب ، صيرورة سوداء بأكملها .

بـأي معنى تكون للسلطة أوليـة على المعرفـة ، ولعلاقـات السلطة أولية على علاقات المعرفة ؟ ذلك أن علاقات المعرفة عاجزة عن أن تدمج شيئاً ما من الأشياء ما لم تكن ثمة علاقـات تفاضليـة للسلطة . صحيح أن هذه العلاقـات الأخيرة ، تـظل منعدمة أو ممكنة أو كامنـة ، ما لم يتم انـدماجهـا ، وهذا مـا يؤكد التـأثير والتفـاعل المتبادل بين علاقات السلطة وعلاقات المعرفة . غير أنه اذا كانت ثمة أولية للعلاقات الأولى ، فلأن شكلي المعرفة المتغـايرين يتكـونان بـالاندمـاج ، وفوق الفجـوة التي تفصلهما ، أي فوق « لا علاقتهما »، تنشأ بينهما عـلاقة مبـاشرة ، ضمن شـروط لا تخص سـوى القوى : زد على هـذا ، أن العلاقـة اللامبـاشـرة القـائمـة بين شكلي المعرفة ، لا تفترض شكلاً ما مشتركاً يلتقيان فيه أو تطابقا معيناً بينهما ، كل ما تفترضه عنصر لا شكلي لقوى تغمرهما معاً . تشبه مبيانية فوكو اذن ، أي عـرض العلاقـات الخالصة للقوى أو نشر نقط فردية خالصة ، نظرية الرسوم الكنطية . فهي التي تكفل ارتباطاً تنتج عنه المعـرفة ، يتم بين شكلين قـائمي الذات يعسـر دمجهما أو تقليص أحدهما في الآخر : انهما التلقائية وقابلية التأثر، [الفهم والحساسية بلغـة كنط] . وذلك من حيث أن القوة تتمتع هي نفسها بتلقائية وقابلية تأثر خاصتين بها ، رغم أنهما لا صوريتان ، أو على الأصح ، لسبب أنهما لا صوريتان . لا مراء في أن السلطة ، اذا اعتبرت بكيفية مجردة ، هي سلطة لا ترى ولا تتكلم ، فهي فأرة لا ترى بوضوح الا في متاهات الممرات الأرضية وداخـل جحرهـا المتعدد المنـافذ : انهـا « تمارس نفسها كسلطة ، انطلاقاً من نقط لا حصر لها » « تمارس نفسها في خفاء » . ولكونها ، بالذات، لا تتكلم ولا ترى نفسها ، فانها تسمح بالرؤية وتبعث على الكلام . ما عسى أن يكون مشروع فوكو المتعلق « بحياة أراذل القوم» ؟ لا يتعلق الأمر بمشاهير وعظماء كانوا يمتلكون الكلام والرؤية ، واشتهروا بالرذيلة ، بل بحياة اجرامية لكنها غـامضة

بكماء خرساء ، لم تخرج لحظة الى واضحة النهار ولم تفصح عن نفسها وتتكلم الا في التقائها بالسلطة واصطدامها بها . بل بوسع المرء أن يقول : اذا لم تكن المعرفة محكومة بتجربة أصلية تظهر نفسها بالأصالة عن نفسها لا بالنيابة ، تجربة مباشرة ، تتجه اليها العين مباشرة بادراك مباشر لها من حيث هي حاضرة للعيان مثلما تعتقد في ذلك الفينومينولوجيا ، فلأن الرؤية والكلام تحكمهما معاً وبكيفية كلية علاقات السلطة ، والتي هي علاقات يستلزمانها ويكرسانها في الفعل[15]. فلو رمنا مثلاً تحديد متن من الجمل والنصوص لنستخرج منه عبارات ، لصعب علينا ذلك ما لم نعين بؤر السلطة (والمقاومة) التي يخضع لها ذلك المتن . والمهم هنا هو أن علاقات السلطة اذا كانت تتضمن علاقات المعرفة ، فان هذه، بالمقابل ، تفترض تلك . اذا كانت العبارات لا توجد الا مبعثرة في شكل خارجية برانية ، اذا كانت الرؤى لا توجد إلا مبعثرة ومتفرقة ومتناثرة في شكل خارجية برانية ، فلأن علاقات علاقات السلطة هي ذاتها متناثرة ، متعددة النقط في عنصر لم يعد له شكل . تعين علاقات السلطة « الشيء الآخر » الذي تحيل اليه العبارات (وكذا الرؤية) ولو أن هذه الأخيرة تتميز عنها تميزاً طفيفاً ، نظراً لعملية الاندماج المتواصلة وغير المحسوسة : وكما جاء في « حفريات المعرفة » : اختيار أعداد بالصدفة ، ليس عبارة ، لكن التلفظ من جديد بها شفوياً ، أو كتابتها ثانية على ورقة ما ، يعد عبارة . اذا كانت السلطة ليست مجرد عنف ، فليس هذا لأنها تتخلل مقولات تعبر عن علاقة القوة بالقوة فحسب (كالحث والتحريض وانتاج الأثر النافع وهلم جراً. . .) بل وأيضاً لأن السلطة ، بالمقارنة مع المعرفة ، تولد الحقيقة ، باعتبار أنها (أي السلطة) ترى وتبعث على الكلام[16]. تظهر الحقيقة كمشكل .

وضعتنا الدراسة السالفة وجهاً لوجه مع ثنائية خاصة جداً لدى فوكو ، في مستوى المعرفة ، بين ما يرى وما يعبر عنه . غير أن من الجدير هنا أن نشير الى أن لهذه الثنائية ، على وجه العموم ، ثلاثة معانٍ ، على الأقل : فالأمر تارة يتعلق بثنائية حقيقية تقيم اختلافاً جذرياً يتعذر اختزاله ، بين مادتين ، كما هو الشأن مع ديكارت ،

---

(15) M.Foucault, La vie des hommes infâmes, P.16, 15– 17, 27.

(16) ارادة المعرفة ، ص 76، 98.

أو بين ملكتين ، كما هو الأمر مع كنط ، كما يتعلق تارة أخرى ، بمرحلة عابرة وقتية ، يتم تجاوزها نحو أحادية ووحدة ، كما هو الشأن مع سبينوزا أو مع برغسون ، وتارة ثالثة ، يتعلق الأمر بتوزيع تمهيدي يعمل في حضن نزعة تعددية . وتلك هي حال فوكو . ذلك أنه اذا كان ما يرى وما يعبر عنه يعيشان في تلازم ومثنى ، فلأن أشكالهما هي على التتالي ، أشكال خارجية برانية وأشكال تبعثر وتـ ّثر ، تجعل منهما نمطي « كثرة » يتعذر معه رد أي واحد منهما الى وحدة : فالعبارات لا توجد الا ضمن كثرة خطابية . وهما كثرتان تنفتحان على كثرة ثالثة ، كثرة علاقات القوى ، كثرة الانتشار التي لم تعد تمر عبر اثنين ، لم تعد تتخذ شكل ثنائية ، بل تخلصت من أي شكل تجعلها تتخذ صفة الثنائية . وما انفك كتاب « الحراسة والعقاب » يؤكد أن الثنويات آثار مادية ، آثار النواة على « الكثرات » . وما ثنائية القوة ، المتمثلة في السيطرة والخضوع ، في التأثير والتأثر ، سوى مجرد مؤشر ودليل على كثرة القوى في كل منهما ، وعلى الوجود المتكثر المتعدد للقوة . ويحدث أحياناً أن يقول « سبربرغ » Syberberg أن القسمة الثنائية محاولة لتوزيع كثرة لا تقبل المثول أو الحصول في شكل واحد[17] . الا أنه توزيع ليس بامكانه سوى التمييز بين كثرات داخل كثرات . ان فلسفة فوكو ، بمجملها تداولية كثرة .

اذا كانت الصور المتنوعة لائتلاف شكلي ما يرى وما يعبر عنه ، تكون أبنية وتنشىء تشكيلات تاريخية ، فان ميكروفيزيائية السلطة تظهر بالعكس علاقات القوى وتعرضها في عنصر لا شكلي وغير مبني . كما لا يختلط المبيان ما فوق الحسي بنظام العبارة السمعي ـ البصري : بل هو كالقبلي الذي تفترضه التشكيلة الخطابية ، فهو الذي يحكمها ويحددها . ومع ذلك ، لا شيء خلف الأبنية أو فوقها ، ولا حتى خارجها ، وعلاقات القوى والتي هي علاقات غير قارة وعرضة للزوال والتناثر ، لا توجد خارج الأبنية ، بل هي الخارج بالنسبة لها . لهذا السبب كانت قبليات التاريخ ذاتها قبليات تاريخية . وقد يذهب بنا الظن بادىء الأمر فنعتقد أن المبيان يخص المجتمعات الحديثة وحدها : فكتاب « الحراسة والعقاب » يدرس المبيان التأديبي

---

(17) Syberberg, **Parsifal**, Cahiers de cinéma, Gallimard, 46.

سبربرغ من بين السينمائيين الذين طوروا خاصة مسألة انفصال الرؤية عن الكلام .

يخلف آثار نظام مجتمع السيادة القديم مستبدلاً اياها بمراقبة - محايثة للحقل الاجتماعي . واعتقاد كهذا لا أساس له من الصحة ، فكل تشكيلة تاريخية مبنية أو ذات بناء ، تحيل الى مبيان قوى كما لو كانت تحيل الى خارجها . تتحدد مجتمعاتنا التأديبية لمقولات السلطة (أي لتأثيرات) يمكن تحديدها على النحو التالي : فرض مهمة ما ، انتاج أثر نافع ، مراقبة مجموعة من السكان أو تدبير شؤون الحياة . أما مجتمعات السيادة القديمة ، فقد كانت تتحدد بمقولات أخرى لم تكن أقل مبيانية : الاقتطاع (فعل اقتطاع أعمال من أخرى أو منتوج من منتوجات أخرى ، قوة الاقتطاع من قوى التحكم في الرقاب (« القتل أو الابقاء على الحياة » وهو غير تدبير شؤون الحياة)[18]. في الحالتين ، نحن أمام مبيان . يشير فوكو أيضاً الى مبيان آخر كان يحيل اليه مجتمع الكنيسة عوض مجتمع الدولة ، مبيان « رعوي » قام فوكو بتفكيك مقولاته وتحليلها : رعي قطيع . . . ، كعلاقة قوى أو فعل في الفعل[19]. بالامكان الكلام عن مبيان يوناني ، مثلما سنرى ، وعن مبيان روماني ، وعن آخر اقطاعي . . . وقد تطول القائمة ، شأنها في هذا شأن مقولات السلطة (وليس المبيان التأديبي ، بطبيعة الحال ، المبيان الوحيد) . ومن الممكن القول بكيفية ما ، أن المبيانات يفضي بعضها الى بعض ، ويتصل بعضها ببعض ، فوق أو خلف أو بين الأبنية الخاصة بكل واحد منهما (وعلى هذا النحو يمكننا الاهتداء الى مبيان « نابليوني » كمبيان يقع بين بنائين ويصلهما ، فهو يقع بين مجتمع السيادة القديم ، والمجتمع التأديبي الجديد الذي يعد تطويراً له)[20]. وبهذا المعنى يتميز المبيان عن الأبنية : والتشكيلة المبنية هي التي تمنحه الاستقرار الذي يفتقر اليه ، إذ هو في حد ذاته غير قار ، مضطرب متقلب ومختلط . وهنا يكمن الطابع المفارق والمتناقض للقبلي ، ألا وهو التقلب والاضطراب الدقيق . ذلك أن القوى التي تربطها علاقات ، لا تنفصل عن تنوعات مسافاتها أو علاقاتها . وبعبارة وجيزة ، تعيش القوى في صيرورة مستمرة ، ثمة صيرورة للقوى تضاعف التاريخ وتبطنه ، أو لنقل بعبارة أصح ، انها تلفه ، أخذاً بالمفهوم النتشوي ، الى حد أن المبيان بوصفه يبرز مجموع علاقات

---

(18) ارادة المعرفة، ص 178 – 179.

(19) راجع المقولات الأربع للسلطة الرعوية ، في Dreyfus et Rabiow, 305.

(20) الحراسة والعقاب، ص 219.

القوى ، لا يشكل مكاناً أو حيزاً ، بل هو بالأحرى ، « انعدام للمكان » ولا يعتبر مكاناً الا بالنسبة لتحولات . وبغتة تكف الأشياء عن أن تكون مدركة ، كما لا تظل القضايا المعبر عنها بذات الصورة[21] . ومما لا شك فيه أن المبيان يوصل الى التشكيلة المبنية التي تمنحه الاستقرار أو الثبات ، لكنه يفعل ذلك باتجاه محور آخر ، فهو يتصل بالمبيان الآخر وبالحالات غير المستقرة الأخرى للمبيان ، والتي عبرها ومن خلالها تتابع القوى صيرورتها المتحولة . لأجل هذا ، كان المبيان دوماً هو الخارج بالنسبة للأبنية . فهو ليس عرضاً أو اظهاراً لعلاقات القوى ، دون أن يكون في الوقت ذاته ، نشراً لفرديات ولنقط مفردة . ولا يعني هذا أن أي شيء يقترن بأي شيء . بل يعني ، على الأصح ، أن ثمة انجذابات متوالية ، تعمل كل منها بالصدفة ، انما ضمن شروط عارضة تتحدد بالانجذاب السابق . المبيان حالة مبيان ، انه دوماً مزيج من الاتفاق والعشوائية والصدفة والتبعية ، مثلما هو الشأن في سلسلة ماركوف Markov، أو كما يقول فوكو ، مستشهداً بنيتشه « يد الضرورة العنيدة التي تخلع نير الصدفة » . ليس ثمة اذن تسلسل متصل أو ترابط أساسه عملية باطنية قوامها انطلاء الصفة الجوانية ، بل ثمة اعادة التسلسل والترابط على أساس من القطيعة والانفصال (التغير) .

يتعين علينا أن نميز بين الخارجية والخارج . الخارجية شكل ، مثلما يتأكد ذلك في كتاب « **حفريات المعرفة** » ، بل انه شكلان خارجيان بالنسبة لبعضهما البعض ، ما دامت المعرفة تتكون من مجالين اثنين هما البصر واللغة ، الرؤية والكلام . أما الخارج ، فمن شأن القوة : اذا كانت هذه الأخيرة في علاقة دائمة بقوى أخرى ، فان القوى تحيل حتماً وبالضرورة الى خارج يتعذر الغاؤه ، يغدو عديم الشكل ، يتكون من مسافات لا تنحل الى أخرى أبسط منها ، مسافات تؤثر بها قوى في أخرى أو تتأثر هي ذاتها بقوى غيرها . ومن الخارج دائماً تمارس قوة ما تأثيرها على قوى أخرى ، أو تتلقاه منها ، ذلك التأثير المتغير والذي لا يوجد الا في ارتباط بهذه المسافة أو تلك ، أو بمقتضى هذه العلاقة أو تلك . ثمة اذن صيرورة قوى لا

---

(21) عن علاقة القوى ، الصيرورة وانعدام المكان ، أنظر نيتشه ، الجنيالوجيا والتاريخ »، ص 156. وعن التحول الذي يؤدي بغتة بالأشياء الى أن لا ترى وبالعبارات الى أن تبقى كما كانت ، أنظر : الكلمات والأشياء ، ص 229 وارادة المعرفة ، ص 131 . « ليست علاقات السلطة بالمعرفة أشكالاً توزيع معطاة ، بل مصفوفات تحولات » .

تختلط بتاريخ الاشكال ، ما دامت تعمل ضمن بعد آخر . يتعلق الأمر بخارج أكثر إبتعاداًمن أي عالم خارجي ، بل ومن أي شكل خارجية برانية ، يتعلق اذن بخارج قريب كل القرب . إذ كيف يمكن لشكلي الخارجية أن يكون خارجيين بالنسبة لبعضهما البعض لو لم يكن ثمة خارج أكثر اقتراباً وأكثر ابتعاداً ؟ انه « الشيء الآخر » الذي سبق لـ« حفريات المعرفة » أن تكلمت عنه. . . واذا كان عنصرا المعرفة الشكليان والخارجيان عن بعضهما البعض بصفتهما متغايرين يكونان دوماً في وفاق تاريخي ، مما يعتبر حلاً « لمشكل » الحقيقة ، فلأن القوى ، تعمل ، كما لاحظنا ، داخل فضاء ليس هو فضاء الاشكال ، فضاء الخارج حيث تغدو العلاقة ، بالضبط ، « غياباً للعلاقة » والمكان « انعداماً للمكان » ، والتاريخ صيرورة . في مؤلفات فوكو ، يرتبط مقاله حول نيتشه بمقالته حول بلانشو ، أو يتجدد ارتباطهما . اذا كانت الرؤية والكلام يعتبران شكلي خارجية برانية ، فان التفكير يتجه نحو خارج لا شكل له[22]. والتفكير معناه بلوغ ما ليس مبنياً . والرؤية معناها التفكير ، والكلام معناه التفكير ، لكن التفكير يتم داخل الفجوة ، داخل انفصال الرؤية والكلام . انها المرة الثانية التي يلتقي فيها فوكو مع بلانشو : ينتسب التفكير الى الخارج ، بقدر ما يدلف هذا الأخير ، والذي هو عاصفة مفارقة مجردة « في الفجوة التي تفصل الرؤية عن الكلام ويندفع فيها . القول بالخارج ، موضوع محوري ثابت لدى فوكو ، ويعني أن التفكير ليس ممارسة فطرية تضطلع بها ملكة عقلية ، بل يطرأ على الفكر من خارج . ليس التفكير تفكير ذات باطنة ، ليس عملاً جوانياً يوحد ما يرى بما يعبر عنه ، بل عمل يتم من جراء تدخل خارج يعمق الفجوة ، يقتحم الداخل ويفتضه . « عندما ينفتح الخارج ويمتص الجوانية. . . » ، فهذا يعني أن الداخل يستلزم بداية ونهاية ، أصلاً ومآلاً قادرين على أن يتحدا ويكونا « كلاً واحداً » . أما حينما لا تكون ثمة الا منازل وسط ، بين بين ، أي عندما تظل الكلمات بعيدة عن الأشياء ، يفصلهما وسط لا يدع لهما أية فرصة للتلاقي والالتحام ، فمن أجل تحرير القوى الآتية من خارج وتخليصها ، والتي لا توجد الا وهي في حال هياج واختلاط وتغير وتحول. نحن في

---

(22) راجع المقال التكريمي لبلانشو في La pensée du dehors . والنقطتان اللتان يلتقي فيهما مع بلانشو هما الخارجية (الكلام والرؤية) والخارج (التفكير) . وحول خارج القوى كبعد آخر ، غير بعد الأشكال الخارجية ، « فضاء آخر » ، أنظر : Ceci n'est pas une pipe ص 41 – 42.

الحقيقة أمام لعبة نرد . لأن التفكير يعني رمي قطعة نرد .

ها هو ما تقوله لنا قوى الخارج : ليس المركب ، التاريخي الحفري ، أبداً ، هو الذي يتحول ، بل القوى المكونة ، هي التي تعرف التحول عندما تدخل في علاقة بقوى أخرى مصدرها الخارج (الاستراتيجيات) . فالصيرورة والتغير والتحول، يخصان القوى المكونة ، ولا يعنيان في شيء القوى المكونة . لم كانت هذه الفكرة ، رغم بساطتها ووضوحها المظهري ، صعبة على الادراك والفهم ، الى حد أن القول « بموت الانسان » أثار العدد العديد من التفسيرات والتأويلات المعكوسة ؟ فقد اعترض عليه تارة بالقول بأن الأمر لا يتعلق بموت الانسان العيني الراهن ، بل بمجرد موت تصور ما للانسان ، وظن طوراً أن الأمر بالنسبة لفوكو ، وحتى بالنسبة لنيتشه ، يتعلق بالانسان العيني الراهن وهو يتجاوز نفسه نحو إنسان أعلى ، ليت ذلك كان فعلاً . وفي الحالين معاً ، ثمة سوء فهم لفوكو لا يقل عن ذلك الذي قوبل به فكر نيتشه (لم نطرح بعد هنا مسألة سوء النية والعدوانية التي حركت أحياناً من خلف ، التأويلات التي أعطيت لأفكار فوكو ، مثلما حدث ذلك قبلاً مع نيتشه) . فالحقيقة أن المسألة لا تتعلق بمركب انساني يوجد في الأذهان أو يوجد في الأعيان ، ثم ادراكه أو تم التعبير عنه ، بل بقوى مكونة للانسان : بأية قوى أخرى تمتزج ، وما المركب الذي ينشأ عنها امتزاجها ؟ والمجال أن كل قوى الانسان كانت ترتد كلها ، في العصر الكلاسيكي ، الى قوة « تمثيل » يدعي استخراج ما هو ايجابي فيها ، أو يقبل التدجين الى ما لا نهاية : بحيث أن مجمل القوى تركب الله وليس الانسان ، وأن الانسان لا يمكنه أن يجد مكانه الا بين نظامي لا تناهي . لهذا السبب عرف « ميرلوبونتي » التفكير الكلاسيكي بأسلوبه وطريقته البريئة في تصور اللاتناهي : فلم يكن اللاتناهي سابقاً على التناهي فحسب ، بل كانت صفات الانسان وقد أضفيت عليها صفة اللاتناهي ، هي المعبر المؤدي لتركيب وحدة الله المتعذر ادراكها على الأفهام. لكي يظهر الانسان كمركب نوعي ، يتعين على قواه المكونة أو المركبة أن تدخل في علاقة مع قوى جديدة تتوارى عن قوة التمثيل ، بل تقيلها وتخلعها . هذه القوى الجديدة هي قوة الحياة والعمل واللغة ، من حيث أن الحياة تكشف عن « تنظيم » ، والعمل يكشف عن « انتاج »، واللغة تكشف عن« نسب » ، أي تكشف عما يقصي التمثيل ، ويضعها خارجه . أولا ، ليست هذه القوى الغامضة ، أي قوى التناهي ، انسانية، بل

ترتبط بقوى الانسان من أجل تقليصه في تناهيه الخاص به ، واشاعة تاريخ فيه يجعل منه الانسان في لحظة ثانية ، تاريخاً له[23]. في هذه التشكيلة التاريخية الجديدة للقرن التاسع عشر ، يصبح الانسان اذن هو المركب من مجمل القوى المكونة « المنجذبة » . لكننا لو تصورنا انجذاباً ثالثاً ، لدخلت قوى الانسان أيضاً في علاقة بقوى أخرى ، بصورة تؤدي الى تركيب شيء آخر لن يكون هو الله أو الانسان : يمكن القول أن موت الانسان يرتبط بموت بالله ، لصالح مركبات جديدة واجمالاً ، ما تنفك علاقة القوى المركبة مع الخارج تغير الشكل المركب وتنوعه في اطار علاقات جديدة ، حسبما يحلو للتركيبات الجديدة . أن يكون الانسان صورة على الرمال بين صعود وانحدار ، أمر ينبغي أن يفهم بمعناه الحرفي : أي أنه تركيب لا يظهر الا بين تركيبين آخرين ، تركيب ماض كلاسيكي كان يجهله ، وتركيب مستقل لن يعرفه[24]. لا مجال للغبطة أو التحسر . ألا يقال عادة أن قوى الانسان ارتبطت بقوى أخرى ، قوى الاعلام ، التي تكون معها شيئاً آخر عدا الانسان ، أنظمة لا تقبل القسمة «انسان ـ آلة » ، مع آلات من النوع الثالث ؟ وحدة مع السيلسيوم عوض أن تكون مع الكربون ؟ .

من الخارج دوماً تتلقى أية قوة تأثيراً ما من قوى أخرى أو تؤثر هي في أخرى . قوة السيطرة أو الخضوع ، قوة تتنوع ويتغير محتواها حسب القوى المرتبطة . والمبيان كتحديد لمجموع ما من علاقات القوى ، لا يستنفد أبداً قوته وقدرته على الدخول في علاقات جديدة أو في تركيبات جديدة . يأتي المبيان من الخارج ، لكن الخارج لا يختلط بأي مبيان ، بل ما يفتأ « يستخرج » منه مبيانات أخرى . وعلى هذا الأساس، كان الخارج باستمرار انفتاحاً على مستقبل ، لاشيء يعرف نهاية معه ، ما دام لا شيء يعرف بداية ، بل كل شيء يتغير ويتحول من صورة الى أخرى. وبهذا المعنى كانت القوة تتوفر ، بالنظر الى المبيان الذي يعكسها ، على طاقة أو على قدرة ثالثة تتخذ

(23) هذا هو المهم في كتاب الكلمات والأشياء : لا يقول فوكو البتة أن الحياة والعمل واللغة قوى للانسان يعيها مثلما يعي تناهيه الخاص. بل يرى بالعكس أن الحياة والعمل واللغة تنبثق أول الأمر كقوى متناهية خارجية بالنسبة للانسان ، تفرض عليه تاريخاً ليس تاريخاً لها . وفي مرحلة ثانية يمتلك الانسان ذلك التاريخ ويجعل من تناهيه هو أساساً . راجع ، ص 380 – 380، حيث يلخص فوكو لحظتي هذا التحليل.

(24) جملة ينتهي بها كتاب الكلمات والأشياء . نتقدم في ملحق هذا الكتاب بتحليل ضاف لمسألة موت الانسان .

شكل قدرة على « المقاومة » . ذلك أن مبيان القوى ، يعرض الى جانب (أو على الأصح ، في مقابل) فرديات السلطة التي توافق علاقاته ، فرديات المقاومة ، مثل « النقط ، العلائق ، البؤر » التي تظهر هي الأخرى على الأبنية ، انما بكيفية تجعل تغيرها ممكناً[25]. يضاف الى هذا ، أن الكلمة الأخيرة للسلطة ، هي أن المقاومة أسبق ، باعتبار أن علاقات السلطة ترتبط كلها بالمبيان . أما ألوان المقاومة فتظل ، بالضرورة في علاقة مباشرة بالخارج الذي صدرت عنه المبيانات[26]. الى حد أن حقلاً اجتماعياً ما يقاوم أكثر مما يخطط لاستراتيجيات ، وأن تفكير الخارج تفكير للمقاومة .

منذ ثلاثة قرون ، اندهش بعض الأغبياء من محاولة « سبينوزا » تحرير الانسان رغم أنه لم يكن يؤمن بحرية هذا الأخير ولا بخصوصية وجوده ونوعيته . واليوم ، نجد أن بعض الأغبياء الجدد ، أو لعلهم نفس الأغبياء وقد بعثوا الى الحياة ثانية ، يندهشون لخوض فوكو غمار الصراعات السياسية ودلوه بدلوه فيها ، وهو الذي يقول بموت الانسان . وفي مقابل رأي فوكو هذا ، دافعوا عن ضمير كلي وشمولي خالد لحقوق الانسان الذي يجب أن يظل في معزل ومنأى عن كل تحليل . وليست هذه هي المرة الأولى التي يكون فيها اللجوء الى الخالد والاستنجاد به ، قناعاً يخفي خلفه تفكيراً واهياً ومترعاً ، بل وجاهلاً حتى بالدوافع التي تغذيه كتفكير (والتي تتمثل في التحولات التي عرفها القانون الحديث ابتداء من القرن التاسع عشر) . صحيح أن فوكو لم يول أبداً أي عناية كبرى للكلي والخالد : فهما مجرد أثرين ثقيلين أو شاملين مصدرهما بعض التوزيعات الفردية في هذه التشكيلة التاريخية أو تلك ، ضمن عملية تقنين معينة . فخلف الكلي ، ثمة ألاعيب الفرديات وانتشارها ، وما شمولية الانسان وخلوده سوى ظل تركيبة فردية وعابرة حملتها الى الوجود أبنية تاريخية . والحالة الوحيدة تعرف تساوقاً بين الشمولي والعبارة هي الرياضيات ، لأن « عتبة الصورنة »

---

(25) ارادة المعرفة ، ص 126 – 127 (« تعدد نقاط المقاومة» تندمج أو تبنى لجعل « ثورة ما ممكنة ») .

(26) راجع كتاب Dreyfus وRabinon ص 300.. حول الفرديات الست التي تقدمها أشكال المقاومات المعاصرة، أنظر ص 301 – 302 (خصوصاً « عرضانية » الصراعات الحالية ، ذلك المفهوم الذي يلتقي فيه فوكو وF.Guattari). نجد لدى فوكو تجاوباً مع أطروحات Mario tronti في تأويله للماركسية (Ouv-riers et capital, Ed. Bourgeoi) : فكرة مقاومة « عمالية » تكون أسبق بالنسبة لإستراتيجية رأس المال .

تطابق فيها عتبة الظهور . وعداها لا يأتي الشمولي الا بعدياً[27]. وهذا ما خول لفوكو رفض « حركة لوغوس تسمو بالفرديات الى مستوى التصور »، لأن « هذا اللوغوس ليس في حقيقته سوى خطاب محصل سلفاً » ، جاهز وكامل لا نقص فيه ، يظهر حينما يقال كل شيء ، عندما يموت كل شيء ويعود ثانية الى « الجوانية الصامتة للوعي بالذات »[28]. ان موضوع الحقوق ، من حيث هو موضوع يصير ، لهو الحياة ، كحامل لفرديات « كامتلاء واكتمال لتحقق الممكن » ، وليس الانسان كشكل أبدية . ويأتي الانسان ، بالطبع ، ليحل مكان الحياة ، مكان موضوع الحقوق ، حينما ركبت القوى الحيوية في لحظة معينة ، صورته ، أي في العصر السياسي للدساتير . أما اليوم ، فان الحقوق عرفت أيضاً تغييراً من حيث موضوعها ، ذلك أنه حتى في الانسان . دخلت القوى الحيوية في تركيبات جديدة مؤلفة صوراً أخرى : « ان ما أصبح مطلوباً ومستهدفاً ، هو الحياة . . . إن الحياة هي التي باتت تمثل ، أكثر من الحق ، رهان الصراعات السياسية ، رغم أن هذه الأخيرة تصاغ في عبارات حقوقية . الحق في الحياة وفي الاستمتاع بالجسم ، الحق في الصحة والسعادة ، وفي اشباع الحاجات . . أي ذلك الحق الذي تجاهله النظام القضائي الكلاسيكي بقوة . . »[29].

انه ذات التحول الذي عرفه وضع « المثقف »، فخلال عدد من الحوارات التي أجراها فوكو ، والتي نشرت ، بيّن أن المثقف اعتبر نفسه خلال فترة طويلة ممتدة من القرن الثامن عشر حتى الحرب العالمية الثانية (ربما حتى سارتر مروراً بـ« زولا » و« رولان » . .) حاملاً لقيم شمولية : وقد كان ذلك بسبب أن فردية الكاتب كانت

---

(27) حفريات المعرفة ، ص 246 « ان امكانية نشأة الرياضيات كعلم ، افترضت أن يمثل منذ البداية ، ما يبقى ، عادة ، في غيرها من العلوم ، متبعثراً على مدى التاريخ : لذلك كانت وضعيتها الأولى بمثابة ممارسة خطابية كاملة الصورنة . . . غير أن هذا الاصرار على اتخاذ نشأة الخطاب الرياضي نموذجاً أصلياً لميلاد وتطور سائر العلوم الأخرى، سوف يسقطنا في خطر مجانسة كل الأشكال النوعية ومماثلة كل الصور المتمايزة التاريخية . . ».

(28) نظام الخطاب، ص 50 – 51.

(29) ارادة المعرفة ، ص 191 (راجع المقطع بكامله ص 179 – 191). حول تطور القانون الذي يتخذ موضوعاً انسانياً له ، الحياة (القانون الاجتماعي) بدلاً عن الشخص (القانون المدني) نلاحظ أن تحليلات F.Ewald في كتابه L'Etat providence, Grasset ص 24 – 27 تستلهم آراء فوكو .

تطابق موقع « رجل قانون ـ موثق »، قادر على أن يتصدى لمحترفي القانون ، وعلى أن تنتج ، بالتالي ، أثراً شمولياً . اذا كانت صورة المثقف قد أصابها تغير (وكـذلك وظيفة الكاتب) ، فلأن موقعه تبدل أيضاً : لقد صار المثقف يتقلب اليوم بين أمكنة نوعية وبين نقاط فردية « عالم ذري ، عالم بالوراثيات ، اعلامي ، عالم صيدلة . . »، منتجاً بذلك آثاراً عرضانية ، لا آثاراً شمولية ، مؤدياً دور نقطة تلاق تقاطع متميزة[30]. بهذا المعنى صار المثقف وحتى الكاتب (وهذه ليست سـوى امكانيـة) قادرين على المشـاركة في الصـراعات والمعـارك الراهنـة ، سيمـا وأن هذه الأخيـرة ، أصبحت « عرضانية » . لقد بات المثقف أو الكاتب ، قادرين اذن على أن يتكلما لغة الحياة ، بدل لغة الحق .

ماذا كان فوكو يريد قوله ، في أروع صفحات كتابه « ارادة المعرفـة »؟ حينما يتخلى مبيان السلطة عن نموذج السيادة ليقيم نموذجاً تأديبيـاً ، حينما يصبـح « سلطة حيوية »، « سياسة حيوية » للسكان ، حينما يغدو تحملاً للحياة وتدبيـراً لها ، فهـذا يدل على أن الحياة انبثقت كموضوع جديد للسلطة . لذا أقلع القانون شيئاً فشيئاً عما كان يؤسس امتياز من له السـيادة ، وحق التحكم في الرقاب (عقوبة الموت) ، لكنه أفسـح المجال في الـوقت ذاته لعـدد من المذابـح والمجازر : لا بـالعودة ثـانية الى القانون العتيق الذي يبيح القتل ، بل باسم العرق والمجال الحيوي هذه المرة ، باسم شروط حياة للسكان تريد أن تكُون أفضل ، والمحافظة على بقائهم بصورة تريـد أن تكون مثلى ، فيعامل العدو لا على أنه خصم قانـون للعاهـل القديم ، بـل على أنه عامل تسميم وعدوى ، يمثل « خطراً بيولـوجياً » . « لـذات الأسباب » اذن ، تتجـه عقوبة الاعدام حالياً نحو الاندثار ، وتتزايد التضحيات ، شاهدة لا سيما على مـوت الانسان . غير أنه في الوقت ذاته الذي اتخذت فيه السلطة الحياة موضوعاً أو هدفاً ، نجد أن مقاومة السلطة كانت هي الأخرى تستند الى الحياة ، وتحولها الى سلاح ضد السلطة . « على هـذا الأساس قبلت الحيـاة ، على الفـور ، كمـوضـوع سيـاسي ، وحولت كمعارضة للنظام الـذي كان يسعى الى كبحهـا « وخلافـاً لما كـان يقول بـه

---

(30) حول المثقف « الشمولي » والمثقف « النوعي »: أنظر : L'Arc, N°70 الحوار الذي أجراه Fontana مع فوكو.

الخطاب الجاهر ، ليست ثمة حاجة تدعو الى الاستناد الى الانسان قصد مقاومة السلطة . ان ما تستخلصه المقاومة من الانسان المسن ، هو قوى حياة أطول وأنشط وأكثر ايجابية وغنى بالامكانات ، كما كان يقول نيتشه . ولم يكن الانسان الأعلى أبداً شيئاً آخر غير ذلك : **في الانسان ذاته يجب تحرير الحياة** ، ما دام الانسان نفسه يعتبر كبحاً لها . تغدو الحياة مقاومة للسلطة في الوقت الذي تتخذ فيه السلطة من الحياة موضوعاً . وتنخرط العمليتان هنا في نفس الأفق (نلحظ ذلك جيداً في مسألة الاجهاض عندما ترفع السلطات الأكثر محافظة شعار « الحق في الحياة » . .) . عندما تغدو السلطة حياة سلطة ، تغدو المقاومة سلطة الحياة ، سلطة حيوية تند عن التحديد وعن التعيين داخل مسالك هذا المبيان أو ذاك . القوة الصادرة عن الخارج ، أليس في هذا دعوة الى فكرة الحياة ، أليس فيه نوع من النزعة الحيوية التي ينتهي اليها فكر فوكو؟ أليست الحياة ، تلك القدرة على مقاومة القوة ؟ منذ كتاب «**ميلاد العيادة** » وفوكو يبدي اعجابه بـ« بيشا » وباكتشافه لنزعة حيوية جديدة ، خصوصاً عندما عرف هذا الأخير الحياة بمجموع الوظائف التي تقاوم الموت»[31] . وفي الانسان ذاته ، يلزم البحث عن مجموع القوى والوظائف التي تقاوم موت الانسان ، كما يرى فوكو ، شأنه في ذلك شأن نيتشه . كان « سبينوزا » يرى أننا لا نستطيع أن نفهم قوة جسم بشري ، عندما يتحرر من أنظمة الانسان وضوابطه ، . وبالنسبة لفوكو : لا نستطيع أن ندرك قوة الانسان « بوصفه كائناً حياً » ، وكمجموعة من « القوى التي تقاوم »[32] .

---

(31) **ميلاد العيادة** ، ص 146 . « أضفى بيشا Bichat صفة النسبية على مفهوم الموت ، منزلا اياه من علياء المطلق حيث كان ينظر اليه كحادث يتعذر تقسيمه وتجزيئه ، كحادث حاسم لا يستعاد : لقد حوله الى بخار ووزعه داخل الحياة ، في صورة ميتات جزئية ، ميتات تدريجية ، وبطيئة لا تكتمل الا بالموت نفسه . وقد انتهى به هذا الى أن يتصور لها بنية أساسية بالنسبة للتفكير والادراك الطبيين : ماذا تعارض الحياة وماذا تعرض ، بالنسبة لماذا هي معارضة حية ، أي حياة ، بالنسبة لأي شيء تعرض نفسها بكيفية تحليلية ، وبالتالي حقيقية . . تظهر النزعة الحيوية على أرض هذه النزعة الموتية» .

(32) **ارادة المعرفة** ، ص 190 .

ثنايا التفكير وانثناءاته
(تولد الذات)

ما الذي حدث أثناء الصمت الطويل ، شيئاً ما ، والذي أعقب ظهور كتاب إرادة المعرفة ؟ لعل فوكو شعر بسوء فهم ما ، يثيره هذا الكتـاب : أو لم يبق هذا الأخيـر حبيس علاقات السلطة ؟ ألم يسجن نفسه فيها ؟ لقد انتقد نفسـه قائـلاً : « ها نحن أولاء نظل دوماً وباستمرار عـاجزين مـرة أخرى عن تجـاوز الخط، عن المرور الى الجانب الآخر. . . ونختـار دوماً جـانب السلطة ، وجانب مـا تقول بـه أو ترغم على قوله. . . »[1]. ولا شك أنه أجاب نفسه حينما قال : « ان النقطة الأقوى بالنسبة للحياة هي تلك التي تتركز فيهـا طاقتهـا ، هي تلك التي تصطدم فيهـا بالسلطة ، تتصـارع معها ، ساعية الى استعمال قواها أو الافلات من شركها » قد يستطيع تذكيرنا أيضاً بأن المراكز المنتشرة للسلطة ، لا توجد دونما نقط مقاومة أولية ، اذا صح القـول ، وان السلطة لا تتخذ من الحياة هدفاً لها دون أن تكشف عن حياة تقاوم السـلطة ودون أن تظهرها ، بوسعه أن يذكرنا أخيراً أن قوة الخارج ما تنفك تهز المبيانات وتقلبها . وماذا يحدث، بالعكس ، لو أن العلاقات العرضانية للمقاومة لم تتوان عن اعادة بناء وترتيب نفسها ، وعن ملاقاة علاقات السلطة بل وصنعها ؟ ان فشل حركة السجون بعد سنـة

---

(1) La vie des hommes infâmes», p. 16.

1970 أثر بقوة في نفسية فوكو وأحزنه الحزن الشديد، وقد ازداد ذلك الحزن نتيجة أحداث عالمية أخرى اذا كانت السلطة هي التي تؤسس الحقيقة، فما السبيل الى تصور « سلطة للحقيقة » تكف عن أن تكون حقيقة سلطة، حقيقة تترتب عن خطوط عرضانية للمقاومة عوض أن تصدر عن خطوط تكاملية للسلطة ؟ ما السبيل الى « تجاوز الخط »؟ واذا كان يتعين بلوغ الحياة واصابتها كقوة للخارج ، فمن قال لنا أن هذا الخارج ليس فراغاً مروعاً ، وان تلك الحياة التي يبدو أنها تقاوم ، هي مجرد توزيع داخل فراغ ألوان من الموت « الجزئية والتدريجية والبطيئة »؟ لم يعد بالامكان القول ، حتى، ان الموت يحول الحياة الى قدر، خلال حدث « حاسم وغير قابل للقسمة »، بل الموت ، على الأصح ، يتخذ مظاهر جزئية تجعله لا يشكل وحدة قدر غاشم ، انه كثرة تتمايز لتمنح الحياة فرديات وحقائق تظن الحياة أنها تحصل عليها من خلال مقاومتها للموت . ان الحياة هي مجموع وظائف مقاومة الموت ، وماذا يتبقى ، اذن ، عدا المرور بسائر تلك الألوان من الموت المختلفة التي تسبق الموت الأكبر نفسه والذي هو الحد النهائي للحياة ؟ لم تعد الحياة سوى مواقع وأمكنة في موكب جنائزي ، في موت تدريجي يحكم كل الوظائف ويقهر الواحدة منها تلو الأخرى. بهذا المعنى قطع « بيشا » Bichat مع المفهوم التقليدي للموت ، كلحظة حاسمة أو حدث لا يتجزأ ، حدث واحد ، وذلك بكيفيتين : عندما جعل الموت امتداداً للحياة واعتبره ، في الوقت ذاته ، ميتات جزئية وفردية . حينما حلل فوكو أطروحات « بيشا » ، نلاحظ أن نبرته تؤكد بما فيه الكفاية ، أن الأمر يتعلق بشيء آخر غير التحليل الابستمولوجي[2]. أي أن الأمر يتعلق بتصور [جديد] للموت ، وقليل هم الأشخاص ، أمثال فوكو ، الذين ماتوا بالكيفية التي تصوروا بها الموت . هذه القدرة على الحياة ، والتي هي قدرة تخص فوكو ويختص بها ، فكر فيها دوماً وعاشها كذلك كموت متعدد ، على طريقة « بيشا ». ماذا يتبقى اذن سوى تلك الحيوات المجهولة الهوية التي لا تظهر الا في صدام مع السلطة وعراك معها ، في مقارعتها « بألفاظ آمرة وثاقبة » ، قبل أن يلفها الظلام ثانية ، سوى ما كان يدعوه فوكو « حياة أراذل القوم » الذين يستذر الشفقة عليهم واحترامهم ، اعتباراً « لشقائهم وغيظهم وحمقهم المشكوك

---

(2) ميلاد العيادة، ص 142 – 148، 155 – 156.

المتقلب »[3]. وما يدعو الى الاستغراب والدهشة ، هو أن فوكو نفسه ، يود الانتساب الى تلك « الفظاعة » : « لقد انطلقت من جزيئات مزودة بطاقة أكبر ، مما يجعلها دقيقة جداً وصعبة على الادراك والتمييز » الى أن يقول في كتاب « استخدام اللذات » بنبرة مؤثرة « انه الخضوع للذات »[4].

وينتهي كتاب « ارادة المعرفة » صراحة بنوع من التشكك . فاذا كان فوكو قد خلص في نهاية الكتاب الى طريق مسدود ، فليس مرد ذلك طريقته في التفكير في السلطة ، بل كونه اكتشف المأزق الذي تضعنا فيه السلطة ذاتها ، في حياتنا كما في تفكيرنا ، نحن الذين نصطدم بها في أتفه حقائقنا . لن يكون مخرج الا اذا أمسكت بالخارج حركة ما فاقتلعته من الفراغ ، مكان حركة تحوله عن الموت . ولعل هذا محور جديد متميز ، في آن معاً ، عن محور المعرفة ومحور السلطة . هل هو محور يتم فيه استرداد الهدوء والسكون ؟ هل هو اثبات حقيقي للحياة ؟ على أي حال ، لا يتعلق الأمر بمحور يلغي المحاور الأخرى ، بل بمحور يعمل في الوقت ذاته الذي تعمل فيه هي ، وكان يصدها عن الانغلاق في مأزق والخلوص الى باب مسدود . ولعل هذا المحور الثالث هو الذي كان حاضراً منذ البداية ، لدى فوكو (مثلما كانت السلطة حاضرة منذ البداية ، في المعرفة) . لكنه لا يبرز الا في اختلافه وافتراقه ، مع احتمال أن يطفو . وقد شعر فوكو بضرورة اجراء تعديل عام ، غايته اماطة اللثام عن ذلك السبيل الذي يظل مغموراً طالما بقي ملتفاً بالمحاور الأخرى ولم يتم فرزه منها : وهذا التعديل هو ما عرضه علينا في المدخل العام لكتاب « استخدام اللذات » .

---

(3) **La vie des hommes infâmes** ص 16. سنلاحظ أن فوكو لا يتفق ومفهومين للفظاعة . أحدهما قريب من ذلك الذي يقول به « بطاي » G.Bataille، ينظر الى حياة أشخاص الأسطورة أو الرواية انطلاقا من انحرافهم نفسه (وتلك فظاعة معروفة جداً وأشهر من نار على علم ، مثلما نجد ذلك في Gilles de Rais، فكأننا أمام فظاعة كاذبة ومغلوطة) . أما الثاني فهو قريب من ذلك الذي يقول به « بورخيس » Borges والذي يرى أن حياة شخص ما تدخل الأسطورة لسبب تعقد مشروعه مما يجعل فشله واخفاقه لا يجدان معقوليتها الا عن طريق سرد يكون قادراً على افراغ الممكن وتغطية الاحتمالات ، حتى تلك المتناقضة (انها فظاعة « غريبة شاذة » . أفصح مثال لها هو Stavisky) . أما بالنسبة لفوكو، فانه يتصور فظاعة من نوع ثالث ، اذا صح القول ، فظاعة ندرة ، فظاعة أناس تافهين ، حقيرين وبسطاء ، لا يفرضون وجودهم لحظة ما ولا تسلط عليهم الأضواء ، الا من خلال الشكاوي التي تقدم فيهم (ومحاضر الشرطة التي تتهمهم . ومفهوم فوكو هذا قريب من مفهوم تشيكوف Tchekov.

(4) **L'usage des plaisirs**, Gallimard, 1984, p.14.

كيف كان هذا البعد الثالث حاضراً منذ البداية ؟ صادفنا حتى الآن ، ثلاثة أبعاد : العلاقات المكونة المقننة في الأبنية (علاقات المعرفة)، علاقات القوى في مستوى المبيان (السلطة)، والعلاقة بالخارج ، تلك العلاقة المطلقة كما يقول بلانشو ، والتي هي في الوقت ذاته لا علاقة أو انعدام أو غياب لها (تفكير) . هل يعني هذا أن ليس ثمة داخل أو سريرة ؟ ما انفك فوكو ينتقد الجوانية من أساسها ويهاجمها . أما بالنسبة لداخل يكون أكثر عمقاً من أي عالم داخلي ، مثلما كان الخارج أكثر خارجية وابتعاداً من أي عالم خارجي ، فما قوله ؟ ليس الخارج حداً ثابتاً في موضع بعينه لا يزول عنه ، بل هو مادة متحركة ، في تقلص وانقباض دائم ، وهما حركتان ينتج عنهما ظهور ثنايا وانثناءات وغضون تشكل بالنسبة للخارج داخلاً أو طوية : لذا فان هذه الأخيرة ليست شيئاً سوى الخارج نفسه ، ليس الداخل الا الخارج ذاته ، بل انه بالضبط داخل الخارج أو ثناياه . ولقد تعرض كتاب « الكلمات والأشياء » لهذا الموضوع المحوري، بتفصيل : اذا كان الخارج مصدر التفكير ، وكان هذا الأخير ما ينفك عن كونه مرتبطاً به ، فكيف لا يبرز الخارج أو يظهر في الداخل كشيء لا يفكر فيه التفكير ولا تكون له القدرة على التفكير فيه ؟ أو ليس اللامفكر فيه ، هو الآخر ، في الخارج ، انما في أعماق التفكير ، كاستحالة له ، تلك الاستحالة التي تطفو الى الخارج أو تحدث به تجاويف[5]. أن يكون داخل للتفكير أو سريرة ، هو اللامفكر فيه ، هذا ما سبق أن قال به العصر الكلاسيكي حينما طرح اللامتناهي وأنظمته المتباينة . وابتداء من القرن التاسع عشر ، نلاحظ أن أبعاد التناهي التي باتت تستبد بالخارج وتحدده وتشكل « عمقاً » أو « كثافة منكمشة على نفسها »، سريرة الحياة والعمل واللغة ، يقطنها الانسان ، ولو لمجرد الخلود للنوم ، والعكس ، تسكن هي الأخرى انساناً لا يغمض له جفن ، انساناً يقظاً « من حيث هوكائن ، فرد يعمل ، أو ذات تتكلم»[6]. فتارة تخلق انثناءات اللاتناهي ، انحناء في الخارج وتنشيء به غضوناً ، تكون هي السريرة أو الداخل ، وطوراً نجد أن خبايا

---

(5) الكلمات والأشياء ، ص 333– 339 : « الكوجيطو واللامفكر فيه » . مقال : «La pensée du dehors »

(6) الكلمات والأشياء ، ص 263 ،324 ،328 ,335.

التناهي هي التي تفعل ذلك . وقد سبق أن أبرز كتاب « ميلاد العيادة » كيف تقوم العيادة ببسط الأجسام وعرضها على النظر ، ثم كيف سيتحول التشريح المرضي عن ذلك فيما بعد ليبسط أمام النظر خبايا ليست لها علاقة البتة بالجوانية القديمة ، بل لا تعد احياء أو بعثاً جديداً لها ، بل انها ، على الأصح ، داخل جديد لذلك الخارج[7].
الداخل كفعل للخارج : يبدو أن فوكو ، في كل مؤلفاته ظلت تطارده هذه الفكرة ، أي فكرة داخل يكون مجرد انثناء للخارج أو داخل له ، بنفس المعنى الذي تكون به السفينة انثناء من انثناءات البحر . وبخصوص ما جرى به العمل في عصر النهضة ، حينما كان الحمقى يوضعون بسفينة شراعية تتلاطمها المياه ، يقول فوكو : « يوضع الأحمق داخل الخارج والعكس. . . فهو أسير وسط طريق ، هو أكثر الطرق لا تقيداً ، محكم الوثاق ، لا نهاية لطريقه . انه عابر سبيل، لا كسائر عابري السبيل، أي انه سجين مهاجر»[8]. ليس للتفكير من كائن آخر سوى هذا الأحمق نفسه . يقول بلانشو بخصوص فوكو : « اخفاء الخارج ، يعني تحويله الى داخل واضفاء صفة الداخل عليه ، تحويله الى جوانية انتظار أو استثناء »[9].

بعبارة أصح ، ان الفكرة المحورية التي استبدت بفوكو ، هي فكرة التناسخ . ولسنا نعني به على الاطلاق خروجاً للداخل الى السطح أو امتداده نحوه ، بل هو بالعكس دخول للخارج وانضافه بالجوانية ، تحوله الى داخل ، ليس التناسخ انفصاماً ما وازدواجاً للواحد ، بل تضاعف للآخر ، ليس اعادة لأصل اعادة مطابقة ، ليس اعادة للذاتية وللشيء عينه ، بل تكرار للمختلف . ليس انبثاقاً لذات ، أو لضمير متكلم أو أنا متكلم ، بل تكريس للا أنا أو لآخر دوماً محايث . وليس الآخر أو الغير على الاطلاق هو الذي يتناسخ في التضاعف ، بل انه أنا الذي أرى نفسي كتناسخ للغير : لا أجد نفسي في الخارج ، بل أجد الآخر ، الغير في أنا («يتعلق الأمر هنا باظهار كيف أن الآخر ، الغير ، هو كذلك الأقرب والذاتي »[10]. يشبه هذا بالضبط ،

---

(7) ميلاد العيادة، ص 132 – 133، 138، 164.

(8) تاريخ الحمق ، ص 22.

(9) Blanchot, L'entretien infini, Gallimard, 292.

(10) الكلمات والأشياء ، ص 350 (وكذا حول الانسان مثلما يتصوره كنط « كمركب اختباري ترنسندنتالي » و« تضاعف اختباري نقدي ») .

ما نعثر عليه في علم الأجنة ، من دخول جزء من نسيج في نسيج آخر، ويشبه عملية تبطين ثوب بثوب آخر، مثلما يلجأ الى ذلك في الخياطة : الثني ، الطي ، الرتق. . . لقد أبرز كتاب « حفريات المعرفة » في أكثر صفحاته طرافة وغرابة ، كيف أن جملة ما تردد « شيئاً آخر ، لا يكاد يتميز عنها (ضرب حروف A,Z,E,R,T على ملامس الآلة الكاتبة) . كما أن كتبه حول السلطة أظهرت كيف أن الاشكال المبنية تكرر علاقات القوى التي لا تكاد تتميز عنها ، بينت كيف كان التاريخ تبطيناً للصيرورة . وان هذا الموضوع المحوري الثابت لدى فوكو ، هو الذي كان قد شكل محور تحليل كامل بمناسبة الاهتمام باحياء « ريمون روسيل » . ذلك أن ما اكتشفه هذا الأخير هو : جملة الخارج ، تكررها واستعادتها في جملة ثانية ، الاختلاف البسيط بين الجملتين («الانثناء ») التواؤهما ، تبطين احداهما للأخرى وانتساخها لها . ولم يعد الانثناء يفهم هنا بمعناه العادي ، كانثناء يصيب نسيجاً ، أي كحدث طارىء وعارض ، بل انه القاعدة الجديدة التي يلتوي بها النسيج الخارجي أو يدخل جزءاً منه في نسيج آخر فيتضاعف . القاعدة « الاختيارية » أو الرجم بالبخت والصدفة . وكما يقول فوكو ، ان ألاعيب التكرار والاختلاف والتبطين وغرائبها ، هي التي « توجه » كل ذلك وتتحكم فيه . وليست تلك هي المرة الأولى التي يقدم فيها فوكو عرضاً أدبياً مفعماً بالدعابة ، لما يمكن أن يقام عليه الدليل في الابستملوجيا ويبرهن عليه في اللسانيات وسائر ميادين المعرفة الجادة . فكتاب « ريمون روسيل » أضفى الالتئام والانسجام على سائر معاني لفظ تبطين بغية اثبات واظهار كيف أن الداخل انثناء للخارج المفترض والتواء له[11]. ونلاحظ أن المنهج الأخير لـ« روسيل » والقائم على توليد الأقواس الداخلية من بعضها البعض ، يضاعف الانثناءات في الجملة ويكثر منها . من هنا تأتي أهمية هذا الكتاب . ومما لا شك فيه ، أن السبيل الذي يرسمه هذا الكتاب هو ذاته سبيل مضاعف : ولا يعني هذا على الاطلاق أننا قادرون على قلب الأولية وعكسها : فيظل الداخل دوماً باستمرار بطانة للخارج .

---

(11) انها الأفكار المحورية الثابتة في كتاب ريمون.روسيل (خصوصا الفصل II حيث اجملت سائر معاني لفظ تبطين بصدد نص روسيل Chiquenaude لا سيما

«Les Vers de la doublure dans la pièce de Forban talon » rouge, 37 – 38.

بل ، وكما هو الشأن مع « روسيل » الطائش المتهور ، تظهر الرغبة تارة في فك عرى تلك البطانة وحل الثنايا والانثناءات بايماءة مدبرة »، من أجل العودة ثانية الى الخارج ، والى « فراغه الخانق »، وطوراً مع شخص أكثر حصافة وعقلا ، رغم أنه بلغ أوج جسارة أخرى ، وهو « ليريس «Leiris»، تظهر الرغبة في تكريس الثنايا والانثناءات والمحافظة عليها ، ومن انثناء لانثناء ، حتى نصبح محاطين بثنايا وخفايا تشكل « ذاكرة مطلقة » ، من أجل جعل الخارج عنصراً حيوياً متجدداً[12]، أو كما جاء في « **تاريخ الحمق** » : حتى تكون داخل الخارج وخارج الداخل. . . ولعل فوكو لم ينقطع عن التأرجح بين سبيلي التناسخ هذين ، مثلما أكد عليهما وأوضحهما منذ وقت بعيد : انهما الاختيار بين الموت والذاكرة . ولعله اختار الموت ، شأنه شأن روسيل ، لكنه اختار الموت دون أن يكون معفياً وفي حل من المرور بانعراجات الذاكرة وانثناءاتها .

بل لعل من الضروري العودة بالمشكل الى أصوله اليونانية. . . وقتها يلقى المشكل الأكثر اثارة وحمية شروطاً قادرة على نهدئته ورده أكثر فتوراً . فاذا كانت فكرة الانثناء قد استبدت بكل أعمال فوكو ومارست تأثيرها القوي على تفكيره ، ولم تطف على السطح الا مؤخراً لتحتل مكان الصدارة ، فلأنه حكم بعداً جديداً يتميز في آن معاً ، عن علاقات القوى أو السلطة والاشكال المبنية للمعرفة ، انه « الذاكرة المطلقة » . تبدي التشكيلة اليونانية علاقات سلطة جديدة ، مختلفة أشد الاختلاف عن تلك التي كانت تبديها التشكيلات الامبراطورية القديمة ، وهي علاقات تتحقق في الرؤية اليونانية كنظام قابلية رؤية ، وفي اللوغوس اليوناني كنظام عبارات . نستطيع اذن ، أن نتكلم عن مبيان سلطة يتخلل معارف مقترنة ويشملها ويتمثل في :

---

(12) تدعو الحاجة الى ايراد النص حول روسيل وليريس كاملاً ، لأنه يرتبط ، حسب اعتقادنا بشيء له علاقة بحياة فوكو بأجمعها : « من بين عدد من الأشياء التي لا أساس لها ، ومن بين عدد من الحالات المدينة الخارقة والوهمية ، يلتقط ليريس تدريجياً وببطء وهويته الخاصة ، كما لو أن الذاكرة المطلقة كانت تخلد الى النوم ، بأوهام وأحلام لم تمت تماماً ، داخل الانثناءات . وهبة الانثناءات ، يبعدها روسيل بايماءة متدبرة ليعثر فيها على فراغ خانق ، على غياب للوجود ، غياب يتصرف فيه فيما بعد بكامل سيادته وسلطانه ، من أجل تشكيل صور لا نوع لها ولا نسب ولا قرابة تجمعها » (28 – 29).

« التحكم في النفس وحسن قيادتها ، تدبير شؤون البيت ، المشاركة في حكم المدينة والاهتمام بشؤونها ، انها ثلاث ممارسات ، يجمعها ذات الصنف ». ويؤكد « كزينوفون » Xénophon أن ثمة اتصالاً وارتباطاً وتماثلاً بين هذه الفنون الثلاثة ، كما أن بينها تدرجاً زمنياً من حيث ممارسة الفرد لها في الحياة »[13]. ومع هذا ، ليس ها هنا ، تكمن أكبر طرافة وأكبر تجديد ظهر به اليونان . ان طرافتهم ستظهر لاحقاً ، حينما كرسوا نوعاً من « الانفكاك » أو « فك الارتباط » المزدوج : تم بحسبه فصل الارتباط في آن واحد بين « الممارسات التي تخول للمرء أن يحسن قيادة نفسه وتوجيه سلوكها» وبين السلطة كعلاقة قوى ، والمعرفة كشكل مبني ، وكـ« قانون » للفضيلة . فهناك ، من جهة أولى ، « علاقة الذات بذاتها » ، التي تأخذ في التفرع والانحدار عن علاقته بالآخرين ، هناك من جهة ثانية ، « تكون الذات » ونشأتها نشأة تأخذ في التفرع عن القانون الاخلاقي كقاعدة معرفة[14]. هذا التفرع والانفصال ، يتعين فهمهما بمعنى استقلال علاقة الذات بذاتها . فكما لو أن علاقات الخارج تنثني وتنطوي لتصبح بطانة داخلية فتفسح المجال لانبثاق علاقة الذات بذاتها ، وتنشيء داخلاً أو طوية تتعمق وتكبر حسب بعد خاص بها : هو « L'enkrateia علاقة الذات بذاتها كتملك للنفس وسيطرة عليها « سلطة تمارسها الذات على ذاتها ضمن سلطة تمارس على الآخرين» (كيف يمكننا ادعاء حكم الآخرين وتدبيرهم اذا لم يحكم المرء زمام نفسه ويدبرها؟) الى حد أن علاقة الذات بذاتها تغدو « مبدأ انتظام داخلي » بالنسبة للسلطات المؤسسة والمكونة للسياسة والأسرة والخطابة والألعاب الرياضية ، وحتى الفضيلة[15]. هذه هي الصيغة اليونانية للانثناء والتبطين : فك ارتباط أو فصل يخلق خفاء ويخلق تفكيراً .

انها على الاقل ، رواية فوكو حول ما جاء به اليونان من جديد وطريف . وهي تبدو في نظرنا ، رواية لها جانبها الكبير من الأهمية ، من حيث دقتها وتواضعها الجلي . ما فعله اليونان ، ليس اكتشاف الوجود أو بسط المنفتح داخل ملحمة

---

(13) استخدام اللذات ، ص 88.

(14) استخدام اللذات ، ص 90 (حيث يتحدث عن مظهري« فك الارتباط » بعد العصر الكلاسيكي) .

(15) استخدام اللذات ، ص 93 – 94.

تاريخية عالمية . ما فعلوه أدنى من ذلك بكثير كما قد يقول فوكو[16] . ان ما فعلوه هو طي الخارج وثنيه في ممارسات عملية . اليونان هم أول بطانة . ان ما له شأن بالخارج ويتعلق به ، هو القوة ، فهذه الأخيرة أساساً علاقة بقوى أخرى : ولا تنفصل هي الأخرى عن سلطة التأثير في قوى أخرى (التلقائية) وعن قابلية التأثر بأخرى (التأثر) . وما يترتب عنها هو علاقة القوة بذاتها ، سلطة التأثير في ذاتها والتأثر بذاتها . وحسب المبيان اليوناني ، الأحرار هم وحدهم الذين يتمتعون بالقدرة على امتلاك الغير والتحكم فيهم (« فاعلون أحرار » و« علاقات صراع » بينهم ، تلك هي الملامح المميزة لذلك المبيان)[17] . لكن ، كيف يحكمون غيرهم ، لو لم يحكموا قياد أنفسهم هم ؟ لا بد وأن يكون حكم للآخرين مصحوباً بغلبة أنفسهم هم الغالبين ، واحكام قيادتها . لا بد وأن تكون العلاقات الاختيارية التي يمارس بها الانسان الحر السلطة مرفوقة بالعلاقات الاجبارية للسلطة . يتعين أن تبرز الى النهار ، من تلك القوانين الأخلاقية المكونة للمبيان هنا وهناك (في المدينة والأسرة والمحاكم والألعاب الرياضية . .) « ذات » ، يجب أن تظهر « ذات » تفك الارتباط وتقطع مع القانون في جانبه الداخلي . وهاك ما فعله اليونان : قاموا بطي القوة وثنيها دون أن تفقد صفتها كقوة . أرجعوها الى الذات . وعوض تجاهل الجوانية والفردية والذاتية ، خلقوا الذات ، لكن كمشتق وكحاصل « توليد الذات » ، كنتاج عملية اضفاء الصفة الذاتية . اكتشفوا « الوجود الجمالي » ، أي البطانة ، علاقة الذات بذاتها ، القاعدة الاختيارية للانسان الحر[18] . (وما لم نعتبر هذا المولود كبعد جديد ، فانه سيقال بأنه

(16) من هنا كانت نبرة فوكو التي تبين عن اختلافه مع هيدغر (لا ، لم يكن اليونان « ذائعي الصيت » ، راجع حواره مع Barbedette وScala في مجلة Les Nouvelles 28 يونيو 1984).

(17) لم يحلل فوكو مبيان القوى أو علاقات السلطة الخاصة باليونان ، مباشرة . ويرجع ذلك الى تقديره أن المؤرخين المعاصرين أمثال Détienne وVernant وVidal وقد فعلوا ذلك . وتكمن أصالتهم في أنهم حددوا الفضاء الفيزيائي والذهني اليوناني تبعاً لنمط علاقات السلطة الجديدة . ومن زاوية النظر هذه، من الهام جداً أن نبين كيف أن علاقة « الصراع » التي يلمح اليها فوكو دوماً ، وظيفة أصلية (تظهر على الخصوص في سلوك الحب) .

(18) عن نشأة الذات أو تولدها ، كذات يتعذر ردها الى القوانين والقواعد ، أنظر استخدام اللذات ، ص 33 – 37، عن دائرة الوجود الجمالي ، ص 103 – 105 . ليست « القواعد الاختيارية » عبارة من وضع فوكو ، بل استعملها Labov ، وقد بدت لنا مطابقة لوضع العبارة ومنزلتها ، وقادرة على الاشارة الى وظائف التغير الداخلي وليس الى الثوابت . وهي تأخذ هنا معنى أعم ، حيث تشير الى وظائف انتظامية متميزة عن القواعد والقوانين .

لا وجود لذاتية لدى اليونان ، خصوصاً اذا اتجه البحث عنها في جانب القواعد الاجبارية . .)[19]. والفكرة الاساسية التي يقول بها فوكو ، هي أن بعد الذاتية يتفرع عن السلطة والمعرفة ويتولد منهما دون أن يكون تابعاً لهما .

وبشكل آخر ، يعتبر كتاب « **استخدام اللذات** » الكتاب الذي يعكس نوعاً من الانفصال عن الكتب السابقة ، وذلك من عدة وجوه . فهو يتخذ ، من جهة ، منطلقاً له ، مدة زمنية طويلة تبدأ مع الاغريق وتستمر حتى عصرنا هذا مروراً بالمسيحية ، في الوقت الذي انصرفت فيه الدراسات السابقة الى انتقاء مدد زمنية قصيرة انحصرت بين القرن السابع عشر والقرن التاسع عشر . من جهة أخرى ، يكتشف علاقة الذات بذاتها كبعد جديد يتعذر رده الى علاقات السلطة والى علاقات المعرفة اللتين شكلتا محور موضوع كتبه السابقة : لذا دعت الضرورة الى اعادة تنظيم شاملة . ثمة ، أخيراً ، قطيعة مع كتاب « **ارادة المعرفة** » الذي درس الجنسية من زاوية نظر السلطة والمعرفة معاً . في كتاب « **استخدام اللذات** » اكتشف فوكو علاقة الذات بذاتها ، لكن صلتها بالجنسية تظل مبهمة[20] . الى حد أن أول خطوة على سبيل تحقيق اعادة التنظيم الشاملة ، تمت هنا : كيف تكون لعلاقة الذات بذاتها صلة انتقائية بالجنسية بصورة تسمح بتجديد مشروع « تاريخ للجنسية » ؟ الجواب دقيق جداً : مثلما أن علاقات السلطة لا تقوم الا بتحققها وخروجها الى الفعل ، كذلك علاقة الذات بذاتها ، والتي تطوي تلك العلاقات وتبتلعها ، لا تقوم الا بالخروج الى الفعل . وانها لتخرج الى الفعل في الجنسية كما تتحقق فيها . ربما ليس على الفور ومباشرة ، ذلك أن نشأة داخل أو طوية وجوانية ، هي أولاً غذائية ، عوض أن تكون جنسانية ، وبدل أن تكون متعلقة بالجنس وتعكس دوره[21] . غير أننا هنا ، محتاجون الى أن نتساءل عما يجعل

---

(19) **استخدام اللذات**، ص 73.

(20) يقول فوكو بأنه شرع في تأليف كتاب حول الجنسية (تكميلا لكتاب **إرادة المعرفة** وسيراً في خطاه) ، « ثم ألفت كتاباً عن مفهوم الذات وعن تقنيات هذه الأخيرة التي تغيب فيها الجنسية ، وكنت مضطراً الى أن أكتب للمرة الثالثة كتاباً أحاول فيه الحفاظ على توازن بينهما » . راجع : **Dreyfus et Rabion. Michel Foucault...** p.323.

(21) **استخدام اللذات**، ص 61 – 62.

الجنسية « تنفصل » تدريجياً عن الغذاء ، وتغدو مجالاً تتحقق فيه علاقة الذات بذاتها وتخرج الى الفعل ؟ ذلك أن الجنسية كما عاشها الاغريق وخبروها ، ترى في الأنثى العنصر المتلقي للقوة ، أي العنصر السلبي ، وفي الذكر العنصر الفاعل أو الايجابي[22]. وقتها ، تصبح علاقة الذات بذاتها لدى الانسان الحر ، كامتلاك لزمام النفس وقيادتها ، تخص الجنسية من ثلاثة وجوه : تتخذ صورة « علم حمية » الذات ، يتعلم فيه المرء كيف يحكم قيادة نفسه كي يصبح قادراً على التحكم في جسمه والحفاظ على نشاطه ، تتخذ صورة « علم تدبير » المنزل ، يتعلم به المرء كيف يحكم قيادة نفسه ليكون قادراً على احكام قيادة الزوجة لتبلغ بنفسها درجة قابلية التأثر ، تتخذ صورة مزدوجة لعلم « تربية جنسية » للصبيان يقوم على تعليمهم احكام قيادة النفس ، ليتعلم الصبي ، بدوره ، كيف يقود نفسه بنفسه ، ويكون فعالاً ايجابياً ، يقاوم سلطة الغير[23]. فاليونان لم يكتشفوا علاقة الذات بذاتها فحسب ، بل ركبوها كذلك بالجنسية . ومجمل القول ، تلتقي ، لدى اليونان ، علاقة الذات بذاتها ، بالجنسية التقاء له ما يبرره .

وتتم اعادة التوزيع والتنظيم بمفردها ، على الأقل ، في مدة زمنية طويلة . ذلك أن علاقة الذات بذاتها لن تظل منطقة حكراً على الانسان الحر ، ولن تظل طليقة وفي حل من أي خضوع لـ« نظام مؤسسي واجتماعي » . بل ستسقط في شرك علاقات السلطة وعلاقات المعرفة . ستندمج من جديد في هذين النظامين اللذين تفرعت عنهما في بداية أمرها . ستعود اليها ثانية . وسيجد الفرد الداخلي نفسه خاضعاً ، واقعاً في حبال معرفة « أخلاقية » ، بل يغدو رهان السلطة ، يعكس مجموع علاقات القوى . فكما لو أن الانثناء انبسط ، وتحول تولد ذات الانسان الحر الى انقياد واذعان . « خضوع للغير ، عن طريق التحكم في الذات والارتباط بالآخرين » . مع كل اجراءات التفردن والتميز التي تقيمها السلطة ، والتي يكون موضوعها الحياة اليومية لأولئك الذين ستنعتهم بأنهم ذواتها ، وجوانيتهم ، وهو من جهة ثانية « تعلق (كل فرد (بهويته الخاصة من خلال وعيه بذاته ومعرفته بها »، مع كل تقنيات العلوم

---

(22) استخدام اللذات ، ص 55 – 75.

(23) استخدام اللذات ، الفصل II وIII وIV (عن « تشريح الولد »، ص 243).

الأخلاقية ، وعلوم الانسان التي ستشكل معرفة الذات[24]. وفي آن واحد ، انتظمت الجنسية حول بؤر السلطة ، مفسحة المجال لـ« علم بـالجنس » Scientia Sexualis واندمجت في سلك « السلطة ـ المعرفة » ، أي الجنس (ولهذا التحليل صلة بذلك الذي قام به فوكو في « ارادة المعرفة »).

هل علينا أن نستنتج من هذا أن البعد الجديد الذي رسخه اليونـان ، يختفي ليرتد الى محوري المعرفة والسلطة ويتقلص فيهما ؟ بأي معنى يكون من الضروري العودة الى اليونان قصد العثور على علاقة الذات بذاتها كفردية حرة . لا شيء من هذا صحيح بطبيعة الحال . ستكـون ثمة دومـاً علاقـة الذات بـذاتها ، تقـاوم القواعـد والسلطات . بحيث أن علاقة الذات بذاتها هي مصدر من مصادر نقط المقاومة التي سلف الحديث والكلام عنها . وقد يكون من الخطأ، مثلا، ارجاع مجموع الأخلاق المسيحية ، الى المجهود الرامي الى سن القوانين والقـواعد واقـامتها ، والى سلطة الراعي الديني ، الـذي كان وجـوده ضروريـاً لذلـك ، بغض النظر عن « الحـركات الروحية والزهدية ، التي تعطي للدين بعداً ذاتياً والتي مـا انفكت تتطور قبـل حركـة الاصلاح الديني (ثمة عمليات تولد ذات، جماعية)[25]. بل لا يكفي القول حتى ، بـأن هذه تتعـارض وتلك وتقاومهـا ، فثمة ارتبـاط متبادل بينهمـا ، إما لـلاختلاف أو الائتلاف . ما ينبغي طرحه اذن ، هو أن تولد الذات ، وعلاقة الذات بذاتها ما انفك موجوداً، انمـا بوجـوه مختلفة وبـأنماط متغيـرة بصورة تجعـل النمط اليونـاني ذكرى بعيدة . ان علاقة الذات بـذاتها وقـد استقطبت من قبـل علاقـات السلطة وعلاقـات

---

(24) أنظر كتاب دريفوس وربينو ، ص 302– 304. نلخص هنا ملاحظات مختلفة لفـوكو : 1 ـ لـلأخلاق قطبان ، قاعدة تولد الذات ، ونمطها، لكنهما قطبان تحكمهما علاقة عكس ، تزايد أحدهما لا يكون الا بتناقص الآخر (استخدام اللذات، ص 35 – 37)،2 ـ ينزع تولد الـذات الى المرور ثـانية عبـر قواعـد وقوانين فيفرغها أو يجمدها لصالح هذه الأخيرة « هذه هي الفكرة الأساسية لكتاب فوكو Le souci de soi أو الانشغال بالذات، 3 ـ يظهر نمط جديد من السلطة ، يضطلع بتحقيق عملية الفردنة والتغلغل الى الداخل : السلطة الرعوية للكنيسة ، ثم اضطلاع سلطة الدولة بها فيما بعد (دريفوس وربينو ، ص – 305 306: ولهذا النص صلة بالتحليل الذي قام به فوكو في الحراسة والعقاب حول مسألة « السلطة المفردنة والمقولبة ») .

(25) استخدام اللذات ، ص 37.

المعرفة ، ما تنفك عن الانبثاق من جديد والظهور ثانية في مواضع أخرى وبكيفيات مخالفة .

ان الصيغة الأعم لعلاقة الذات بذاتها هي : تأثير الذات في ذاتها وتأثرها بها ، أي القوة المنطوية . يتم تولد الذات بالانطواء والانثناء . غير أن هناك أربعة أنواع من الانثناء ، أربعة انثناءات تولد الذات ، كما لو كان الأمر يتعلق بـأنهر جهنم . يتعلق أولها بالجزء المادي منا الذي سيتم الاهتمام به من طرف اليونان، فيعرف ثنيه على يدهم ،وهو الجسم ولـذاته ، أو «Aphrodisia » . . أما لدى المسيحيين ، فسيقع الاهتمام بالجسد ورغباته ، وستصبح الرغبة نمطاً مادياً مخالفاً تمام المخالفة . أما الثاني ، فهو انثناء علاقة القوى ، بحصر المعنى ،أو انطواؤها ، ذلك أن علاقة القوى تنثني دوماً لتصبح علاقة ذات بذاتها ، تبعاً لقاعدة فريدة ، ولا يتعلق الأمر ، بالتأكيد بذات الشيء حينما تكون القاعدة الفاعلة طبيعية أو الهية أو عقلية أو جمالية . . . والثالث ، انثناء الحقيقة بوصفه يشكل علاقة الحقيقة بوجودنا ، وعلاقة هذا الأخير بالحقيقة ، كشرط صوري لكل معرفة ولكل معرفة يتملكها الفرد : تولد الذات في المعرفة الذي لا يحصل بذات الكيفية لدى كل من اليونان والمسيحيين أو افلاطون وديكارت أو كنط . الرابع انثناء الخارج نفسه ، من حيث هو أقصى حد : فهو الذي يشكل ما كان يطلق عليه بلانشو « جوانية انتظار » ، هو الذي تنتظر منه الذات ، بكيفيات مختلفة ، الخلود أو الأبدية والخلاص أو الحرية أو الموت أو الانعتاق. . . تشبه هذه الانثناءات الأربعة العلة الغائية والعلة الصورية والعلة الفاعلة والعلة المادية للذاتية أو الجوانية كعلاقة للذات بذاتها[26] . هذه الانثناءات هي التي تتغير بكثرة بايقاعات مختلفة ، مكونة بذلك أنماطاً مستقل بعضها عن بعض ، لتولد الذات ، تعمل « خلف قوانين وقواعد » المعرفة والسلطة ،مع احتمال ضمها عن طريق

---

(26) نقوم بتلخيص منهج للجوانب الأربعة التي ميزها فوكو في استخدام اللذات ، 32- 39 (ونجدها في كتاب دريفوس. . . ص 333 - 334 كذلك) .

يستعمل فوكو لفظ « اخضاع » للاشارة الى الجانب الثاني لنشأة الذات ، الا أن هذا اللفظ يأخذ آخر غير ذلك الذي يشار به الى الذات عندما تنشأ وتخضع للعلاقات السلطة . للجانب الثالث أهمية خاصة ، ويسمح بأن يكون جسراً يرجعنا الى كتاب الكلمات والأشياء ، فقد بين هذا الأخير كيف أن الحياة والعمل واللغة كانت هي موضوع المعرفة ، قبل أن تنثني لتشكل ذاتية أكثر عمقاً .

الانبساط ، وهو أمر لا يحصل دونما انثناءات أخرى.

في كل وقت ، تصر علاقة الذات بذاتها على الالتقاء بـالجنسية بكيفيـة توافق نمط تولد الذات : ذلك أن تلقائية القوة وقابليتها للتأثر لم تعـد تتوزع حسب دور فاعل ودور منفعل ، مثلما كان الشأن عليه مع اليونان ، بل صارت تتوزع حسب بنية ثنائية الجنس ، كما هو الأمر لدى المسيحيين ، وهو شيء مختلف . من زاوية نـظر مقارنة عامة ، ما هي التغيرات الموجودة بين الجسم والللذات لدى اليونان ، والجسد والرغبة لـدى المسيحيين ؟ هل من الممكن أن يقف أفـلاطون عنـد حـدود الجسم والللذات ، حسب الانطواء الأول ، بينما ارتقى الى مستـوى الرغبـة حسب الانطواء الثالث وذلك من خلال ثني الحقيقة في العشيق ، بإبراز مسلسـل تولـد ذات جديـد ينتهي « بفرد راغب » له رغبة (وليس بذات صاحبة لذات)[27]؟ وفي (الأخير ، مـا قولنا في الأنماط الحالية الخاصة بنا ، وفي علاقة الذات بذاتها في الوقت الحاضر؟ ما هي انطواءاتنا الأربعة؟ اذا كان من الصحيح أن السلطة تحاصر حياتنا اليومية وجوانيتنا وفرديتنا أكثر فأكثر ، اذا كانت السلطة أمست تخترق الأفراد ، وتظهر عبرهم ، اذا كان من الصحيح أن المعرفة ذاتها أضحت تفرض نفسها على الأفراد أكثر فأكثر ، منشئـة بذلك تـأويليات وقـوالب جاهـزة مقننة ومنـظمة للذات الـراغبة ، فمـاذا سيتبقى من ذاتيتنا ؟ لن يتبقى أبداً شيء ، ما دام من اللازم على ذاتنا أن تنشىء نفسها كل حين كبؤرة مقاومة ، وفق اتجاه الثنايـا التي تولـد ذات المعرفـة وتقوم بثني السلطة . هـل بامكان الذاتية الحديثة أن تأمل العودة يوماً الى الجسم ولذاته ، عوض البقاء في رغبة أكثر خضوعاً للقانون ؟ انها لن تكون مع ذلك عودة الى اليونان ، ما دام ليس ثمة على الاطلاق رجوع الى الـوراء[28]. ويمر الصـراع من أجل ذاتيـة حديثـة ، عبر مقـاومة

---

(27) استخدام اللذات ، الفصل V وقد عقده لأفلاطون .

(28) سبق أن بين كتـاب ارادة المعرفـة أن الجسم ولذاتـه ، أي « الجنسيـة بـدون جنس » كـانت لأسلوب الحديث وللمقاومة » في مستوى الجنس ، تربط الرغبة بالقانون(208). وليس في هذا سوى عودة جزئية ومبهمة الى الاغريق ، ذلـك أن الجسم ولذاتـه يحيلان لـدى الاغريق الى عـلاقات صـراع بين رجال أحرار ، أي الى مجتمع « ذكوري » لا يعترف إلاّ بالرجال ويقصي المرأة ، بينما نحن نسعى الى اقرار نوع آخر من العلاقات الخاصة بحقلنا الاجتماعي . راجـع نص فوكـو في كتاب « دريفـوس. . . ص 331 – 332، حول المفهوم المغلوط للعودة .

شكلين حاليين للخضوع ، يقوم أولهما على قولبة الأفراد تبعاً لمقتضيات السلطة ، أما الثاني فيقوم على دمج كل فرد في هوية معلومة ومعروفة ومحددة التحديد الكلي والنهائي : وعليه فان الصراع من أجل الذاتية ، صراع من أجل الحق في الاختلاف ودفاع عن الحق في التنوع والتغير[29] . (نكثر هنا من طرح الأسئلة ما دمنا نشرف على المخطوط الذي تركه فوكو غير منشور وهو « اعترافات الجسد » بل ونقبل على آخر اتجاه سارت فيه أبحاث فوكو) .

في كتاب « استخدام اللذات » لا يكتشف فوكو الذات . فهو في الحقيقة سبق أن حددها كمشتقة أو دالة مشتقة من العبارة . لكنه بتحديده لها الآن كمشتقة من الخارج ، كحالة انثناء ، يعطيها مدلولها الكامل كما يمنحها في الوقت ذاته بعداً قائم الذات . نمتلك اذن عناصر الجواب على السؤال العام : كيف نسمي هذا البعد الجديد ، هذه العلاقة بالذات والتي ليست معرفة ولا سلطة ؟ هل تأثير الذات في ذاتها لذة أو بالأحرى رغبة ؟ أم هل هو « سلوك فردي » ، كسلوك للذة أو الرغبة ؟ لن نصيب اللفظ الدقيق ما لم نلاحظ كيف يمتد هذا البعد الثالث ليشمل مدداً زمنية طويلة . يبدو أن ظهور انثناء للخارج ، أمر يخص التشكيلات الغربية . ومن الممكن ألا يكون الشرق قد عرف مثل هذه الظاهرة ، وأن يكون خط الخارج لديه ظل عائماً يطفو وسط فراغ خانق : عندئذ يصبح الزهد ثقافة الفناء والابادة أو جهداً للتنفس في الفراغ حيث لا امكانية للتنفس فيه ، دون ظهور عيني وملموس للذاتية[30] . ويبدو أن شرط انثناء القوى يظهر مع علاقة الصراع بين رجال أحرار : أي اليونانيين . فمع هؤلاء ، تنثني القوة على نفسها وتنطوي على ذاتها في علاقتها بقوة أخرى . غير أننا اذا اعتبرنا أن مسلسل تولد الذات يبدأ مع اليونان ، سنصبح أمام فترة طويلة تمتد من العصر اليوناني حتى هذه اللحظة . وتأريخ المسألة بهذا النحو ، ذو أهمية كبرى ، الى حد أن فوكو نظراً الى مبيانات السلطة بوصفها أمكنة تحول ، والى أنظمة العبارات

---

(29) دريفوس . . . ص 302 – 303.

(30) لم يلمس فوكو في نفسه القدرة أبداً على تناول التشكيلات الشرقية بالدرس ولقد اكتفى بابداء اشارات عابرة بخصوص « التربية الجنسية » لدى الصينيين ، تارة باعتبارها مختلفة عن العلم الجنسي الغربي (ارادة المعرفة) وتارة باعتبارها تختلف عن الوجود الجمالي لليونانيين (استخدام اللذات) . ويغدو السؤال هو : هل ثمة ذات أو مسلسل تولد الذات في الفنون الشرقية ؟ .

انطلاقاً من فترات قصيرة المدة[31]. ولو تساءلنا عن أسباب اعتماده فجأة في كتاب « استخدام اللذات » لفترة طويلة لظهر لنا أن مبرر ذلك هو كالتالي : لقد أسدلنا ستائر النسيان بسرعة على السلطات القديمة التي لم تعد تمارس نفسها ، وعلى المعارف البالية التي لم تعد الآن ذات نفع ، أما بخصوص الأخلاق ، فاننا ما نزال حتى الآن نرزح تحت ثقل معتقدات عفى عليها الدهر ونعطي لذواتنا مظهراً يستند الى أنماط أكل عليها وشرب ، ولم تعد تتفق وقضايانا. وهذا ما أدى بالسينمائي « أنطونيوني » Antonioni الى القول بأننا مرضى الايروس. . . ان كل شيء يسير وكأن أنماط تولد الذات عمرت فترات طويلة ، وكأننا نواصل تقمص دور اليونانيين أو دور المسيحيين ، ومن ثم كانت الرغبة تتملكنا في العودة الى الماضي والرجوع عليه .

لكن ثمة سبباً ايجابياً أعمق . ذلك أن الانثناء ذاته ، أو التضاعف ، ذاكرة : « ذاكرة مطلقة » أو ذاكرة خارج ، فيما وراء الذاكرة القصيرة التي تنخرط في الأبنية وأنظمة العبارات . فيما وراء آثار الماضي ومخلفاته التي ما تزال تحتفظ بها المبيانات . بل لقد سبق ان عول الوجود الجمالي مع اليونان ، على ذاكرة المستقبل بصفة أساسية ، وبسرعة ، كانت مسلسلات تولد الذات مصحوبة بألوان كتابة تشكل ذاكرة حقيقية Hypomnemata [32] الذاكرة ، هي الاسم الصحيح لعلاقة الذات بذاتها ، أو لتأثير الذات في ذاتها وتأثرها بها . والزمان ، حسب كنط ، صورة ملازمة للفكر ، يحدس فيها ذاته ويتأثر بها ويؤثر فيها ، ان الأنا يعي ذاته في الزمان ، مثلما كان يعي الأشياء ويتأثر بها بواسطة المكان الذي هو صورة ضرورية للحدس. فالزمان اذن « تأثر ذاتي »، بوصفه يشكل البنية الأساسية للذاتية[33]. أما الزمان كذات ، أو على الأصح ، كتولد الذات ، فيدعى ذاكرة . وليس المقصود هنا الذاكرة القصيرة

(31) حول مشكل الفترات الطويلة أو القصيرة المدة في التاريخ في ارتباطها بالسلاسل ، راجع Braudel, Ecrits sur l'histoire, Flammarion وحفريات المعرفة ، ص 15– 17، حيث بين أن الفترات الابستملوجية هي حتماً قصيرة .

(32) الانشغال بالذات ، ص 75– 84، ودريفوس و. . . ص 339– 344 للاطلاع على الوظيفة المتغيرة لأدب الذات أو أدب الذاكرة ، حسب طبيعة مسلسل تولد الذات المعني) .

(33) من بين الموضوعات الفكرية الرئيسية لهيدغر في تأويله كنط . حول تصريحات فوكو الأخيرة المعلنة مناصرته لهيدغر ، راجع : (Les Nouvelles 28 Juin 1984.)

التي تأتي فيما بعد ، وتتعارض والنسيان ، بل « الذاكرة المطلقة » التي تحايث الحاضر وتثوى فيه وتضاعف الخارج ، والتي هي والنسيان شيء واحد، ما دامت هي ذاتها منسية باستمرار تنتظر تحين الفرص لتؤكد حضورها : يمتزج انطواؤها ، في الحقيقة ، بانبساطها ، لأن هذا الأخير يظل ماثلاً في الانطواء كشيء منطو . وحده النسيان (الانفراج أو الانبساط) يكتشف ما هو منثن ومنطو في الذاكرة (أي داخل الانثناء ذاته) . نحن هنا أمام اكتشاف ثان ونهائي لهيدغر من قبل فوكو . ما يتعارض والذاكرة ، ليس هو النسيان ، بل نسيان النسيان ، الذي يقذف بنا الى الخارج ، ويشكل الموت . وبخلاف ذلك ، طالما أن الخارج منثن ومنطو ، فان داخلاً أو طوية تمتد بامتداده ، مثلما تمتد الذاكرة بامتداد النسيان. وصفة التماد هذه ، هي الحياة ، المدة الطويلة . يغدو الزمان ذاتاً ، لأنه انثناء للخارج ، وبالكيفية ذاتها ، يسدل الزمان ستائر النسيان على كل حاضر ، لكنه يحفظ أي ماض في الذاكرة ، النسيان كاستحالة العودة ، والذاكرة كضرورة للبدء . منذ مدة طويلة ، فكر فوكو في الخارج كأقصى مكانية ، أعمق من الزمن ، وفي مؤلفاته المتأخرة ، سيحيي امكانية وضع الزمان في الخارج ، والتفكير في الخارج كزمان ، في شكل انثناء[34] . . .

حول هذه النقطة تدور المواجهة الحتمية بين فوكو وهيدغر : اذ ما فتئت فكرة « الانثناء » تستبد بأعمال فوكو ، لكنها حصلت على بعدها الصحيح في أبحاثه المتأخرة . ما هي أوجه الشبه وأوجه الاختلاف بينه وبين هيدغر ؟ لن نتمكن من الجواب على هذا السؤال الا بالانطلاق من القطيعة التي ينجزها فوكو مع « الفينومينولوجيا » بمعناها « الشائع المتداول » ، وبالذات مع فكرة القصدية . ان يكون كل شعور شعوراً بشيء ما من الأشياء وأن يكون شعوري بالعالم هو الذي يعطي للعالم معناه ذاك ما يرفضه فوكو . حقاً ، اقترحت الفينومينولوجيا فكرة القصدية كمحاولة لتجاوز كل نزعة سيكولوجية وكل نزعة طبيعية ، لكنها تظل مع ذلك حبيسة نزعة سيكولوجية أشد ونزعة طبيعية جديدة ، الى حد أن « ميرلوبونتي » Merleau

(34) يبدو أن أفكار الخارج والخارجية هي التي فرضت على فوكو الميل الى أولية المكان على الزمان مثلما يشهد على هذا كتاب الكلمات والأشياء ، ص 351.

Ponty صرح أن الفينومينولوجيا لم تعد تكاد تتميز عن « المذهب » . فهي تنصب من جديد ، نزعة سيكولوجية أساسها تركيبات الشعور والوعي والدلالات ، وتقيم نزعة طبيعية أساسها « التجربة العيانية » والادراك المباشر للشيء من حيث هو ذاته حاضر الوعي دون وساطة حس أو غيره . من هنا كان رفض فوكو المزدوج لها . طالما نحن لبثنا عند حدود الكلمات والجمل الا واعتقدنا في وجود قصدية عن طريقها يتجه الوعي نحو شيء من الأشياء ويعطيه معنى ودلالة (من حيث أن الوعي دال) ، طالما مكثنا عند الأشياء والأحوال الا واعتقدنا في تجربة عيانية وادراك مباشر للشيء من حيث هو حاضر للوعي وماثل أمامه . لكن مبدأ « التعليق » و« الوضع بين أقواس » الذي رفعت لواءه الفينومينولوجيا ، مبدأ كان من المفروض أن يجعلها تتجاوز الأحوال ، بحثاً عن الرؤى . والحال أن العبارات لا تقصد شيئاً من الأشياء ولا تحيل اليه ، مثلما أنها لا تشير الى ذات ، بل تميل الى لغة ، الى مادية اللغة فقط ، مادية تهبها موضوعات وذوات خاصة بها وكافية كمتغيرات محايثة . ولا تنبسط الرؤى في عالم عياني مباشر يحضر للوعي بدون واسطة (وبكيفية سابقة على كل استدلال) ، بل تحيل الى مجرد رؤية ، الى وجود رؤية ، يمنحها أشكالاً ونسباً وأبعاداً منظارية محايثة ، لا تتقيد بأي نظرة قصدية[35]. ولن ينظر الى اللغة ولا الى الرؤية في اتجاه ارتباطهما ، وفي اتجاه البحث في وجوه ذلك الارتباط (كالتعيين والدلالة وادلال اللغة ، والوسط المادي ، العالم المحسوس أو المعقول) ، بل من حيث هما منفصلتان ، كل واحدة منها قائمة بذاتها ، تكفي نفسها بنفسها ، « وجود » الرؤية و« وجود » اللغة . وكل قصدية مآلها الوقوع الانتهاء الى غور لا قرار له يفصل مونادتين ، كما يعكس « اللاعلاقة » الموجودة بين الرؤية والكلام . هذا التحويل الأساسي الذي أجراه فوكو : عندما قلب الفينومينولوجيا الى ابتسمولوجيا . ذلك أن الرؤية والكلام ، معرفة. لكن المرء لا يرى ما يتكلم عنه ، ولا يتكلم عما يراه ، وحينما نرى غليوناً ، فاننا سوف ما ننفك نقول ، بكيفيات مختلفة ، « ليس هذا غليوناً. . »، كما لو كانت القصدية تدحض نفسها وتنهار. الكل معرفة ، وذلك لسبب رئيسي يجعل كل تجربة مباشرة أولى غير ممكنة : ليس ثمة شيء قبل المعرفة ، ولا

(35) ريمون روسيل، ص 136 – 140.

خلفها . بل المعرفة مزدوجة ازدواجاً يتعذر تقليصه أو اختزاله ، انها كلام ورؤية ، لغة ورؤية ، وذلك هو السبب الذي من أجله ليست ثمة قصدية .

لكن ها هنا يبدأ كل شيء ، إذ الفينومينولوجيا ، هي الأخرى ، رغبة منها في اقصاء النزعتين السيكولوجية والطبيعية اللتين كانتا ما تزالان تثقلان كاهلها ، تجاوزت بنفسها القصدية كعلاقة للشعور بموضوعه (أي الموجود) وتجاوز القصدية ، مع هيدغر ثم « ميرلوبونتي » ، كان نحو الوجود ، انثناء الوجود . من القصدية الى الانثناء ، من الموجود الى الوجود ، من الفينومينولوجيا الى الأنطلوجيا . علمنا اتباع هيدغر مدى ارتباط الأنطلوجيا بالانثناء ، ما دام الوجود هو أساساً وبالذات انثناء للوجود بالموجود ، وأن انبساط الوجود ، كحركة دشنها اليونان ، لم يكن يناقض الانثناء، بل هو الانثناء نفسه ، انه نقطة التقاء انفتاحين ، وحدة المنكشف والمتواري. وما يبقى في حاجة الى توضيح هو الكيفية التي تحل بها تضاعيف الوجود وانثناء الوجود والموجود محل القصدية لتؤسسها. يعود الفضل الى « ميرلوبونتي » في أنه أوضح كيف أن رؤية أصلية « عمومية » تنثني وتنطوي ضمن ما يرى ذاته ، مخولة بذلك امكانية علاقة أفقية بين راء ومرئي. فينثني الخارج الذي هو أبعد وأقصى من كل ما هو خارجي، و« ينطوي » و« يتضاعف » بداخل أعمق من كل ما هو داخلي ، يسمح وحده بامكان العلاقة المتفرعة عن الداخلي والخارجي. حتى أن هذا الانثناء أو الانطواء ، هو ما يحدد « الجسد » بعيداً عن الجسم ذاته وعن موضوعاته . ومجمل القول لقد تجاوز قصدية الموجود نفسها في اتجاه انثناء الوجود ، في اتجاه الوجود كإنثناء (أما سارتر فلم يبرح القصدية مكتفياً باحداث « ثقوب » في الموجود ، دون أن يبلغ انثناء الوجود) . تتم القصدية داخل فضاء اقليدي يمنعها من أن تدرك ذاتها ، وهذا ما يوجب عليها أن تتجاوز نفسها في اتجاه فضاء آخر ، فضاء « موقعي »، يصل الخارج بالداخل ، يصل الأكثر سطحية بالأبعد عمقاً[36] .

---

(36) حول قضايا الانثناء والتشابك أو التداخل و« عودة المرئي الى ذاته » راجع : Merleau –Panty. Le visible et l'invisible, Gallimard.

وتلح رؤوس الأقلام التي تركها على ضرورة تجاوز القصدية نحو بعد عمومي يشكل نظرة موقعية (64 – 263) وتتضمن هذه الأخيرة لديه ، اكتشافاً « للجسد » كحيز انقلاب وتغير (وهي فكرة سبق لهيدغر أن قال بها حسب ما يرى D.Franck في كتابه . Heidegger et le problème de l'espace منشورات =

ومما لا شك فيه أن فوكو عثر على ضالته لدى هيدغر وميرلوبونتي اللذين استلهم بقوة آراءهما النظرية بخصوص الموضوع الذي كان يشغله : الانثناء والتضاعف . لكنه عثر عليها أيضاً في تطبيقها العملي لدى ريمون روسيل : فقد كان هذا الأخير يقيم رؤية أنطلوجية ، تنثني دوماً في موجود « يرى ذاته » ، في بعد آخر غير بعد النظرة وموضوعاتها[37] . قد يكون بامكاننا أيضاً مقارنة هيدغر بـ« جاري » Jarry، من حيث أن La pataphysique تبدو في حقيقة الأمر كتجاوز للميتافيزيقا ، تجاوزاً أساسه الصريح مادية الظاهرة . لكننا لو اعتبرنا ، بهذه الصفة ، « جاري » أو روسيل استمراراً لفلسفة هيدغر ، ألن يعني ذلك أن الانثناء اجتث اجتثاثاً ليغرس في بيئة مغايرة لبيئته وليشحن بمعان ومضامين جديدة ؟ لا يتعلق الأمر بانتزاع ما هو جاد عند هيدغر ، بل باستعادة ما هو جاد ورصين لدى روسيل (ولدى « جاري ») . غير أن ما هو جاد في الأنطلوجيا يظل في حاجة الى « دعابة شيطانية أو فينومينولوجية . ذلك أننا نعتقد أن الانثناء كبطانة لدى فوكو ، سيعرف اتجاهاً جديداً تمام الجدة ، مع الاحتفاظ في ذات الوقت بقيمته الأنطلوجية . ففي المقام الأول ، مع هيدغر أو ميرلوبونتي ، لا يتجاوز انثناء الوجود القصدية ، الا من أجل تأسيسها في البعد الآخر : لذا كان المرئي أو المنفتح ، لا يفسح المجال للرؤية دون أن يفسحه الكلام كذلك ، لا سيما وأن الانثناء لن يشكل ما يرى ذاته في الرؤية دون أن يكون في الوقت ذاته ما يتكلم في اللغة ، الى حد أننا مع نفس العالم الذي يكلم ذاته في اللغة ويرى نفسه في الرؤية . لدى هيدغر وميرلوبونتي يفتح الضوء لغة ورؤية كما لو كانت الدلالات تخالط المرئي ، كما لو أن هذا الأخير يهمس المعنى[38] . والأمر لا يمكن

= مينوري) . لذا يمكن الاعتقاد أن التحليل الذي قام به فوكو في المخطوط غير المنشور ، والذي يحمل عنوان « Les Aveux de la chair » يتناول مشكل « الانثناء » (التجسد)، مشيراً الى الأصل المسيحي للجسد من زاوية نظر تاريخ الجنس .

(37) يلح نص ريمون روسيل ، ص 136 على هذا الجانب عندما تمر النظرة عبر العدسة المرصعة على المقلمة : « بهجة داخل الوجود . . . رؤية خارج النظرة ، واذا ما تمت كرؤية عبر عدسة أو رسم فمن أجل وضع النظرة بين قوسين . . . يفرض الوجود نفسه في رصانة وافرة . . » .

(38) يذهب هيدغر الى أن الضوء هو المنفتح لا على النور والرؤية فحسب ، بل وعلى الصوت والسمع كذلك . ونجد نفس الشيء عند ميرلوبونتي (201 – 202). وفوكو يربط كل هذه الألوان من الربط جملة وتفصيلا .

أن يكون بهذا الشكل ، مع فوكو ، الذي يؤكد أن وجود الضوء لا يحيل الا الى رؤى ، وجود اللغة يحيل الى عبارات : لذا يتعذر على الانثناء أن يكون أساساً جديداً للقصدية ، ما دامت هذه الأخيرة تختفي داخل الهوة التي تفصل طرفي معرفة ليست أبداً قصدية .

اذا كانت المعرفة تتكون من شكلين ، فكيف يمكّن أن تكون ثمة قصدية ، تتجه بحسبها ذات نحو موضوع ما ، ما دام لكل شكل من الشكلين موضوعاته وذواته؟[39] ورغم هذا ، لا بد من أن تكون ثمة علاقة يمكن تعيينها بين الشكلين ، تنبع من « علاقتهما » . المعرفة وجود ، أنها أول صورة للوجود ، لكن الوجود وجود بين شكلين . أو ليس هذا بالضبط ما كان يذهب اليه هيدغر في قوله بفكرة « المنزلة بين المنزلتين » ، وميرلوبونتي في قوله بفكرة « التشابك » أو « التداخل » الحقيقة أن الأمر ليس كذلك . ذلك أن « المنزلة بين المنزلتين » و« التشابك » يختلطان بفكرة الانثناء ويمتزجان بها ، أما بالنسبة لفوكو فلا. ثمة تشابك وتداخل بين ما يرى وما يعبر عنه : هذا هو النموذج الأفلاطوني للنسج أو التداخل ، والذي يقوم مقام القصدية . غير أن هذا التداخل صراع ، اشتباك ، عراك ، معركة بين خصمين لدودين لا سبيل الى مصالحتهما ، بين شكلي الوجود ـ المعرفة : أو أنه ، اذا صح القول ، قصدية ، لكنها قصدية منقلبة ومنعكسة توجد في الاتجاهين معاً ، فتصبح تفاضلية أو ميكرسكوبية . فالأمر هنا لا يتعلق بانثناء الوجود بل باشتباك شكليه . لا يتعلق كذلك بموقعية الانثناء ، بل باستراتيجية الاشتباك . كل شيء يسير كما لو أن فوكو يؤاخذ على هيدغر وميرلوبونتي تسرعهما . وما عثر عليه لدى روسيل وبكيفية مختلفة لدى « بريسي » وبصورة أخرى لدى « ماغريت »، وما كان بمستطاعه أن يعثر عليه لدى « جاري » لهو الاشتباك ، والمعركة السمعية ـ البصرية ، الاشتباك بمعنى الأسر أو الامساك المزدوج والمتبادل ، صخب الكلمات التي تأسر الرؤية ، تأسر ما يرى ، عنف الأشياء التي تأسر ما يعبر عنه[40]. لقد استبد دوماً بفوكو هوس التناسخ

---

(39) لا وجود مثلاً، لـ« موضوع » هو الحمق يتجه اليه « وعي » ما ويقصده . بل الحمق ينظر اليه بكيفيات مختلفة ومتباينة ، ويعبر عليه بأساليب مختلفة كذلك ، حسب العصور وحسب عتبات كل عصر . لذا فاننا لا نرى نفس الحمقى ولا نعبر عن نفس الأمراض . راجع حفريات المعرفة ، ص 45 — 46.

(40) لدى « بريسي » Brisset ، يعثر فوكو على أكبر تحليل للمعركة : « أخذ في رد الكلمات الى الأصوات =

والتضاعف ، وهو هوس يقلب أي أنطلوجيا ويحولها .

لكن هذا الأسر المزدوج ، المكون للوجود ـ المعرفة ، لا يكون عراكاً بين شكلين قائمي الذات لو لم يكن اشتباك المتصارعين يترتب عن عنصر هو ذاته لا شكلي ، أي مصدره محض علاقة قوى تظهر في المسافة الفاصلة بين الشكلين فصلاً يتعذر تقليصه . ها هنا منبع المعركة وشرط امكانها . ها هنا المجال الاستراتيجي للسلطة ، والذي يتميز عن المجال المبني للمعرفة .

نتجه اذن من الابستمولوجية الى الاستراتيجية . وذاك دليل آخر على عدم وجود « تجربة عيانية مباشرة » ما دامت المعارك تستلزم استراتيجية ، وما دامت أي تجربة ، هي نتاج علاقات سلطة . انها الصورة الثانية للوجود ، الـ« Possest »، الوجود السلطة ، الذي يختلف عن الوجود ـ المعرفة ، انها علاقات القوى أو السلطة والتي هي علاقات لا شكلية ، تقيم علاقة « بين » شكلي المعرفة المكونة . فشكلا الوجود . المعرفة هما شكلا خارجية برانية ، ما دامت تتوزع العبارات في أحدهما وتتناثر الرؤى في الآخر ، أما الوجود للسلطة ، فانه يقودنا الى عنصر مختلف ، الى خارج لا يتكون وغير مكون ، هو مصدر القوى وتركيباتها المختلفة . وعلى هذا الأساس ، يتبين لنا أن صورة الوجود الثانية هذه، لا تعتبر هي الأخرى انشاء . بل هي ، على الأصح ، خط عائم يطفو دون أن يكون حداً ، هو وحده القادر على جعل الشكلين يدخلان في صراع . فمع فوكو نحن دائماً أمام هيرقليطية أعمق من تلك التي نلحظها لدى هيدغر ، لأن الفينومينولوجيا ، في نهاية الأمر ، أكثر جنوحاً الى السلم ، غالت في تكريس كثير من الأمور وأفرطت في مباركتها .

يضع فوكو يديه اذن ، على العنصر الذي يأتي من الخارج ، ألا وهو القوة . وهو يولي ، كبلانشو ، أهمية للخارج أكثر مما يوليها للمنفتح . ذلك أن القوة تعود الى القوة وترتد اليها ، لكن من الخارج ، بحيث أن هذا الأخير هو الذي يفسر

= التي أنشأتها كما أخرج الاشارات والهجومات وألوان العنف التي تشكل تلك الكلمات شعارها الصامت الآن » .

M.Foucault, Préface à **La grammaire logique de** J.P.Brisset, Tchou, 1970, p.XV.

خارجية الشكلين وبرانيتهما ، وكذا علاقاتهما المتبادلة . من هنا تأتي أهمية تصريح فوكو حينما يذهب الى أنه كان دائماً معجباً بهيدغر ومفتوناً به . وانه لم يستطع فهمه الا بواسطة نيتشه وانطلاقاً منه (وليس العكس)[41]. وعليه فان هيدغر امكانية يفرزها نيتشه ، وليس العكس ، ولم ينتظر نيتشه تلك الامكانية . لقد كان من اللازم اكتشاف القوة ، بالمعنى النيتشوي ، السلطة ، بمعناها الخاص في « ارادة القوة » ، قصد اكتشاف ذلك الخارج كحد ، كأفق نهائي ، انطلاقاً منه يثني الوجود. ولقد تسرع هيدغر ، وكان على عجلة من أمره ، فطوى الوجود ، وهو شيء لم يكن مستحباً : والى ذلك يعود الالتباس العميق الذي تعاني منه أنطلوجيته التقنية والسياسية ، تقنية المعرفة وسياسة السلطة . ولم يكن بامكان الوجود أن ينثني الا في مستوى الصورة الثالثة : هل يمكن للقوة أن تنثني انثناء تصير به تأثيراً للذات في ذاتها وتأثراً للذات بذاتها ، بحيث يغدو الخارج نفسه بمثابة داخل أو طوية ممتدة الشمول ؟ لم يكن ما قام به الاغريق اذن ، معجزة . لدى هيدغر جانب ريناني (نسبة الى E.Renan) الأرومة ، يتمثل في القول بالعبقرية والمعجزة اليونانية[42]. أما فوكو فيرى بالطبع أن كون اليونان ، فعلوا الشيء الكثير أو القليل ، مسألة اختيار ونظر . لقد قاموا بثني القوة ، اكتشفوا القوة كشيء يمكن أن تثنيه الإستراتيجية وحدها لا غير ، لأنهم ابتكروا علاقة قوى تتمظهر من خلال تنافس رجال أحرار (التحكم في الغير مع البداية بالتحكم في الذات. .) . لكنها قوة ضمن قوى ، لا يطوي الانسان القوى التي تكونه دون أن ينطوي الخارج ذاته ويحفر في عمق الانسان ذاتاً . هوذا انثناء الوجود الذي يأتي كصورة ثالثة عندما يكون الشكلان مشتبكين ، وتكون المعارك قد حمي وطيسها : لم يعد الوجود يشكل «Scient» أو معرفة ولا Possest أو سلطة بل أضحى « Se – est» ذاتاً ، باعتبار أن انثناء الخارج يصبح ذاتاً ، والخارج نفسه داخل ممتد

---

(41) تحدد مصيري الفلسفي كله ، بقراءتي لهيدغر ، غير أنني أعترف بأن لنيتشه الفضل في ذلك. . . Les). Nouvelles, 40)

(42) ما يسترعي الاهتمام لدى رينان ، هو الكيفية التي تقدم بها La prière sur L'Acropole « المعجزة اليونانية » في ارتباط أساسي بذكرى ، وهذه الأخيرة في ارتباط بنسيان لا يقل أساسية ، في بنية زمانية للملل (الاشاحة) . زوس نفسه يتحدد بالانثناء ، أخرج الحكمة « بعد أن انثنى على نفسه ، وبعد أن تنفس بعمق » .

بامتداده . لقد كان من اللازم المرور بالاشتباك المبني الاستراتيجي قصد بلوغ الانثناء الأنطلوجي .

انها ثلاثة أبعاد قائمة الذات يتعذر اختزال بعضها في بعض ، الا أنها دائمة الارتباط : المعرفة والسلطة والذات . انها ثلاث « أنطلوجيات » . ما الذي يجعل فوكو ينعتها كذلك بأنها تاريخية؟[43] لأنها لا تعكس شروط كلية وشاملة ، فكيان المعرفة يتحدد بالشكلين اللذين يتخذهما ما يرى وما يعبر عنه في وقت بعينه ، كما أن الضوء واللغة لا ينفصلان عن « وجودهما الفردي والمحدود » في هذه الأبنية أو تلك . وكيان السلطة يتحدد بعلاقات القوى التي تتمظهر عبر فرديات تتغير في كل عصر . والذات ، أو كيان الذات يتحدد بتولد الذات أي بالمواقع التي يتخذها الانثناء مناسبات لظهورها (ليس لدى الاغريق ما يعطي لأفكارهم طابع الشمولية) . ومجمل القول ، ليست الشروط على الاطلاق أعم من المشروط ، فقيمتها تكمن في فرديتها التاريخية الخاصة . كما أن سمتها ليست هي « القطعية » واليقينية ، بل الاشكالية . وبوصفها شروط ، فهي لا تتغير تاريخياً ، بل تتغير مع التاريخ . وما تقدمه في الحقيقة ، هو الكيفية التي يطرح بها المشكل ضمن تشكيلة تاريخية بعينها : ماذا أستطيع أن أعرف ؟ ماذا أستطيع أن أرى ، ماذا باستطاعتي التعبير عنه ضمن شروط الرؤية والكلام تلك ؟ ماذا بامكاني أن أعمل ، والى أية سلطة نطمح ، وأية مقاومة يلزم ابداؤها ؟ ، ماذا باستطاعتي أن أكونه ، بأية ثنايا أحيط نفسي أو كيف أولد كذات ؟ في هذه الأسئلة الثلاثة ، لا يشير ضمير المتكلم الى شيء كلي ، بل الى جملة من المواقع الفردية تشغلها أفعال غير مبنية للمعلوم ولا تستند الى فاعل ، فهي مبنية للمجهول ، نحو ، يتحدث ، يرى ، يصطدم المرء ، يحيا المرء[44]. وأي حل كيفما كان ، لا يمكن نقله والقفز به من عصر الى آخر ، رغم ما يوجد من تداخل بين حقول اشكالية يجعل « معطيات » مشكل قديم تبعث ثانية ومن جديد وترد لها الحياة (لعل ثمة يوناني لا زال راقداً في أعماق فوكو ، لعل له أيضاً نوع من الثقة في «اضفاء

---

(43) راجع كتاب دريفوس. . . ص 332.

(44) حول « المشاكل » الثلاثة التي يطرحها فوكو والتي يمكن مقارنتها مع أسئلة كنط ، أنظر استخدام اللذات ، 12– 19 (ودريفوس. . ص 307،حيث يبدي فوكو اعجاباً بطرح كنط للسؤال ، لا في صيغة كلية شمولية بل في صيغة راهنة « من نحن في هذه اللحظة من التاريخ ؟») .

صفة الاشكال » على اللذات ، وطرحها موضع سؤال. .).

وأخيراً ، ان الممارسة هي التي تشكل الاستمرار الوحيد للماضي في الحاضر ، أو العكس ، أي الكيفية التي يستطيع بها الحاضر تفسير الماضي . واذا كانت الحوارات التي أجراها فوكو تعد جزءاً لا يتجزأ من مؤلفاته ، فالسبب يرجع في ذلك الى أنها استمرار لاضفاء الصفة الاشكالية التاريخية على كل كتاب من كتبه نحو بناء المشكل الراهن ، مشكل الحمق والعقاب والجنسية . ما هي ألوان الصراع الجديدة التي أمست صراعات عرضانية ، مباشرة ، بعد أن كان يقال بأنها متمركزة وتباشر نفسها بواسطة ؟ ما الوظائف الجديدة التي صارت تناط « بالمثقف »، والذي أضحى مثقفاً نوعياً أو خصوصياً بعد أن كان ينظر اليه على أنه مثقف شمولي ؟ ما الأنماط الجديدة لتولد الذات والتي أمست أنماطاً لا هوية لها بعد ما كان ينظر إليها على أنها متطابقة ومتماسكة ذات هوية محددة ؟ هذه الأسئلة الثلاث تشكل الأصل الثلاثي الراهن لأسئلة هي : ماذا أستطيع؟ماذا أعرف ؟ ماذا أكون ؟ لقد كانت الأحداث التي أدت الى ماي 1968 بمثابة « ترديد » لهذه الأسئلة الثلاثة[45]

---

(45) يتبادر الى الذهن أثناء قراءة بعض التحاليل، أن ما حدث في 1968 كان من تدبير مثقفين بباريز ،لكن الحقيقة ، هي أن ما جرى ، جاء تتويجاً لسلسلة من الاحداث العالمية ، وخلاصة العدد من التيارات الفكرية العالمية التي ربطت ظهور اشكال صراع جديدة بتولد ذاتية جديدة ، على الأقل في نقد النزعة المركزية ، وفي طرح مطالب تخص « نوع الحياة » وكيفه. فيما يخص الأحداث العالمية نشير باختصار الى التجربة اليوغسلافية والتسيير الذاتي ، وربيع براغ وما عرفه من قمع ، وحرب الفيتنام وحرب الجزائر ومسألة الشبكات ، وبشائر « الطبقة الجديدة » (الطبقة العاملة الجديدة) النقابية الجديدة ، في القطاع الفلاحي أو الطلابي ، مستشفيات الأمراض العقلية ومؤسسات التربية . . وفيما يخص التيارات الفكرية تلزم ، لا محالة ، العودة الى لوكاتش الذي سبق أن طرح في كتابه **التاريخ ووعي الطبقة** مسألة ذاتية جديدة ، ثم مدرسة فرانكفورت ، والماركسية الايطالية ، والتباشير الأولى للنزعة الاستقلالية مع (Tronti) وحول سارتر ، التفكير في الطبقة العاملة الجديدة (مع Gorz) ومجموعات مثل « اشتراكية أو همجية » ،ومجموعة « النزعة الموضعية »، و« الدرب الشيوعي » (خصوصاً مع F.Guattari و« وميكروسياسة الرغبة »). وهي تيارات وأحداث ما انفكت تتداخل وتتلاقح . بعد أحداث 68 اكتشف فوكو شخصياً ومن جديد، مع « جماعة الآخبار عن السجون» وما تعرفه من صراعات ، مسألة « الأشكال الجديدة للصراع ، فأنشأ ميكروفيزيائية السلطة ، في كتابه **الحراسة والعقاب**، مبلوراً بذلك صورة جديدة للمثقف ودوراً جديداً له . بعد كتاب **ارادة المعرفة**، وحتى كتاب **استخدام اللذات**، وربما هذه المرة ، في ارتباط بالحركات الامريكية. وحول الصلة بين الصراعات والمثقف والذاتية ، راجع تحليل فوكو في كتاب دريفوس ص 301 – 303، ولقد كان اهتمام فوكو بأشكال التجمع الجديدة جوهريا .

ا هي رؤيتنا وما هي لغتنا ، أي ما هي « حقيقتنا » اليوم؟ أية سلطة تلزم مواجهتها ، وما
ي قدراتنا على المواجهة ، اليوم حيث لا يمكننا الاكتفاء بالقول بأن الصراعات القديمة
م تعد ذات أهمية تذكر ؟ أو لسنا نشارك ونساهم في « انتاج ذاتية جديدة » ؟ ألا تجد
قلبات الرأسمالية نفسها وجهاً لوجه ، وبكيفية غير متوقعة ، مع انبثاق بطيء لذات
جديدة كبؤرة مقاومة ؟ وكل مرة يحصل فيها تحول اجتماعي ما ، ألا تكون ثمة حركة
انقلاب وتحول ذاتي ، بابهاماته والتباساته ، بل وبامكاناته أيضاً ؟ هذه الأسئلة يمكن
اعتبارها أهم ، حتى بالنسبة للفكر الحقوقي الخالص ، من طرح قضايا لها علاقة
بحقوق الانسان الشمولية . فكل شيء ، لدى فوكو ، يتسم بالتغير وعرضة للتنوع :
متغيرات المعرفة (الموضوعات والذوات كمتغيرات محايثة للعبارة ، مثلاً) وتنوع
علاقات الاشكال، الفرديات المتغيرة للسلطة وتنوع علاقات القوى ، الذاتيات
المتنوعة ، تنوع الانثناء ، تنوع أشكال تولد الذات .

غير أنه اذا كان من الصحيح أن الشروط ليست أعم من المشروط ولا أكثر ثباتاً
واستقراراً منه ، فان فوكو يوليها ، مع ذلك ، عناية . وهذا ما جعله يستعمل تعبير :
البحث التاريخي ، بدل عمل المؤرخ . لا يتمثل مشروعه في التأريخ للعقليات أو
الذهنيات ، بل في تحليل الشروط التي ضمنها ينبثق ويتجلى كل ما يتحلى بصفة الوجود
العقلي ، كالعبارات ونظام اللغة . لا يهتم مشروعه بالتأريخ للسير وألوان السلوك ، بل
بالشروط التي ضمنها يظهر كل ما يتحلى بصفة الوجود المرئي ضمن نظام رؤية . لا
يؤرخ للمؤسسات ، بل للشروط التي ضمنها تدمج تلك المؤسسات في أفق حقل
اجتماعي علاقات تفاضلية للقوى . لا يقوم بالتأريخ للحياة الخاصة ، بل للشروط التي
داخلها تشكل علاقة الذات بذاتها حياة خاصة . لا يؤرخ للذوات ، بل لعمليات تولد
الذات داخل الانثناءات التي تنشأ داخل ذلك الحقل الذي بقدر ما هو حقل اجتماعي ،
هو كذلك حقل أنطلوجي[46]. ان ما استبد في الحقيقة بفوكو لهو التفكير « فماذا يعني
التفكير ؟ وما هذا الذي نسميه تفكيراً ؟ » وصيغة هذا السؤال الذي كان قد طرحه

---

(46) راجع استخدام اللذات، ص 15 . أكثر الدراسات عمقاً حول فوكو وبنظرته للتاريخ ، هي تلك التي كتبها Paul Veyne وهي بعنوان « فوكو يثور التاريخ » ضمن Comment on écrit l'histoire Ed. Seuil (خصوصا مسألة اللامتغيرات »).

هيدغر ، ثم طرحه فوكو ثانية ، لخير دليل. يتعلق الأمر بتاريخ؟ لكنه تاريخ للتفكير كتفكير . أن نفكر معناه ، أن نجرب ، أن نطرح أسئلة ونضفي صفة الاشكال على التفكير . المعرفة والسلطة والذات هي الأصل الثلاثي للتساؤل حول التفكير . فبخصوص المعرفة كمشكلة ، يعني التفكير أولاً ، الرؤية والكلام ، غير أن التفكير يتم بينهما ، في الفجوة التي تفصلهما ، في الفراغ الذي يفصل الرؤية عن الكلام . ان التفكير يعني خلق الاشتباك في كل حين ، انه دوماً تراشق بالسهام ، تسليط بريق الرؤية على الكلمات ، والاصغاء الى همس الأشياء المرئية . التفكير هو جعل الرؤية تبلغ حدها الخاص بها ، وجعل الكلام يبلغ حده الخاص به ، فيصيران معاً الحد المشترك الذي يوصل الرؤية بالكلام والكلام بالرؤية ، وذلك بالفصل بينهما .

أما بخصوص السلطة وانطلاقاً منها كمشكل ، فيعني التفكير نشر فرديات ، اللعب بالصدفة ، رمي النرد ، ممارسة الصدفة . وما يعينه هذا هو أن التفكير دوماً يأتي من الخارج (ذلك الخارج الذي كان يشق طريقه داخل الفجوة ويشكل فيها الحد المشترك) . ليس التفكير فطرياً ولا مكتسباً . ليس عملاً تمارسه ملكة ما من الملكات ، وليس بالمقابل اكتساباً يتلقاه المرء نتيجة احتكاكه بالعالم الخارجي . تجاه الفطري والمكتسب ، وفي مقابلهما ، يقول « أرطو » .Artaud بـ« المتأصل » ، تأصل التفكير كتفكير ، تفكير يأتي من خارج أبعد من أي عالم خارجي ، وأقرب ، بالتالي ، من أي عالم داخلي ،. هل علينا أن نسمي هذا الخارج صدفة؟[47] الواقع أن رمي النرد تعبير عن أبسط علاقة قوى أو سلطة ، تلك العلاقة التي تقوم بين فرديات منتقاة بالصدفة (أعداد منقوشة على سطوح قطعة النرد) . ولا تخص علاقات القوى ، كما يفهمها فوكو ، البشر وحدهم ، بل حتى العناصر والحروف الأبجدية في ظهورها بالصدفة أو في تجاذبها ، في تواترها مجتمعا تبعاً للغة بعينها . لا تصدق الصدفة الا على الرمية الأولى ، فلعل الرمية الثانية تتم ضمن شروط محددة تحديداً جزئياً بالرمية الأولى ، كما هو الشأن في سلسلة ماركوف Markov، حيث تتالي وتعاقب سلاسل جزئية . والخارج هو : الخط الذي ما يفتأ يعيد التسلسل في الصدفة محولاً اياها الى ضرورة فتصبح مزيجاً من الصدفة والضرورة . فالتفكير يتخذ اذن ،

---

(47) ورد ذكر الثلاثي نيتشه ـ ملارمي ـ أرطو في خاتمة كتاب الكلمات والأشياء على الخصوص.

هنا ، مظاهر جديدة*: نشر فرديات بممارسة الصدفة ، ثم بعث التسلسل بينها ، مع الحرص في كل حين على ابتكار السلاسل التي تربط فردية بأخرى. يوجد من الفرديات ما لا يحصى ولا يعد ، وهي تأتي دوماً من الخارج : هناك فرديات السلطة وقد حصلت داخل علاقات القوى ، وهناك فرديات المقاومة ، التي على أرضيتها تتم التحولات ، بل هناك فرديات خشنة فظة ، تظل معلقة في الخارج ، لا تقيم علاقة ما ، كما تأبى أي اندماج . . . (ولا يعني نعتها بالخشنة أو الفظة هنا انها في حالة تجربة مباشرة ، بل انها لم تدخل بعد في التجربة)[48].

جميع تحديدات التفكير هذه ، تعكس صوراً أصيلة لفعل التفكير . ومنذ زمن طويل لم يخطر ببال فوكو أن التفكير يمكن أن يكون شيئاً آخر غير ذلك . كيف يمكن للتفكير أن يبتكر أخلاقاً وهو يفتقدها ، لا يجد شيئاً آخر في ذاته سوى ذلك الخارج الذي فيه يأتي التفكير ، ويقطن هو التفكير في صورة « لا مفكر فيه » ؟ هذا الأمر الذي يخلع كل أمر[49]. ومع ذلك ، لدى فوكو احساس وشعور ما بانبثاق صورة أخيرة غريبة : اذا كان الخارج أبعد من أي عالم خارجي ، وأقرب من أي عالم داخلي ، أو ليس ذلك دليلاً على أن التفكير يتأثر بذاته ويؤثر فيها ، مكتشفاً الخارج « كلا مفكر » خاص به هو؟» يتعذر على التفكير اكتشاف اللامفكر فيه . . . ما لم يدنه مباشرة وعلى الفور من نفسه ، أو اذا صح القول ، ما لم يقم باقصائه بعيداً ، ما لم يعد وجود الانسان ، على أي حال ، « تبعاً لذلك ، متبدلاً ، ما دام ينبسط في ذلك البعد الفاصل»[50]. تأثير الذات في ذاتها ، وتحويل البعيد الى قريب ، سيحتل كل هذا أهمية كبرى مكوناً بذلك فضاء داخل يوجد بكامله حاضراً جنباً الى جنب فضاء

---

(48) راجع **نظام الخطاب** ص 37، حيث يتكلم عن « برانية خشنة » معتمد على مثال Mendel الذي كون موضوعات بيولوجية وطبق مناهج وتصورات بدت غريبة في عصره من طرف البيولوجيا السائدة . ولا يتناقض هذا البتة مع فكرة انكار وجود أية « تجربة أولية » خشنة لا وجود لهذه الأخيرة لأن أي تجربة الا وتفترض سلفاً علاقات معرفة وعلاقات سلطة . والحال أن الفرديات الخشنة توجد خارج المعرفة وخارج السلطة ، على « الهامش » بحيث أن العلم لا يعترف بها : ص 35– 37.

(49) يتكلم هوسرل هو الآخر عن مثل « هذا الأمر » في التفكير كرمي للنرد أو وضع نقطة . . . أنظر : **Idées directrices pour une phénoménologie**, Gallimard 414.

(50) **الكلمات والأشياء** ، ص 338 (تعليقه على فينومينولوجية هوسرل ، ص 336).

الخارج على خط الانثناء . فيفسح اللامفكر فيه الاشكالي الفرصة لموجود يفكر ويتساءل حول نفسه كذات اخلاقية (هي « المتأصل الفطري » لدى « أرطو » والتقاء الذات بالجنسية لدى فوكو) . التفكير ثني وطي للخارج بداخل يمتد بامتداده . والموقع العام للتفكير ، والذي كان يوجد قبلاً ، « بجوار » فرديات ، ينتهي به المطاف الى أن يصبح انثناء للخارج في الداخل : « داخل الخارج والعكس » ، كما جاء في كتاب تاريخ الحمق . لقد أمكننا اثبات أن أي تنظيم (أي فصل ووصل) كان يفترض البنية الموقعية الأولى لخارج ولداخل مطلقين ، تلك البنية التي تولد برانيات وجوانيات نسبية وسيطة : كل فضاء الداخل في ارتباط موقعي بفضاء الخارج ، بصرف النظر عن المسافات والفواصل ، وعلى تخوم « كائن حي » ،وبدل أن تجد هذه الموقعية الجسدية أو الحيوية أساسها في الفضاء ، فانها تطلق عنان زمان يكثف الماضي في الداخل ، ويأسر المستقبل في الخارج ، ويلاقيهما في الحاضر الحي » [51] . فوكو مجرد وثائقي على طريقة « غوغول » Gogol، وخرائطي على طريقة تشيكوف Tchekov، لكنه كذلك دارس مواقع ، على طريقة « بييلي » Biély في روايته الهامة « بطرسبورغ» Petersbourg التي يعتبر فيها ثنايا القشرة الدماغية وتعاريجها تحولاً للخارج والداخل : الربط بين المدينة والدماغ بحيث يصبح أحدهما الوجه الخلفي للآخر في فضاء ثان . بهذا الأسلوب الذي لا يدين بشيء الى هيدغر ، يفهم فوكو التناسخ والانثناء . اذا كان الداخل ينشأ كانثناء أو طي للخارج ، فان بين الداخل والخارج علاقة موقع : أي أن علاقة الذات بذاتها مماثلة للعلاقة بالخارج والعلاقتان معاً على اتصال ، بواسطة أبنية تعتبر أوساطاً خارجية نسبياً (وداخلية نسبياً ، بالتالي) . فالداخل يلفي ذاته حاضراً برمته ، بهمة ونشاط ، في الخارج على تخوم الأبنية . يكثف الداخل الماضي (ديمومة) بأنماط ليست متصلة البتة ، لكن احتكاكها بالخارج يحييها من جديد فتتحقق في الفعل والحاضر . ومعنى التفكير أن نأوي الى بناء ما في الحاضر ، يكون بمثابة حد : ماذا أستطيع أن أرى وماذا أستطيع أن أقول اليوم ؟ التفكير في الماضي مثلما يتكثف في الداخل في علاقة الذات بذاتها (يقطنني يوناني أو مسيحي . . .) . التفكير في الماضي صدا عن الحاضر ، التصدي

(51) Simondon, L'individu et sa genèse physico – biologique, P.U.F, 258 – 265.

للحاضر ، لا من أجل الرجوع الى الوراء ، بل « رغبة في زمان مستقبل » (نيتشه) ، أي عن طريق جعل الماضي حياً وحاضراً في الخارج ، ليأتي في الأخير شيء جديد ، ليبلغ التفكير ذاته دوماً . يفكر التفكير في تاريخه الخاص به (الماضي) . انما من أجل التخلص مما يفكر فيه (الحاضر) كي يكون قادراً في الأخير على « أن يفكر بكيفية مختلفة » (المستقبل)[52]. وهذا ما كان يسميه بلانشو « الشغف بالخارج »، أي قوة لا تنزع الى الخارج الا لكون هذا الأخير أمسى هو ذاته « سريرة »، « وطوية »[53]. والمستويات الموقعية الثلاثة مستقلة نسبياً عن بعضها البعض ، الا أنها تتبادل التأثير في بعضها البعض باستمرار. ومن شأن الأبنية أن تظهر دوماً عن أبنية أدنى تسمح برؤية شيء جديد . وقوله . ومن شأن العلاقة بالخارج كذلك أن تعيد النظر في القوى القائمة ، وأخيراً من شأن علاقة الذات بذاتها أن تنشيء أنماط تولد جديدة للذات وأن تستلزمها . يدخل عمل فوكو في اطار الأعمال الكبرى التي غيرت مفهومنا حول ما يعنيه لفظ تفكير .

مبيان فوكو

1 ـ خط الخارج 2 ـ منطقة استراتيجية 3 ـ الأبنية 4 ـ الانثناء (منطقة تولد الذات).

---

(52) استخدام اللذات ، ص 15.

(53) Blabchot, L'entretien infini, 64 – 66.

لم أكتب يوماً سوى خيالات وأوهام . . » لكن لم يسبق يوماً ما لأية أوهام أو خيالات أن أنجبت هذا العدد الهائل من الحقائق والوقائع . ما السبيل الى حكي ورواية وهم فوكو الأكبر ؟ يتكون العالم من مساحات بعضها فوق بعض ، وأنظمة عبارات أو أبنية . العالم أيضاً معرفة . الا أن الأبنية يخترقها في الوسط شرح يفصل بين اللوحات البصرية من جهة ، والمنحنيات الصوتية من جهة ثانية : يفصل بين العبارات والمرئيات في كل بناء من الأبنية ، أي بين شكلي المعرفة اللذين لا سبيل الى تقليصهما أورد أحدهما الى الآخر : ألا وهما الرؤية واللغة، من حيث هما وسطا برانية شاسعان ، تترسب عليهما ، على التوالي ، الرؤى والعبارات . نحن اذن مأخوذون في حركة مزدوجة ، نتجه نزولاً من بناء الى آخر ومن شريحة إلى أخرى ، نعبر المساحات واللوحات والمنحنيات ، نقتفي آثار الشرخ ، بغية بلوغ داخل العالم ، أو كما قال Melville ، نبحث عن غرفة في الوسط والرهبة تتملكنا من ألا نعثر فيها على أحد ومن ألا تكشف نفس الأنسان عن فراغ هائل ومهول (يحلم بالبحث عن الحياة في المحفوظات؟) لكننا نحاول في الوقت ذاته أن نرقى الى ما فوق الأبنية من أجل بلوغ خارج ، بلوغ عنصر محيط ، « مادة لم تعرف بعد بناء » تكون قادرة على تفسير كيفية تداخل شكلي المعرفة وتضافرهما داخل كل بناء ، على جانبي الشرح . والا فكيف يمكن أن يكون ثمة اتصال بين جزءين يكونان نظام العبارة ، كيف يعقل أن تنبثق العبارات في اللوحات ، وأن تبرز هذه الأخيرة في العبارات؟ .

ان هذا الخارج اللاشكلي ، معركة لهو بمثابة منطقة صخب واهتياج ، تصطرع فيها نقط فردية وعلاقات القوى الموجودة بين تلك النقط . أما الأبنية ، فلا تعمل الا على تسجيل ضراوة المعركة والتقاط صور النقع الذي تثيره سنابك الخيول على الأبنية ، وصدى أصواتها ، مع تجميدهما . وفوق الأبنية لا تتخذ الفرديات شكلاً ولا تتقمص مظهر أجسام مرئية ولا أشخاص متكلمين . اننا نلج ميدان تناسخات لا يقينية وميتات جزئية ، ميدان ميلاد واختفاء (منطقة بيشا) . انه ميدان ميكروفيزياء . نظل فيه كما يقول « فولكنر » Faulkner ، منشدين الى أعلى ، لا كأشخاص هذه المرة ، بل كفراشتين أو ريشتين ، لا ترى أيهما الأخرى ولا تسمعها « وسط سحب عاصفة تنقشع ببطء من الغبار الذي يثيره هتافنا بالموت للأوغاد! ومطالبتنا بقتلهم » . كل حالة جوية يقابلها في هذه المنطقة مبيان قوى أو فرديات

محصلة في علاقات ، أي استراتيجية. اذا كانت الأبنية من الأرض ، فان الاستراتيجية جوية أو بحرية . غير أن من شأن الاستراتيجية أن تتحقق فعلاً وتتجسد في البناء ، ومن شأن المبيان أن يتجسد في نظام العبارة ، في المادة غير المبنية التي لم تتعرض لأي بناء . التجسد والخروج الى الفعل ، وصل وفصل في آن معاً . تكامل وتفاضل ، افتراق واندماج ، تفترق علاقات االقوى اللاشكلية فيما بينها عن طريق خلق شكلين متغايرين ، شكل المنحنيات التي تمر بجانب الفرديات (العبارات)، وشكل اللوحات التي توزع تلك الفرديات صور وألوان (المرئيات) . وتندمج علاقات القوى في الوقت ذاته ، بالضبط ، بالعلاقات الشكلية بين الشكلين معاً ، جنباً الى جنب مع افتراقهما . ذلك أن علاقات القوى كانت لا تعرف الشرخ الذي لا يدب الا في أسفل الأبنية . وهي قادرة على أن تعمق الشرخ وذلك عن طريق تجسدها في الأبنية ، بل وعلى أن تقفز كذلك فوقها في الاتجاهين معاً ، مفترقة دون أن تنفك عن الاندماج ببعضها .

تأتي القوى دوماً من الخارج ، من خارج أبعد من أي شكل برانية. كما أنه لا توجد سوى فرديات محصلة في شباك علاقات القوى فحسب ، بل ثمة كذلك فرديات مقاومة قادرة على تغيير تلك العلاقات والاطاحة بها وتغيير المبيان غير القار. بل ثمة فرديات منعزلة ، لم تعرف بعد أي ارتباط أو اتصال بخط الخارج ذاته ، والتي تغلي بوجه خاص فوق الشرخ أساساً. أنه خط مرعب يشمل كل المبيانات ، فوق العواصف نفسها ، خط ملفيل Melville،ذو الطرفين الطليقين ، والذي يلف الزورق كله في تعرجاته وانعطافاته الملتوية ، وسيستسلم بعد ذلك لالتواءات فظيعة ، ويجازف بجر انسان ما حينما ينسحب ، أو خط ميشو Michaux « المتعدد الانعراجات » ، ذو السرعة الجسيمية المتزايدة ، « كسوط سائق عربة هائج » . ومهما بلغ هذا الخط من هول ورعب ، فانه خط حياة ، حياة لم تعد تقاس بعلاقات القوى ، حياة تحمل الانسان الى ما وراء الرعب . ذلك انه في موضع الشرخ ، يرسم الخط دائرة مقفلة وكأنه « مركز زوبعة ، حيث تحلو الحياة ، بل حيث ، الحياة ذاتها تكون في أبهى صورها . فكما لو أن السرعات الحثيثة ،ذات المدد القصيرة ، تشكل « وجوداً بطيئاً » على ديمومة أطول ، كأن الأمر غدة صنوبرية ، ما تنفك تعيد بناء ذاتها بتغيير اتجاهها راسمة بذلك فضاء داخل ، لكنه

يمتد بامتداد الخارج كله . يغدو الأقصى والأبعد داخلياً بفضل تحول يقلبه الى أقرب وأدنى : الحياة داخل الثنايا انها الغرفة الوسطى التي لم نعد نرتاب أنها فارغة ، ما دمنا نؤوي اليها ذواتنا . ها هنا نغدو متحكمين في سرعتها ومتحكمين نسبياً في جزيئاتها وفردياتها ، داخل منطقة تولد الذات هذه : الزورق كداخل للخارج .

ملحق

حـول مـوت الانسـان
وفكرة الإنسان الأعلى

ان المبدأ العام في فكـر فوكـو هو أن كـل شكل يتـركب من علاقـات قوى . وبخصوص القوى ، سنتساءل باديء ذي بدء عن قوى الخارج التي تدخل معها تلك القـوى في علاقـة ، ثم عَن الشكل المتـرتب عن ذلك . لنفتـرض أن ثمة قـوى في الانسان : قوى التخيل والتذكر والتصور والارادة. . . سيعترض على هذا بالقول ، أن هذه القوى تفترض سلفاً أن ثمة الانسان أولاً ، وهو اعتراض في غير محله من حيث الشكل. إذ القوى في الانسان لا تفترض سوى مواضع ونقط انطباق وحقلا للوجود .

بل ان القوى في الحيوان (كالحركية وقابلية التهيج . . .) لا تقتضي أي شكل محدد. ويفرض المقام هنا معرفة ما هي القوى الأخرى التي تدخل معها قوى الانسان في علاقة ، ضمن هذه التشكيلة التاريخية أو تلك ، وما هو الشكل الحاصل من تلك العلاقة بين القوى. وبوسعنا أن نؤكد سلفاً أن القوى في الانسان لا تدخل بالضرورة ، في تركيب شكل ـ انسان ، بل تظل ممكنة الاستغلال وتقبل التوظيف بنحو آخر وفي تركيب مختلف وبكيفية مغايرة : فلم يوجد الانسان أبداً ولن يوجد دائماً حتى بالنسبة

لفترة قصيرة المدة . ولكي يظهر شكل ـ الانسان أو تبرز ملامحه ، على القوى في الانسان أن ترتبط بعلاقة مع قوى خاصة جداً من الخارج .

I

التشكيلة التاريخية « الكلاسيكية ».

يتميز التفكير الكلاسيكي بأسلوبه في تصور اللامتناهي والتفكير فيه . ذلك أن أية حقيقة ، داخل قوة ، « تساوي » الكمال ، فهي تقبل بالتالي الارتقاء الى ما لا نهاية (الكمال اللامتناهي)، وما عدا ذلك فهو متناه ومحدود ، وليس غير ذلك . فبامكان قوة التصور ، مثلاً ، أن تصعد الى ما لا نهاية ، بحيث يبدو الفهم الانساني مجرد حد وحصر لفهم لا متناه . ومما لا شك فيه أن ثمة أنظمة لا تناه متباينة ، لكنها أنظمة يحكمها الحد الذي يكبح هذه القوة أو تلك . ويمكن لقوة التصور أن ترتقي مباشرة الى ما لا نهاية ، في وقت لا تستطيع فيه قوة التحليل أن ترتقي الا الى لا متناه من مستوى أدنى أو متفرع . ولم يكن القرن السابع عشر على جهل بالتمييز بين اللامتناهي واللامحدود، الا أنه كان يعتبر اللامحدود أسفل درجات اللامتناهي . ومسألة معرفة ما اذا كان الامتداد صفة يوصف بها الله أم لا ، لها ارتباط بالتمييز بين جانب الحقيقة في ذلك وجانب التحديد، أي جانب نظام اللاتناهي الذي يمكننا أن نصعد به اليه . تعني اذن ، أهم نصوص القرن السابع عشر وأكثرها تميزاً ، بالتمييز بين أنظمة اللاتناهي ، اللاتناهي في الكبر واللاتناهي في الصغر ، حسب تعبير باسكال ، اللاتناهي بالذات واللاتناهي بالعلة واللاتناهي بين حدود ، حسب تعبير سبينوزا ، وكل ألوان اللاتناهي التي ميز بينها ليبنتز Leibniz . . . وليس التفكير الكلاسيكي ، بالتأكيد ، تفكيراً صافياً وشفافاً : فهو ما ينفك يتيه في اللاتناهي ، أو كما يقول « ميشال صير » M.Serres، ما ينفك يفقد أي مركز ويخسر أية أرضية ، يكابد الهم ويعاني محاولاً تثبيت مكان للمتناهي بين سائر تلك اللاتناهيات ، تحدوه في كل ذلك رغبة وضع نظام للامتناهي[1] .

واجمالاً ، تدخل قوى الانسان في علاقة مع قوى الصعود الى اللامتناهي .

---

(1) Serres, Le système de Leibniz, P.U.F., II, 648 – 657.

وهذه الأخيرة هي قوى الخارج ، ما دام الانسان محدوداً وعاجزاً عن أن يفهم نفسه بنفسه ويدرك تلك القوى الكاملة التي تخترقه . كما أن مركب القوى في الانسان ، من جهة ، وقوى الصعود الى اللامتناهي التي توجهها تلك القوى ، من جهة أخرى ، ليس شكل الانسان بل شكل ـ الله . يعترض على هذا بأن الله غير مركب ، وبأنه وحدة مطلقة لا سبيل الى ادراك كنهها . هذا صحيح ، لكن الشكل ـ الله يعد بالنسبة لسائر مؤلفي القرن السابع عشر مركباً . يتركب أساساً من كل القوى القابلة للصعود الى اللامتناهي مباشرة (تارة الفهم والارادة ، وطوراً الفكر والامتداد. . .). أما فيما يخص القوى الاخرى التي لا ترقى الا بالعلة ، أو بين حدود ، فانها ترتبط ، رغم ذلك ، بالشكل ـ الله ، لا بالجوهر ، بل بالعرض ، بحيث نستطيع اعتبار أي منها دليلاً على وجود الله (الدليل الكوني ، الدليل الفيزيائي الغائي) . على هذا النحو ، ارتبطت قوى الانسان ، في التشكيلة التاريخيه الكلاسيكية بقوى خارجة عن الطبيعة ، بحيث كان المركب هو الشكل ـ الله وليس الشكل ـ الانسان . هوذا عالم التمثيل اللامتناهي .

أما في الأنظمة المتفرعة ، فيتعلق الأمر باكتشاف العنصر الذي ليس متناهياً بذاته ، لكنه لا يقل قابلية للصعود نحو اللامتناهي ، فيرتسم بذلك في لوحة ، أو في سلسلة لا محدودة ، في متصل قابل للاطالة والتمديد . انه دليل العلمية الكلاسيكية حتى في القرن الثامن عشر : « السمة » بالنسبة للكائنات الحية ، و« الجذر » بالنسبة للغات ، و« النقود» (أو الأرض) بالنسبة للثروات[2]. وعلوم كهذه ، علوم عامة ، وصفة العموم هذه اشارة الى نظام اللاتناهي ، لم يعرف القرن السابع عشر كذلك البيولوجيا ، بل عرف تاريخاً طبيعياً لا يشكل منظومة ولم ينتظم في سلسلة ، لم يعرف كذلك اقتصاداً سياسياً ، بل تحليلا للثروات ، لم يعرف أيضاً فقه لغة أو علم لسان ، بل عرف نحواً عاماً . وسيقوم فوكو بتحليل هذا المظهر الثلاثي عاملاً على كشف المواضع البارزة التي تعكس ذلك على صعيد العبارات . وطبقاً لمنهجيته ، اخرج فوكو الى واضحة النهار « التجربة الحفرية » للتفكير الكلاسيكي والتي على صعيدها تنبثق أوجه تشابه وقرابات لم تكن في الحسبان ، وتنفصم عرى وأواصر نسب ،

---

(2) الكلمات والأشياء ، الفصول : 6،5،4.

اعتقدوا وبمبالغة أنها ثابتة . وهي منهجية تجنبنا كثيراً من الأحكام المتسرعة كجعل « لامارك » Lamarck مثلاً أحد الممهدين لـ« دارون » Darwin ، اذا كان صحيحا أن عبقرية « لامارك » تتمثل في ادخال التاريخية الى الكائنات الحية ، بكيفيات متعددة ، فان رغبته مع ذلك ، في الحفاظ على تسلسل الحيوانات وتكريساً منه لفكرة السلسلة ، لم يتمكن من مغادرة هذه الأخيرة التي صارت تتهددها عوامل جديدة . وعليه ، وخلافاً لدارون ، لا يجد لامارك مكانه الا على « التربة الحفرية الكلاسيكية »[3]. وما يحدد هذه الأخيرة ، وما يشكل ذلك النصف الكبير من العبارات المدعوة كلاسيكية ، وظيفياً ، هو عملية التطور الى ما لا نهاية ، وتكوين متصلات وسط جداول : البسط والبسط دائماً أي « التفسير » . ماذا يعني الله ان لم يكن التفسير الشامل ، والبسط الأعلى ؟ ها هنا يبدو **المنبسط** كتصور أساسي ، كمظهر أول ورئيسي لتفكير اجرائي جسدته التشكيلة الكلاسيكية . وهذا ما يفسر لنا ترديد فوكو بكثرة اللفظ « منبسط » . واذا كانت العيادة تنتسب الى تلك التشكيلة ، فلأنها تقوم أساساً على بسط الأقمشة وعرضها أو نشرها على « مساحات ذات بعدين » ، وعلى بسط الاعراض كمجموعات يمكن أن تتمخض عنها تركيبات لا متناهية[4].

II

التشكيلة التاريخية للقرن التاسع عشر

يكمن التحول الذي أصاب هذا القرن فيما يلي : دخلت قوى الانسان في علاقة بقوى الخارج الجديدة التي هي قوى التناهي ، هذه القوى هي الحياة ، الشغل واللغة : الأصل الثلاثي للتناهي الذي ستتولد عنه البيولوجيا والاقتصاد السياسي وعلم اللغة . ولعلنا تعودنا على هذا التحول الحفري : تنسب غالباً هذه الثورة التي حل فيها « التناهي بوصفه عنصراً مكوناً » حمل اللاتناهي الأصلي[5]. واعتبار التناهي مكوناً

---

(3) **الكلمات والأشياء** ، ص 243. أكدت الدراسات النموذجية التي قام بها Daudin حول **Les classes zoologiques et l'idée de série animal,** كيف أن التصنيف كان في العصر الكلاسيكي يتم وفقاً لسلاسل .

(4)**ميلاد العيادة** ، 119, 138.

(5) عرف هذا الموضوع صورته الأوضح في كتاب Vuillemin وهو بعنوان :
L'héritage kautien et la révolution copernicienne, P.U.F.,

وعنصراً مؤسساً ، أمر لا يقبل به العصر الكلاسيكي غير أن فوكو يدخل على هذه الخطاطة عنصراً جديداً تمام الجدة : بينما كان يقال لنا أن الانسان يعي تناهيه الخاص ضمن شروط محددة تاريخياً ، ليس الا ، يلح فوكو على ضرورة ادخال لحظتين متمايزتين أوضح التمايز . يجب أن تبدأ القوة في الانسان بمواجهة قوة التناهي والاشتباك معها كقوى الخارج : عليها أن تتصدى للتناهي ، خارج ذاتها . بعدها ، وبعدها فحسب، تجعل منه في مرحلة ثانية ، تناهيها هي ، فتعيه حتماً كتناه خاص بها . ويعني هذا أن قوى الانسان عندما تدخل في علاقة بقوى التناهي الآتية من الخارج ، حينئذ ، وحينئذ فحسب ، تركب معها الشكل ـ الانسان (وليس الشكل ـ الله) . وتلك بداية الانسان Incipit Homo .

ها هنا يظهر منهج تحليل العبارات عن كونه منهجاً ميكروتحليلياً ، يميز بين لحظتين حيثما لم نكن نرى سوى لحظة واحدة[6] . تتمثل أولاهما في أن شيئاً ما يأتي ليقطع التسلسل ويكسر الاتصال نازعاً عنهما امكانية الانبساط السطحي . يشبه الامر ظهور بعد جديد، عمق سحيق يتهدد أنظمة التمثيل اللامتناهي. مع « جيسيو » Jussieu و« فيك دزير » Vicq d'Azir و « لامارك » ، تظهر قوة التنظيم لتفرض تصنيفاً للكيانات العضوية التي لم يعد من الممكن حشرها في خانة واحدة ، بل أمست قائمة بذاتها ومنفصلة (والملاحظ أن التشريح المرضي أكد على هذا الميل الى الانفصال ، باكتشافه لعمق عضوي أو لـ« حجم مرضي »). مع « جونز » Jones، تأتي قوة الاعراب لتغير من نظام الجذور. مع آدم سميث تأتي قوة الشغل (الشغل المجرد ، الشغل أياً كان والذي لا يتصف بصفة معينة) لتغير من نظام الثروات . ولا يعني هذا أن العصر الكلاسيكي ، كان يجهل التنظيم والاعراب والشغل ، بل كان يعرفها ، لكن الدور الذي كانت تلعبه ، كان دور حدود لا تحول الكيفيات الموافقة عن أن تصعد الى ما لا نهاية ، ومن أن تنبسط بصورة لا متناهية ، ولو من حيث

(6) في الكلمات والأشياء يذكر فوكو باستمرار بضرورة التمييز بين لحظتين ، الا أنهما لحظتان لا تتحدان بنفس الكيفية : تارة ، وبالمعنى الضيق ، هما شيئان يحصلان على تاريخية خاصة ، والانسان الذي يمتلك هذه التاريخية في لحظة ثانية (380 – 381)، وطورا، وبالمعنى العام ، هما « صورتاه » متغيرتان . ثم هما « نمط وجود » (ص233).

الامكان . أما في القرن التاسع عشر ، فانها أفلتت من الصفة والكيفية ، لتعمق شيئاً لا يقبل الاتصاف ، ولا يمكن تمثيله ، والذي هو كذلك الموت في الحياة ، المشقة والجهد في الشغل ، التهتهة أو الحبسة في الكـلام . بل حتى الأرض ستكشف عن بخلها الأصلي وستتخلى عن نظام لا تناهيها المظهري[7] .

عندئذ يغدو كل شيء على أهبة الاستعداد لتقبل اللحظة الثانية ، لتقبل بيولوجيا واقتصاد سياسي وعلم لغة . اذ يكفي أن تنثني الأشياء والكائنات الحية والكلمات في هذا العمق الذي هو بالنسبة لها بعد جديد، وأن ترتد الى قواها والتي هي قوى تناه . ولن تعود ثمة قـوة تنظم الحيـاة فحسب ، بل ومخـططات (تنظيم مكـاني ـ زماني ، يتعـذر اختزال بعضهـا في بعض ، تبعـاً لهـا تفتـرق الكـائنـات وتختلف (كـوفيي) Cuvier . لن تكون ثمة قوة اعراب في اللغة فحسب. بل ومخططات تتوزع حسبهـا اللغات التي تلحق بمفرداتها زوائد في التصريف والاعراب وحيث تحل مكان كفـاية الكلمـات والحروف العـلاقات الصـوتية ، وحيث لا تعـود اللغـة تتحـدد بتعيينـاتهـا ودلالاتها ، بل بالاحالة الى « ارادات جماعية » (بوب Bopp وشليغـل Schlegel) . لم نعد أمام قوة الشغل المنتج فحسب، بل وأمام شروط الانتاج كذلك والتي تبعا لها يرتد الشغل نفسه الى رأس المال (ريكاردو)، قبل أن يظهر القول بالعكس ، ألا وهو رد رأس المال الى الشغل المستلب (ماركس) . وأينما ولينا أنظارنا في القرن التاسع عشر ، الا ولاحظنا حلول المقارن محل العلم الذي كان هاجس القرن السابع عشر : كالتشريح المقارن ، وفقه اللغة المقارن ، والاقتصاد المقارن . أينما ولى المرء وجهه الا وثمة الانثناء والطي ماثـل ومهيمن ، حسب المصطلح الفـوكوي ، وهـو المظهـر الثاني للتفكير الاجرائي الذي تقمصته تشكيلة القرن التاسع عشر . ترتد قوى الانسان أو تنثني في هذا البعد الجديد، بعـد التناهي في العمق ، والـذي غدا وقتهـا تناهي الانسان ذاته . يردد فوكو باستمرار أن الانثناء هو ما يشكل « سمكاً » وفي الوقت ذاته « عمقاً » .

ولكي نفهم بكيفية أفضل ، كيف أضحى الانثنـاء المقولـة الاساسيـة ، تكفي

---

(7) الكلمات والأشياء، ص 268.

العودة الى ميلاد البيولوجيا حيث نعثر على كل ما من شأنه أن يحكم لصالح فوكو (لا بخصوص هذا الميدان فحسب ، بل وبخصوص سائر الميادين الأخرى) . حينما ميز (كوفيي) بين أربعة فروع أو شعب ، لم يحدد عموميات أوسع من الأنواع والأصناف ، بل حدد بالعكس فصولاً تقف عائقاً أمام استمرار الأجناس واتصالها واجتماعها ضمن علاقات عمومية أكثر فأكثر ، فالفروع أو الشعب ومخططات التنظيم تشرك محاور وتوجيهات وديناميات تجعل الكائن الحي ينثني هذه الكيفية أو تلك . لهذا السبب عرفت أعمال (كوفيي) استمرارها في علم الأجنة المقارن مع باير Baër ، طبقاً لانثناء الوريقات الوارثية . وعندما يعارض « جوفروا سانتيلر » مخططات التنظيم لدى « كوفيي » بفكرة مخطط واحد ووحيد للتركيب ، فانه ما يزال يستلهم منهج انثناء وطي : ذلك أننا ننتقل من الحيوانات ذات العمود الفقري الى الرخويات رأسيات الأرجل ، اذا ما قارنا طرفي النخاع الشوكي للظهر ذي العمود الفقري . اذا ما سجنا رأسه نحو الارجل وحوضه نحو قفاه[8] . . . اذا كان « جوفروا » ينتسب الى ذات « التربة الحفرية » التي ينتمي اليها « كوفيي » (بناء على منهج فوكو في تحليل العبارات) . فلأنهما يستلهمان معاً الانثناء ، يستلهمه أحدهما كبعد ثالث يمنع من الانتقال سطحياً من نوع إلى آخر ، بينما يستلهمه الثاني كبعد ثالث يبيح ذلك الانتقال عمقياً . يضاف الى هذا أن ثمة قاسماً مشتركاً بين « كوفيي » و« جوفروا » و« باير » ، ويتمثل في مناوءتهم للنزعة التطورية . لكن دارون سيقيم نظرية الانتقاء الطبيعي على قدرة الكائن الحي ، على تفريع السمات وتعميق الفوارق . فلأن الكائنات الحية تنثني بكيفيات مختلفة (تميل الى الاختلاف) ، تمكن أكبر عدد منها أن يستمر في البقاء داخل نفس المكان . الى حد أن دارون ظل ينتمي عكس لا مارك الى ذات التربة الحفرية التي ينتمي اليها « كوفيي » ، من حيث أنه يؤسس نزعته التطورية على استحالة التماس والتجاوز ، وانهيار المتصل المتسلسل[9] .

---

(8) Geoffroy Saint –Hilaire, **Principes de philosophie zoologique,** ويحتوي على نقاش مع كوفيي حول مسألة الطي .

(9) حول « القطيعة » الكبرى التي أنجزها كوفيي ، والتي تجعل لا مارك ينتسب الى التاريخ الطبيعي الكلاسيكي في الوقت الذي خلق فيه كوفيي امكانية تاريخ للكائن الحي سيظهر مع دارون : أنظر **الكلمات والأشياء** ، ص 287 – 289 و307.

اذا كان الانثناء والبسط يحرران لا مفاهيم فوكو فحسب، بل وحتى أسلوبه ذاته ، فلأنهما يشكلان حفريات تفكير. ولعل استغرابنا سيكون أقل من التقاء فوكو وهيدغر في هذه النقطة بالذات . ويتعلق الأمر بالتقاء أكثر مما يتعلق بتأثر : ذلك أن الثني والبسط استقاهما فوكو من أصل مخالف واستخدمهما استخداماً يختلف أتم الاختلاف عن ذلك الذي نجده لدى هيدغر . مع فوكو ، نحن أمام علاقة قوى ، تصارع فيها القوى الجهوية تارة قوى الصعود الى ما لا نهاية (الانبساط)، مشكلة بذلك الشكل ـ الله ، وتواجه فيها تارة أخرى قوى التناهي (الانثناء) منشئة بذلك الشكل ـ الانسان . تلك قصة نيتشية بدل أن تكون هيدغرية ، انها حكاية ردت الى نيتشه أو الى **الحياة**. « ما من كائن يوجد الا لأن ثمة حياة. . . تجربة الحياة تبدو ، على هذا الأساس ، كقانون أشمل للكائنات. . . لكن هذه الأنطلوجيا تميط اللثام عما يمنح الكائنات في لحظة ما شكلا وقتياً عابراً ، أكثر مما تميطه عما يؤسسها. . »[10].

III .

نحو تشكيلة للمستقبل

أن يكون كل شكل وقتياً عابراً ، تلك هي البداهة نفسها ، ما دام يتبع علاقات القوى ويكون رهيناً بتقلباتها . وأننا لنحرف نيتشه عن مقصده عندما نجعل منه فيلسوف موت الله . إذ الحقيقة هي أن فويرباخ « هو آخر فيلسوف ينسب اليه ذلك : إذ يؤكد أن الله لم يكن سوى بسط للانسان ، وهذا الأخير مضطر الى أن يثني الله ويعيد ثنيه . أما بالنسبة لنيتشه ، فما يقول به « فويرباخ » حكاية قديمة ، ولما كانت الحكايات القديمة من سماتها الخاصة أنها تتعرض لروايات عديدة مختلفة ، فان نيتشه سيتقدم هو الآخر بروايته مضيفاً اياها الى الروايات الأخرى ، والتي هي جميعاً روايات هزلية مضحكة ، تسرد نفس الشيء بأساليب متنوعة . لكن ما يعنيه ، هو موت الانسان ، طالما أن الله موجود ، أي طالما أن الشكل ـ الله يشتغل ، فالانسان لم يوجد بعد . أما عندما يظهر الشكل ـ الانسان . فان ذلك لا يكون الا بفهم سابق

---

(10) **الكلمات والأشياء** ص 291 (هذا النص الذي ورد بخصوص البيولوجيا في القرن التاسع عشر ، يبدو لنا على جانب كبير من الفائدة حيث يعبر عن جانب ثابت في فكر فوكو) .

لموت الانسان ، وهو أمر يكون بثلاث كيفيات على الأقل. من جهة أولى ، أين يمكن للانسان أن يتوفر على ضمان لهويته في غياب الله[11]؟ ومن جهة ثانية ، لم يتكون الشكل ـ الانسان ذاته الا داخل ثنايا التناهي : فهذا الاخير يبعث الموت في الانسان (ولقد تبين لنا ذلك بكيفية أجلى مع « بيشا » منها مع هيدغر ، فقد كان الأول ينظر الى الموت على أنه « موت عنيف »[12]. ثالثاً وأخيراً تجعل قوى التناهي ذاتها أن الانسان لا يوجد الا عبر تناثر مخططات تنظيم الحياة ، وتبعثر اللغات وتباين أنماط الانتاج ، ذلك التناثر والتباين والتبعثر الذي يقتضي أن يكون « نقد المعرفة » الوحيد ، « أنطلوجيا ابادة الكائنات » وتدميرها (لا علم المستحاثات فحسب، بل الاثنلوجيا)[13]. لكن ما الذي يريد فوكو قوله حينما يذهب الى أن لا شيء يستدعي الحسرة والبكاء على موت الانسان[14]؟ وهل كان هذا الشكل حقاً جيداً ؟ هل استطاع أن يثري القوى داخل الانسان وأن يحفظها : قوة الحياة وقوة الكلام وقوة الشغل؟ هل وفر على البشر الموجودين عناء الموت العنيف؟ السؤال المعاد دائماً هو اذن كالتالي : اذا كانت قوى الانسان لا تركب شكلا ما الا بالدخول في علاقة مع قوى الخارج ، فمع أية قوى جديدة تجازف بالدخول معها في علاقة الآن وأي شكل جديد يتمخض عن ذلك ولا يكون الله أو الانسان ؟ انه الطرح الصحيح للمشكل الذي كان يسميه نيتشه « الانسان الاعلى » .

انه المشكل الذي لا يسعنا فيه سوى الاكتفاء باشارات متروية وحذرة جداً ، والا وقعنا في أوصاف تقريبية تشبه الرسوم المتحركة . فوكو كنيتشه ، لا يمكنه سوى

---

(11) انها النقطة التي يؤكد عليها كلوسوفسكي في : Nietzche et le cercle vicieux.

(12) بيشا هو الذي قطع ، كما لاحظنا ، مع المفهوم الكلاسيكي للموت ، كلحظة حاسمة لا تقبل التجزيء (عبارة مالرو والتي يرددها سارتر ، والتي مفادها أن الموت هو ما « يحول الحياة الى قدر » تنتسب الى العصر الكلاسيكي). التجديدات الثلاثة التي جاء بها بيشا تتمثل في طرح الموت باعتباره يمتد بامتداد الحياة ، جعلها حاصل ميتات جزئية وتتويجاً كلياً لها ، والكلام عن « الموت العنيف » بدل « الموت الطبيعي » (حول أسباب هذه النقطة الأخيرة أنظر كتاب Recherches physiologiques sur la vie et la mort, Gauthier – Villar, (160 – 166).

وكتاب بيشا أول كتاب يتضمن مفهوماً جديداً للموت.

(13) الكلمات والاشياء ، ص 291.

(14) Qu'est ce qu'un auteur? p. 101.

اقتراح رسوم أولية ، بالمعنى الجنيني فقط ، لا الوظيفي[15]. كان نيتشه يقول : اعتقل الانسان الحياة ، والانسـان الأعلى هو المؤهـل لانقاذهـا والافراج عنهـا في الانسان ذاته، لصالح شكل آخر وفي اتجاهه. . . ويقدم فوكو اشارة في منتهى الغرابـة : اذا كان من الصّحيح أن علم لغة القرن التاسع عشر الانسي ، قام على أسـاس التفريق بين الألسن كشرط لتهييء اللغة كموضوع ، فان صدمة ما حدثت وتتمثل في أن الأدب أوكــل لنفسه وظيفة جديدة ، تقوم على العكس، على « جمع شمل » اللغة والتأكيد على « مادية اللغة » فيما وراء ما تشير اليه وتدل عليه ، وفيما وراء أصواتها ذاتها[16].

والغريب في الأمر ، أن فوكو يمنح للغة ، أثناء تحليله للأدب الحديث ، امتيازاً يضن به على الحياة والشغل. اذ يعتقد أن الحياة والشغل ، رغم تشتتهما الموازي لتشتت اللغة ، لم يفقدا وحدتهما وكيانهما[17]، ويبدو لنا مع ذلك ، أن الشغل والحياة ، في تبعثرهما الخاص، لم يعرف كلاهما الالتئام ، الا عن طريق نـوع من الانفصال عن الاقتصـاد أو البيولـوجيا ، شـأنهما في ذلـك بالـذات ، شأن اللغـة التي لم تلتئم الا بانفصال الأدب عن علم اللغة . وقد كان على البيولوجيا الى أن تتحول الى بيولوجيا جسيمية ، أو أن تلتئم الحياة المشتتة ، ضمن قانـون الوراثيـات . كان على الشغـل المتنـاثر أن يلتئم ضمن آلات من النـوع الثالث ويجتمـع شمله فيها ، آلات مـوجهة واعلامية ـ أي القوى يكون بامكانها الدخول في علاقة مع قوى الانسان ؟ لن تعود هي الصعود الى اللامتناهي ولا حتى التناهي ، بل انها المتناهي اللامحدود ، والمقصود بذلك كل وضع قوة يسمح فيه عدد متناه من العناصر ، يظهر ـ عدد لا حصر له ، من الناحية العملية ، من التركيبات . لن يعود الانثناء أو الانبساط هو الذي يشكل الآلية الاجرائية ، بل شيء آخر **كالانثناء الاعلى** الذي تشهد عنه الثنايا الخاصة بسلاسـل قانون الوراثيات ، والامكانات الكامنة في السيلسيوم الموجود بآلات النـوع الثالث ، وكذا مدارات الجملة في الأدب الحديث، عندما « لم يعد » امام اللغة « سوى الانثناء

---

(15) **الكلمات والاشياء** ، ص 397 – 398.

(16) **الكلمات والاشياء** ، ص 309 – 313، 316 – 318، 395، 397 (حول سمات الأدب الحديث كـ« تجربـة للموت. . . والتفكير غير القابل للتفكير ، والتكرار. . . والتناهي ») .

(17) حول أسباب هذه الوضعية الخاصة للسان ، أنظر الكلمات والأشياء ، ص306 – 307 و315 – 316.

ثانية في عملية عود أبدي الى الذات »، هذا الأدب الحديث الذي يخلق « لغة أجنبية داخل اللغة » ، وينزع ، وسط عدد لا حصر له من البناءات النحوية المتسامقة ، الى تضمينها تعابير لا تخضع للأنماط المتعارفة ولا القواعد المتبعة ، كما لوكانت تنزع الى نهاية اللغة (من بين ما نشير اليه ، على سبيل المثال، كتاب ملارمي Mallarmé، تكرارات بيغي Péguy، الهامات أرطو Artaud، لا نحويات Cummings، وتضاعيف Burroughs، وطيات وتقطيعات بل وحتى توليدات روسيل وتفريعات بريسي ، وتكوين لوحات من قصاصات ملصقة كما هو الشأن مع حركة الدادا. . .) . المتناهي اللامحدود أو الانثناء الأعلى. . . أو ليس هذا هو ما سبق لنيتشه أن تحدث عنه تحت اسم العود الأبدي ؟ .

تدخل قوى الانسان في علاقة مع قوى الخارج ، قوى السيليسيوم التي تنتقم لنفسها من الكاربون ، قوى العناصر الوراثية التي تأخذ ثأرها من الكيان العضوي ، قوى اللانحويات التي تثأر لنفسها من الدال . بخصوص هذا كله ، تتعين دراسة عمليات الانثناء الأعلى ، الذي من أشهر مظاهره « الشكل الحلزوني المزدوج ». ما الانسان الاعلى ؟ انه المركب الشكلي من قوى الانسان وتلك القوى الجديدة. يميل الانسان الى أن يفرج من داخله عن الحياة والشغل واللغة ويطلق عقالها . والانسان الاعلى هو حسب قوله رامبو Rimbaud، الانسان محملاً بالحيوانات نفسها (قانون بامكانه التقاط أجزاء من مجموعة رموز أخرى ، كما هو في خطاطات التطور الجانبي أو الرجعي الجديدة) انه الانسان محمل بالصخور نفسها ، أو بما ليس عضوياً (حيثما يهيمن السيليسيوم) . انه الانسان محملاً بمادية اللغة («بتلك المنطقة الغامضة البكماء الصامتة الخالية من المعنى ، حيث تستطيع اللغة أن تتحرر « حتى مما يكون عليها أن تقوله »[18]. ان الانسان الأعلى في منظور فوكو ، أقل كثيراً من أن يكون اختفاء أو أفولاً للناس الموجودين ، وأكثر كثيراً من انقلاب في التصور ، تصور الانسان : انه بزوغ شكل جديد، غير الله والانسان ، وثمة أمل في ألا يكون أسوأ من الشكلين السابقين .

---

(18) الكلمات والأشياء ، ص 395. لا تتكلم رسالة رامبو Rimbaud عن اللسان أو الأدب فحسب، بل وعن المظهرين الآخرين : انسان المستقبل محمل بلغة جديدة، بل وبحيوانات حتى ، وربما لا شكل له .

مؤلفات فوكو الوارد ذكرها في هذا الكتاب.

Histoire de la folie à l'âge classique, Plon, 1961 et Gallimard

يعتمد المؤلف هذه الطبعة الاخيرة .

Raymond Roussel, Gallimard, 1963.

Naissance de la Clinique, P.U.F., 1963.

Les mots et les choses, Gallimard, 1966.

«La pensée du dehors», Critique, Juin 1966.

«Qu'est – ce que qu'un auteur?», Bulletin de la société française de philosophie, 1969.

Préface à **la grammaire logique de Jean – Pierre Brisset**, Tchou 1970.

Nietzsche, la généalogie, l'histoire, in «Hommage à Jean Hyppolite», P.U.F., 1971.

Ceci n'est pas une pipe, Fata Norgana, 1973.

Moi Pierre Rivière..., Gallimard – Julliard, ouvrage collectif, 1973.

Surveiller et punir, Gallimard, 1975.

La volonté de savoir (Histoire de la sexualité I), Gallimard, 1976.

«La vie des hommes infâmes » , les cahiers du chemin, 1977.

L'usage des plaisirs (Histoire de la sexualitéII), Gallimard, 1984.

Le souci de soi (Histoire de la sexualité III), 1984.

المحتويات

المعرفة والسلطة

مدخل لقراءة فوكو

يعتبر هذا الكتاب أهم وأشمل دراسة على الاطلاق أنجزت حول فوكو، فقد قام بها صديق حميم للفيلسوف الراحل ، وأحد أبرز دعاة فلسفة الاختلاف في فرنسا . و« دلوز » هو خير من يكتب عن فوكو ، لأنه في تناوله له ، لا ينطلق من موقع المعارض أو المعاند، بل من موقع من تحدوه الرغبة في أن يفهم فكر فوگو من الداخل. فهو يأخذنا معه في رحلة طويلة داخل ميدان جديد هو ميدان السلطة ، السلطة في علاقتها بالمعرفة ، مع ملاحقة التطور الذي عرفه المشكل في فكر فوكو وفي مؤلفاته ، بما فيها المؤلفات الأخيرة التي نشرت أو التي تركها فوكو بعد رحيله تنتظر النشر.

«المترجم »

الناشر: المركز الثقافي العربي
ص.ب ١٣/٥٨٨١ شوران ـ بيروت : لبنان
ص.ب 5006 ـ الدار البيضاء ـ المغرب